الفَتْحُ الرَّبَّانِيُّ
فِي دَلَائِلِ الإِعْجَازِ البَيَانِيِّ

(مقرر دراسي للدراسات العليا)

كَتَبَهُ

عرفة بن طنطاوي

عفا الله عنه

وغفر له ولوالديه ولمشايخه ولذريته وللمسلمين

عميد كلية أصول الدين والدراسات الإسلامية

بجامعة خاتم المرسلين العالمية

وأستاذ التفسير وعلوم القرآن للدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية والمعهد العالي للأئمة والخطباء بمينيسوتا

والرئيس العام لمركز تأصيل علوم التنزيل للبحوث العلمية والدراسات القرآنية

من إصدارات

https://taaselcenter.com
arafatantawy1440@gmail.com
+966503722153

موسوعة تأصيل علوم التنزيل

(١٠)

الفَتْحُ الرَّبَّانِيُّ
فِي دَلَائِلِ الإِعْجَازِ البَيَانِيِّ

(مقرر دراسي للدراسات العليا)

كَتَبَهُ

الفَقِيرُ إلى عَفْوِ رَبِّهِ البَارِي

عرفة بن طنطاوي

عَفَا اللَّهُ عَنْهُ

وَغفرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

عَمِيدُ كُلِّيَّةِ أُصُولِ الدِّينِ والدراسات الإسلامية

بِجَامِعَةِ خَاتَمِ المُرْسَلِينَ العَالَمِيَّةِ

وَأُسْتَاذُ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِ القُرْآنِ لِلدِّرَاسَاتِ العُلْيَا

بالجامعة الإسلاميَّة والمعهد العالي للأئمَّة والخطباء بمينيسوتا

وَالرَّئِيسُ العَامُّ لِمَرْكَزِ تَأْصِيلِ عُلُومِ التَّنْزِيلِ لِلبُحُوثِ العِلْمِيَّةِ وَالدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّةِ

١٤٤٢ هـ

دِيْباجةُ الكتاب وفاتحته

الحمد لله الذي بدأ بحمد ذاته العلية قبل أن يَحْمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي له كل المحامد، الأحد الصّمَد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، أهل طاعته كلهم له عابد، وهم له قانتون، ما بين قائم وراكع وساجد، حيّ لا يموت؛ قيوم لا ينام، ذو الجلال والإكرام، والهبات الكبيرة العظام؛ تكلم بالقرآن، خلق الإنسان، علمه النطق والإفصاح والبيان، أنعم على عباده بالهدى والإيمان، فأرسل رسولَه محمدًا صلى الله عليه وسلم لجميع الإنس والجان، وأيده بالحجة والبرهان المتجددين مع تجدد الْمَلَوين، وتعاقب الجديدين(١)؛أرسله بكتاب عربي واضح مبين، وجعله فارِقًا بين التوحيد والشرك، وبين الهدى والضلال، والظلمات والنور، والشك واليقين؛ أنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء فأخرستهم مشاكلتُه، أعجزت فصاحته الفصحاء فأعجزتهم معارضتُه، وأبكمت حكمته الحكماء فأعْيَتهم مناقضتُه، وأذهلت روعته لخطباء فأعجزتهم محاكاته ومخاطبتُه، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيرًا، كما قال ربنا في ذلك قولًا مبينًا: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: ٨٨).

جعل أمثاله لمن عَقِلها وتدبّرها عِبَرًا، وأوامره لمن اهتدى بها واستبصرها هُدًى ورشدًا؛ بَيَّنَ فيه ما أوجبه على عباده من العبادات والأحكام، وفرّق فيه بين ما اشتبه عليهم أمره، كما بَيَّنَ فيه معالم الحلال والحرام، وثنى فيه من المواعِظ والعبر والقصص ما تتعظ وتتذكر به سائر الأنام، ولينتفع به من شاء الله من عباده على مر العصور والأزمان والأيام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب أخبار من سكن هذه الدار لأخذ الحيطة والاعتبار والاتعاظ والادكار؛ فقال ربنا الواحد القهار:(مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) (الأنعام: من آية: ٣٨).

سهل ألفاظه لعباده وخاطبهم به ليعقلوه، وبَيَّنَ لهم فيه مقاصده ومراميه ليتعلموه،

فَقرأةُ كتابه هم حملتُهُ وهم حَفَظَةُ علمهِ المخزون، وقد جعله في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون المقربون.

وجعل ورثة أنبيائه هم خلفاؤه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخِيرته وأصفياؤه وأولياؤه؛ كما قال رسوله صلى الله عليه وسلم: إن لِلَّهِ أهلِين مِنّا قالوا: يا رسول الله، مَن هم؟ قال: "هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته" (٢).

فَحُقَّ لمن عَلَّمَهُ اللهُ كتابه أن يكون أول من ينتهي عن نواهيه، ويعتبر بعبره وينزجر عما ورد فيه، ويخشى اللهَ ربَهُ ويتّقيه، ويراقبه في خلوته وجلوته ويُعَظِمَهُ ويستحييه. فإنه قد حُمِّل ميراث الأنبياء، وأصبح ممن يشهد في عرصات

١-المَلَوَانِ: اللَّيلُ والنهار، أَو طَرَفا النهار، والجديدان أيضًا هما اللَّيلُ والنهار، يُنظر: قاموس المعاني الجامع.

٢- أخرجه ابن ماجه أنس بن مالك رضي الله عنه: حديث/ ٢١٥، ١/ ٧٨، وأحمد، حديث/ ١٣٥٦٦، ٢/ ٢٤٢، والدرامي: حديث/ ٣٣٢٦، ٢/ ٥٢٥، والطيالسي في مسنده: حديث/ ٢١٢٤، ١/ ٢٨٣، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان: حديث/ ٢٦٨٨، ٢/ ٥٥١ (صحيح) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم١٤٣٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net

أرض المحشر على مخالفي الرسل من سائر أهل الملل الأشقياء؛ كما قال رب الأرض والسماء: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (البقرة: ١٤٣).

ألا وإنّ حجة الله قائمةٌ على من عَلِمَهُ فأهمله، وهى أشد منها على من جَهِلَهُ فلم يعه ويفهمه، وكذلك هي أنكى على من أوتي القرآن فلم تقرعه زواجره ونواهيه،

ولم يرتدع به ويَؤُوب إلى ربه ليأويه، ولم يرفع به رأسًا ولم ينتفع به ليهديه؛ وارتكب من الذنوب والمآثم كل قبيحٍ لا يحبه ربّه ولا يرتضيه، ومن الجرائم كل فضوحٍ مما يؤلمه ويؤذيه؛ فأضحى ما حمله من القرآن حجةً عليه،

وخَصْمًا يوم الحساب لديه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أرأف وأرحم به من أبويه: "الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ" (٣).

فحُقَ لمن خَصّه الله بعلم كتابه أن يقوم بحقه ويتلوه حق تلاوته، ويتدبّر حقائق عبارته وآياته؛ ويتفهّم في عجائبه، ويتبيّن من غرائبه؛ وقد بيّن ربنا بقوله في آياته:(كِتَاب أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَك لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ) (ص: ٢٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ت: ٧٢٨هـ).

"أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ؛ فَإِذَا عَلِمَ الْإِنْسَانُ الْحَقَّ وَأَبْغَضَهُ، وَعَادَاهُ: كَانَ مُسْتَحِقًّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ ". (٤)

وقال ابن القيم رحمه الله: (ت: ٧٥١هـ)

"فَهَذَا جَهله كَانَ خيرا لَهُ، وأخف لعذابه من علمه، فَمَا زَاده الْعلم إِلَّا وبالًا وَعَذَابًا، وَهَذَا لَا مطمع فِي صَلَاحه، فَإِن التائه عَن الطَّرِيق يُرْجَى لَهُ الْعود إليها، إِذا أبصرها، فَإِذا عرفهَا وحاد عَنْهَا عمدًا؛ فَمَتَى ترجى هدايته؟ قَالَ تَعَالَى:

(كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (آل عمران: ٨٦). (٥)

وفي نحو ذلك يقول ابن رسلان الرَّمْلي الشافعي: (ت: ٨٤٤هـ)

فعالمٌ بعلمِهِ لـم يعمَلَنْ ** مُعَذَّبٌ من قبلِ عُبَّادِ الوَثَنْ.

وكلُّ من بغير علم يعملُ ** أعمالُه مَردودَةٌ لا تُقْبَلُ.

وقد قال ربنا قولًا جللًا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف: ٢-٣).

ثم جُعِلَ إلى رسوله-صلى الله عليه وسلم- تفصيلَ ما ورد فيه إجمال، وبيانَ ما ثبت فيه إشكال،

٣-صحيح مسلم، من حديث أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِي - رضي الله عنه: رقم: ٥٥٦- (ج ١ / ص ١٤٠) باب فضل الوضوء.

٤- "مجموع الفتاوى" (٧/ ٥٨٦).

٥-"مفتاح دار السعادة" (١/ ١١٥).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وتحقيقَ ما ورد فيه احتمال؛ وليتحقق له بذلك كمال بلاغه عن ربه، حيث أمره سبحانه بقوله:(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) (المائدة: ٦٧).

وقد وكل الله تفصيل المجمل إليه، وبيان المشكل عليه، وتحقيق المحتمل فيه إليه، فقال سبحانه وخطابه موجه إليه، صلوات ربي وسلامه عليه: (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (النحل: ٤٤).

جعلنا الله ممن يقوم بحقه خير قيام، فيتدبره ويحل منه الحلال ويحرم الحرام، ويقوم بقسطه على الكمال والتمام، ويوفي بشرطه ابتغاء مرضاة الملك العلام، ويهتدي بهداه، ولا يرتضي سواه، ويهتدي لأعلامه الظاهرة، ويستمسك بأحكامه القاطعة الباهرة، ليجمع له به خير الدنيا والآخرة، فهو سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة.

وقد جعل استنباط معانيه، والاجتهاد في الوصول إلى مقاصده ومراميه، موكولًا لأهل الفهم فيه، فقال سبحانه: (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) (النساء:٨٣).

فهم بذلك عن غيرهم قد تميزوا، وحُصوا بثواب اجتهادهم مرتين إن أصابوا الحق وقد تفرسوا، وأعداء الملة منهم بذلك قد تغيظوا، وقد بشرهم بذلك من أمرهم أن يتعلموا ويتمرسوا: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر". (٦)

فكتاب الله أصل والسنة له تفصيل وتبيان، واستنباط أهل العلم له شرح وإيضاح وبيان.

فالحمد لله على كمال الدين وتمام النعمة، والحمد لله على شرعة غراء وخير ملة، ونسأله سبحانه حسن العاقبة في الأمور كلها والوفاة على الإسلام والسنة.

٦-أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧٣٥٢)عن عمرو بن العاص رضي الله عنه

شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما بعد:

الداعي لتصنيف هذا البحث

فقد أُسنِدَ للباحث تدريس مادة: " الإعجاز البياني " لطلاب مرحلة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بـ"منيسوتا"، للعام الدراسي ١٤٤١هـ، وعلى أن يُدَرَّسَ كذلك تباعًا بإذن الله تعالى لطلاب الجامعة، وكذلك لطلاب المعهد العالي للأئمة والخطباء التابع للجامعة نفسها.

فوضع هذه المادة في بحث أسماه: " الفتح الرباني في دلائل الإعجاز البياني" وكان على الباحث أن يقدم الداعي لتصنيف بحثه هذا، كما أن عليه أن يقدم خطة بحثه لتكون للدارس والقارئ كالدليل الْبَيِّنِ والسبيل الواضح للمسافر في سفره.

خطة البحث

وتشتمل خطة البحث على ثلاثة فصول، ويندرج تحت كل فصل عدد من المباحث، ويحتوي كل مبحث على عدد من المطالب على النحو التالي:

الفصل الأول

مفهوم الإعجاز والتحدي بالقرآن

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول: بيان مفهوم الإعجاز والمعجزة ودلالاتهما في اللغة والاصطلاح

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز والمعجزة لغة

المطلب الثاني: مفهوم الإعجاز والمعجزة اصطلاحًا

المطلب الثالث: مفهوم البيان في اللغة والاصطلاح

المبحث الثاني: أبرز وجوه الإعجاز الواردة في القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإعجاز البياني

المطلب الثاني: الإعجاز الغيبي وأقسامه

المطلب الثالث: الإعجاز التشريعي

شبكة الألوكة www.alukah.net

المبحث الثالث: الاعجاز الذي وقع به التحدي في القرآن جملة وتفصيلًا هو الإعجاز اللغوي البياني.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم التحدي في اللغة والاصطلاح

المطلب الثاني: التحدي بالقرآن تعريضًا

المطلب الثالث: التحدي بالقرآن تصريحًا

المطلب الرابع: مستويات التحدي بالقرآن

المطلب الخامس: إعجاز القرآن من أهم الأبحاث المتعلقة بالقرآن

المطلب السادس: شمولية إعجاز القرآن

الفصل الثاني

القَوْلُ بِالصَّرْفَةِ

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: القول بالصرفة محاولة لنفي ذاتية الإعجاز عن القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الصَّرْفة في اللغة والاصطلاح

المطلب الثاني: ما هو المقصود بالصَّرْفة؟

المطلب الثالث: إثبات ذاتية الإعجاز للقرآن

مصدر القول بالصَّرْفة المبحث الثاني:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المصدر الأول لفكرة القول بالصَّرْفة

المطلب الثاني: كيفية وفود فكرة القول بالصَّرْفَةِ إلينا، وبيان المصدر الثاني الذي تَلَقَّاهَا ورُوِّج لها

المطلب الثالث: ذكر أقوال المتقدمين القائلين بتأكيد تلقي النَّظام لفكرة القول بالصَّرْفَةِ من الفلاسفة

المبحث الثالث: أبرز أقوال القائلين بالصرفة من المعتزلة وغيرهم

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: أول من قال بالصَّرْفَةِ من المعتزلة

المطلب الثاني: القائلون بالصَّرْفَةِ من المعتزلة غير النظّام

المطلب الثالث: القائلون بالصَّرْفَةِ من غير المعتزلة، من الأشاعرة وغيرهم.

المطلب الرابع: القائلون بالصَّرْفَةِ من الشيعة الإمامية

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الخامس: خلاصة القول بالصَّرْفَةِ

المبحث الرابع: ردُّ شُبهةِ القولِ بالصَّرْفَةِ وبيان بطلانها

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: الرد على القائلين بالصَّرْفَةِ وبيان دلائل بطلانها

المطلب الثاني: أشهر أقوال من قال ببطلان القول بالصَّرْفَةِ من العلماء

المطلب الثالث: أهم النتائج المستخلصة من مدارسة ومناقشة مبحث "القول بالصَّرْفة".

الفصل الثالث

منهج الإعجاز البياني وخصائصه في القران

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالأسلوب وخصائصه في القران الكريم

وفيه أحد عشر مطلبًا:

المطلب الأول: الإعجاز البياني في القرآن مبحث متعلق بالعقيدة

المطلب الثاني: أركان الإعجاز البياني للقرآن الكريم

المطلب الثالث: الإعجاز البياني المتعلِّق بالأسلوب ونظمه البديع

المطلب الرابع: العجز عن مجاراته ومحاكاته

المطلب الخامس: ترابط وتناسق أجزائه

المطلب السادس: صياغة أسلوبه موافقًا لحال جميع المخاطبين

المطلب السابع: الإعجاز البياني المتعلِّق بأسلوب القرآن في التّعقيب الذي يرد في خواتيم الآيات

المطلب الثامن: تميز أسلوبه بالإقناع والإمتاع

المطلب التاسع: الإعجاز البياني المتعلِّق بأسلوب ضرب الأمثال في القرآن

المطلب العاشر: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالإيجاز في القرآن الكريم

المطلب الحادي عشر: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالتكرار في القرآن الكريم

المبحث الثاني: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بجمال الكلمة وخصائصها في القران الكريم وبيان جهات تعلقه

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة أثر وقوعها على السمع

المطلب الثاني: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة دقة التعبير، وبلاغة التركيب، وبراعة النَّظم في اختيارها واختيار موضعها

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الثالث: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة روعتها وتميز انتقائها

المطلب الرابع: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة اتساقها مع المعنى

المطلب الخامس: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة أثرها الدلالي والبياني في النظم القُرْآني ومضمونه

المطلب السادس: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة اتساع دلالتها لما لا تتسع له دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات عادة

المبحث الثالث: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة وصياغتها

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الجملة في اللغةً والاصطلاح

المطلب الثاني: الإعجاز البياني المتعلِّق بالتلاؤم والاتساق بين كلمات الجملة القرآنيَّة

المطلب الثالث: الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة من حيث وقوع الدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل

المطلب الرابع: الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة من حيث إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس .

عمل الباحث في الكتاب:

قد أفاد الباحث في بحثه هذا من مؤلفات ومصنفات من سبق من العلماء القدامى والمتأخرين، كما أفاد كذلك من صريف ما جرت به أقلام بعض الباحثين المعاصرين، وقد زاد عليها فوائد كثيرة جمة ولا سيما في طريقة تناول بحثه وتسلسله وطريقة عرضه وسهولتها ويسرها، **والتي كان من أبرزها ما يلي:**

أولًا: تناول الباحث عرض هذه الدراسة في ضوء ثلاث محاور وركائز أساسية، وجعل تناوله لكل محور في فصل مستقل.

أما المحور الأول:

فكان حول القضية الأولى التى يعتمد عليها الإعجاز ويتمركز حولها ألا وهي: قضية "التحدي"، فتناول فيها الباحثُ بيانَ مفهوم الإعجاز والمعجزة ودلالاتهما في اللغة والاصطلاح، كتمهيد تعريفي لمعنيهما.

كما تناول أبرز وجوه الإعجاز الواردة في القرآن:

ألا وهي:

أ- الإعجاز البياني

ب- الإعجاز الغيبي بأقسامه الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، وذلك بالنسبة لعصر الرسالة

ج- الإعجاز التشريعي

وقد ساق أمثلة كافية تدلل على ما ذكر، وكان ذلك كله تمهيدًا لعرض ومدارسة ومناقشة موضوع البحث الرئيس المتعلق بهذا المحور ألا وهو موضوع " التحدي"، ثم تناول مناقشة المحاور الأساسية المتعلقة بموضوع " التحدي"، والتي تتمركز حوله وهي ثلاثة محاور رئيسية على النحو التالي:

شبكة الألوكة www.alukah.net

الأول: التحدي بالقرآن تعريضًا

الثاني: التحدي بالقرآن تصريحًا

الثالث: مستويات التحدي بالقرآن

وقد جَلَّى فيها الباحث قضية هامة جدًا تتعلق بترتيب مراحل التحدي، مقررًا عدم ثبوت ما يعتقده الكثير من أن ترتيب التحدي كان نزوليًا من الأكثر إلى الأقل، يعني أن التحدي بالقرآن كله كان أولًا، ثم أعقبه الله تعالى بالتحدي بعشر سور مثله ثانيًا، ثم أعقبه سبحانه بالتحدي بسور من مثله ثالثًا وأخيرًا.

ففند الباحث هذا الزعم ودلل على ما ذهب إليه بأن ترتيب نزول مراحل التحدي لم يكن كذلك، وكان ذلك في الفصل الأول.

وأما المحور الثاني:

فكان حول عرض ومناقشة القضية التي أراد بها أهل الأهواء إبطال الإعجاز، ونفي إثبات ذاتية الإعجاز للقرآن، بداية من المعتزلة، ومرورًا بمن سلك سبيلهم واتبع طريقهم واقتفى آثارهم، وهم الذين قالوا: إن القرآن ليس بمعجز في ذاته، ولكن الله صرف وجوه العرب عن هذا التحدي، ولولا أن الله تعالى صرف وجوههم عنه لاستطاعوا أن يأتوا بمثله، وهو ما يسمى بـ " بالقول بالصَّرْفَةِ ".

فعرض الباحث القضية وناقشها وأبطل وفند مزاعم القائلين بها، بالأدلة القطعية والحجج والبراهين النقلية والعقلية، والأجوبة المفحمة المسكتة، وكان هذا في الفصل الثاني.

وأما المحور الثالث:

فبعد التخلية لابد من التحلية، فبعد عرض قضية التحدي بصورة جلية وقيام أهل الأهواء وقولهم بـ " بالقول بالصَّرْفَةِ ".

قام الباحث بإبطالها وتكذيبها وتفنيدها لتحقيق التخلية، فلما تمت تلك التخلية، أصبح المجال مفسوحًا والطريق مفتوحًا أمام التحلية، فكان من المناسب الكلام مؤخرًا حول " الإعجاز البياني" الذي قُصِدَ به التحدي، وكان ذلك في الفصل الثالث من خاتمة هذا البحث حول تلك القضية العظمى التي يتبين مكانتها وعلو قدرها من مكانة كلام الله تعالى وسمو قدره وعلو مكانته.

ثانيًا: لما كان هذا البحث من المقررات الدراسية كان على الباحث لزامًا بيان مكانة الإعجاز البياني والتعريف به وبمفهومه، وتناوله بأسلوب سهل خال من أي تعقيد أو غموض ليكون من الدارسين قريبًا المنال غير وعر ولا محال.

ثالثًا: كما حاول الباحث تقريب مادته العلمية عمومًا بأسلوب تدريجي، وجعل البحث الرئيس هو آخر المباحث تناولًا بعد أن مهد له كما مر معنا آنفًا بفصليين أساسيين، هما كالتمهيد لمناقشة المبحث الرئيس ألا وهو: " الإعجاز البياني" مصحوبًا بعبارة جزلة وبألفاظ سهلة قريبة التناول، متجنبًا التكلف والغموض في العبارات، مبتعدًا عن التقعر في استخدام ما يستهجن من الألفاظ وغريب الكلمات، محددًا تحديدًا دقيقًا عناوين الفصول وأسماء المباحث والمطالب ورؤوس المواضيع

شبكة الألوكة www.alukah.net

والمقالات، بحيث يتطابق الاسم مع المسمى دون تكلف أو إجحاف، أو غموض أو اضطرابات، ليسهل للدارسين فهم موضوعه واستيعاب كل ما ورد فيه من مضمونات.

رابعًا: كما اعتنى الباحث بإبراز أهم الأساليب الإقناعية على ما يستدل به من شواهد الإعجاز من آي الكتاب المجيد، وقرن ذلك وربطه بأهم الأساليب التربوية والإيمانية والسلوكية، بما يتناسب مع موضوع مادة الكتاب العلمية، بحيث لا يخرج عن موضوع البحث الرئيس، ويتناسب مع ما يخص الفئة المستهدفة من بحثه كذلك.

خامسًا: كما أوصى الباحث المجامع العلمية المتخصصة وأقسام الدراسات العليا في الجامعات وممن هو في حكمها قائلًا:

الوصية الأولى: إنه لابد من إجراء دراسات عن إعجاز القرآن لغوية "بلاغية بيانية" جادة تعتني بإبراز هذا الجانب في ضوء منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة، ويتبنى توجيهها والإشراف عليها الجهات المعنية، من المجامع العلمية المتخصصة، وأقسام الدراسات العليا في الجامعات، وممن هو في حكمها، لتقديم أطروحات علمية متميزة.

الوصية الثانية: وكذلك على أصحاب الأقلام الحرة من أهل التخصص الغيورين عبء ومسؤولية كبرى على حسب القدرة والطاقة.

الوصية الثالثة: ولابد كذلك من تأسيس قواعد معلوماتية ومرجعية لجمع تلك الدراسات وتسجيل ما تم إنجازه ولتكون مرجع للباحثين، كما هو معمول به اليوم في بعض الجامعات الكبرى

سادسًا: كما بين بيانًا كافيًا وعرض عرضًا شافيًا وافيًا لأهم المصنفات في إعجاز القرآن، قديمًا وحديثًا، وأهم ما يندرج تحته منذ بداية التصنيف وحتى وقتنا الحاضر وأشار لأهمها وأبرزها وبين المتداول والمطبوع منها.

سابعًا: اعتنى الباحث بتخريج الأحاديث وعزوها لمصادرها الأصلية مع الحكم عليها غالبًا، عدا ما ثبت في الصحيحين، وذلك لتلقي الأمة لهما بالقبول، وذلك لكونهما أصح الكتب المصنفة، متبعًا في ذلك الأصول العلمية في التخريج والحكم على الأحاديث.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفصل الأول

مفهوم الإعجاز والتحدي بالقرآن

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: بيان مفهوم الإعجاز والمعجزة ودلالاتهما في اللغة والاصطلاح

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز والمعجزة لغة

المطلب الثاني: مفهوم الإعجاز والمعجزة اصطلاحًا

أ- مفهوم الإعجاز في اللغة

الإعجاز لغة:

"أعجز: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء " (٧)

والإعجاز مصدر للفعل (أعجز) **وهذا اللفظ يأتي في اللغة بعدة معانٍ:**

منها: الفوت والسبق، تقول: أعجزه الشيء، **أي:** فاته، وذلك كقوله تعالى: [وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ] {فاطر:٤٤}، " أي: ما كان ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء كائنًا ما كان فيهما " (٨).

ومنها: التضعيف والتوهين، أي: إضعاف الخصم سواء في الأقوال أو الأفعال، **قال الرازي:** " والعجزُ الضُّعف" (٩)، وذلك كقوله تعالى في خبر ندم قابيل: [أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي] {المائدة:٣١}، أي: أضعفت أن أستر جثة أخي (١٠)، (قلت): ولذلك أطلق على المرأة المسنة الهرمة لفظ:(عجوز)، لعجزها وضعفها عن الحمل والإنجاب وعن كثير من الأعمال التي كانت تقوم بها في شبابها، قال تعالى: [قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ] {هود:٧٢}.

ومنها: التثبيط والنسبة إلى العجز، تقول: عجَّزه تعجيزًا إذا ثبطه أو نسبه إلى العجز، وذلك كقوله تعالى: [وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ] {الحج:٥١}، أي:

ظانين ومقدرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم، قاله الزجاج" (١١) (قلت): بمعنى، أنهم نسبوا إليه سبحانه العجز في بعثهم وحسابهم وعذابهم يوم القيامة.

٧- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس , ص/ ٧٣٨ .

٨- فتح القدير ، للشوكاني ٣٥٦/٤ .

٩- مختار الصحاح , ص/٤١٣ .

١٠- يُنظر: صفوة التفاسير، للصابوني ٣٣٩/١ .

١١- فتح القدير، للشوكاني ٤٦٠/٣ .

شبكة الألوكة www.alukah.net

ب- مفهوم المعجزة في اللغة

المعجزة لغة: المعجزة لغة اسم فاعل من (الإعجاز)، وهي مفرد (المعجزات) وهي: ما أَعجزت الخصمَ، أو: أُعجز بها الخصمُ عند التحدي، والهاء للمبالغة، وسميت بذلك: لعجز الناس وقصورهم عن الإتيان بمثلها، وهي خاصة بالأنبياء، تقول عجز فلان عن قول أو فعل معين، إذا حاوله ولم يستطعه، أو لم يحاوله لاعتقاده عدم استطاعته له. (١٢).

تنبيه هام جدًا:

سيأتي معنا بيان شرط التحدي في تعريف المعجزة، وأنه من كلام الأشاعرة ومن نحى نحوهم في تعريفها، وهذا الشرط خارج عن تعريف أهل السنة. (١٣)

المطلب الثاني: مفهوم الإعجاز والمعجزة اصطلاحًا

أ- مفهوم الإعجاز اصطلاحًا

الإعجاز اصطلاحًا: هو: إعجاز الخصوم عن معارضة الأنبياء في معجزاتهم التي أظهرها الله على أيديهم.

قال الزرقاني: " إعجاز القرآن مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به"(١٤).

وقال الحمصي: " إعجاز القرآن: فهو كونه أمرًا خارقًا للعادة لم يستطع أحدٌ معارضته برغم تصدي الناس لها"(١٥).

وقال مناع القطان: (ت: ١٤٢٠هـ)

" والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن وعجز الأجيال بعدهم"(١٦).

(قلت): وإعجاز القرآن: كونه خارقًا للعادة والمألوف، أظهره الله على يد نبيه ﷺ، أعجز الإنس والجن عن أن يأتوا ولو بمثل سورة قصيرة من سوره، وقد تصدى البعض لذلك كمسيلمة الكذاب ففشلوا فشلاً ذريعًا.

وسيأتي معنا كلام شيخ الإسلام حول شرط كون الآية خارقة للعادة.

١٢- انظر: لسان العرب لابن منظور ٦/٩٧ ، ٩٨ ، والقاموس المحيط ، للفيروز آبادي ٢/١٨٠، ٨١، ومختار الصحاح للرازي ص/ ٤١٣،٤١٤، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ص/ ٧٣٨، ٧٣٩.

١٣- يُنظر: د. عرفة بن طنطاوي: الذهب الإبريز في خصائص الكتاب العزيز: (ص:٨٣)

١٤- مناهل العرفان ٢/٣٣١.

١٥- فكرة إعجاز القرآن ، ص/٩.

١٦- مباحث في علوم القرآن ، ص/٢٦٥.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ب- مفهوم المعجزة اصطلاحًا عند أهل السنة وبيان خطأ من خالفهم

في تعريفها من أهل الكلام

المعجزة اصطلاحًا: للعلماء تعريفات عديدة للمعجزة، منها المقتضب، ومنها ما هو أكثر منه، وما يعنينا هو تعريفها عند أهل هي السنة.

مفهوم المعجزة عند أهل هي السنة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

هي: " الدلائل والأعلام التي تدل على صدق النبي وأنه مرسل من عند الله تعالى، وصفتها التي تمتاز بها هي عجز الإنس والجن عنها لأنهما المخاطبان بالرسالة ". (١٧)ومن خلال التعريف نبين مسائل هامة فيما يلي:

المسألة الأولى: في تسمية المعجزة

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"وتسميتها آية وبرهانًا أولى من تسميتها معجزة أو أمرًا خارقًا، لأن التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من غيرها، ولأن التعبير بالاصطلاحات الحادثة قد أوجب غلطًا كثيرًا وإيهامًا حيث يدخل فيها الحق والباطل ". (١٨)

والمعجزة: قد تسمى إضافة لما مضى ذكره "سلطانًا وبينة"، وأما تسميتها: بـ"آية" فهو المسمى الغالب استعماله في وحيي التنزيل-الكتاب والسنة-.

الإحداث في تسمية المعجزة: المسألة الثانية:

وأما تسمية "المعجزة" بهذا اللفظ عوضًا عن المسمى الصحيح الثابت في وحيي التنزيل فإنما الذي أحدثه هم مبتدعة أهل الكلام والجدل، وهو كما أخبر شيخ الإسلام بأنه تعريف حادث، وهو بخلاف ما عليه المتقدمين، والحقيقة نقول: إنه ليس كل ما شاع وانتشر استعماله فهو حق وصواب.

المسألة الثالثة: الآيات من أَجلِ مقاصدها تصديق وتأييد من أتى بها في دعواه

والتحدي ليس بمقصود في تلك الآيات، وإنما المقصود هو تأييد من ظهرت على يديه تلك الآيات تصديقًا له في دعواه وهو النبي أو الرسول.

المسألة الرابعة: خاصية قصد التحدي بالقرآن

وأما القرآن الذي هو الآية العظمى الدالة على صدق نبوة النبي الخاتم-صلى الله عليه وسلم-، فهي آية قصد بها التحدي المقرون بالدلالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم.

١٧- النبوات (٢/٧٧٨،٨٦٤،٩٨٤).

١٨-النبوات (٢/٨٢٨،٨٦٧).

شبكة الألوكة www.alukah.net

المسألة الخامسة: دلائل إعجاز القرآن

وأما دلائل إعجاز القرآن فهي دالة كذلك على صدق نبوة من نزل عليه القرآن، وليست من الدلائل والآيات التي قُصِد بها التحدي، كآيات وسور القرآن، كما هو معلوم.

يقول الشيخ عمر الأشقر– رحمه الله–:

والمعجزة: " قد أطلقنا عليها اسم (الآية) كما جاء بذلك القرآن الكريم، وهو اسم شامل لكل ما أعطاه الله لأنبيائه للدلالة على صدقهم سواءً أقصد به التحدي أم لم يقصد". (١٩)،وهذا التعريف موافق لتعريف أهل السنة والجماعة المغاير لتعريف الأشاعرة الذين يشترطون في المعجزة التحدي.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

" قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة، وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ويسمونها: الآيات لكن كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما، فيجعل المعجزة للنبي، والكرامة للولي، وجماعهما الأمر الخارق للعادة ". (٢٠)

تسمية المعجزة:

أما عند أهل هي السنة فهي:

الآية والدليل والبرهان والسلطان والبينة، وتسميتها آية أكثر استعمالًا في وحيي التنزيل.

وأما عند المعتزلة وأهل الكلام فهي: المعجزة

وأما الأشاعرة فقد انطلقوا من مصطلح « المعجزة » المفسر عندهم بخرق العادة، وزادوا قيودًا على هذا التفسير قصدوا بها تمييز المعجزة عن غيرها، وقد اختلفوا في ذلك اختلافًا واسعًا.

وفي محض الكلام عن أقوال متقدمي الأشاعرة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

" هي الفعل الخارق للعادة المقترن بدعوى النبوة والاستدلال به وتحدي النبي من دعاهم أن يأتي بمثله وشرط بعضهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه، هذه الأربعة هي التي شرط القاضي أبو بكر(الباقلاني) ومن سلك مسلكه ". (٢١)

وقيل: " المعجزة في الاصطلاح هي ما يدل على تصديق الله تعالى للمدعي في دعواه الرسالة، أو هي تأييد الله مدعي النبوة بما يؤيد دعواه ليصدقه المرسل إليهم"(٢٢).

١٩– يُنظر: الرسل والرسالات لعمر الأشقر: (١٢١).

٢٠– مجموع الفتاوى/المجلد الحادي عشر/قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات

٢١ –النبوات (١/٦٠٠).

(٢٢) إعجاز القرآن الكريم ، ص/٢١، وينظر: القول السديد في علم التوحيد (٣/٣)،محمود أبو دقيقة.

شبكة الألوكة www.alukah.net

من أسلم التعاريف في نظر الباحث:

وهذا التعريف في نظر الباحث القاصر من أسلم التعاريف، وهو موافق كذلك لتعريف أهل السنة والجماعة المغاير لتعريف الأشاعرة الذين يشترطون في المعجزة التحدي.

وقال الزرقاني: "المعجزة: هي أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، أوهي أمرٌ خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقهُ الله تعالى على يد مدعى النبوة عند دعواه إياها شاهدًا على صدقه"(٢٣).

تنبيه من الباحث:

(قلت): غير إن معجزة القرآن ليست مخلوقة فالقرآن الكريم كلام الله ﷻ وصفته، والصواب أن يُقال(يُظهره) بدلًا عن قوله: (يخلقهُ)، وبذلك يشمل كل معجزة، سواء قصد بها القرآن أو غيره، وعمومًا كلامه هنا عن المعنى الاصطلاحي، غير إن المعجزة تشمل القرآن وغيره، فوجب التنبيه لأن الأمر عقدي..

و**الزرقاني** قد أحسن في تعريفه هذا، وهو لم يذكر فيه التحدي صراحة، ولكن لوح به ولمح وأشار إليه، وذكر العجز عن الإتيان بمثله وكونه خارقًا للعادة، والمقصود الأول من المعجزة هو تصديق من أظهر الله المعجزة على يديه في دعواه.

وشرط كون الآية خارقة للعادة شرط لا نعلم دليلًا يدل عليه، أو أنه نقل عن أحد من السلف.

قال العلامة الفقيه شيخنا ابن عثيمين –رحمهُ اللهُ تعالى:–

"المعجزة عند أهل العلم هي أمر خارق للعادة يظهره الله سبحانه وتعالى على يد الرسول تأييدًا له وقد سماها أكثر أهل العلم بالمعجزات، والأولى أن تسمى بالآيات التي هي العلامات على صدق الرسول وصحة ما جاء به كما سماها الله عز وجل بذلك، وهي أبين وأظهر من المعجزات أي من هذا اللفظ،

فالأَولَى أن تسمي معجزات الأنبياء بآيات الأنبياء، والآيات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم آيات كثيرة حسية ومعنوية أرضية وأفقية أخلاقية وعملية فهي متنوعة وأعظمها وأبينها كتاب الله عز وجل كما قال الله تعالى:

(وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (العنكبوي:٥٠-٥١). (٢٤).

وحول شرط كون الآية خارقة للعادة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"وكون الآية خارقة للعادة أو غير خارقة هو وصف لم يصفه القرآن ولا الحديث ولا السلف وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا وصف لا ينضبط وهو عديم التأثير فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء خارقة للعادة بالنسبة لغيرهم.... " (٢٥)

---

(٢٣) مناهل العرفان ٧٢/١.

٢٤- سلسلة لقاء الباب المفتوح- المسجلة- شريط ٠٨٤ - الوجه الثاني .

٢٥- النبوات (١٦٣/١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول الباحث:

ولربما من قال به من أهل السنة كشيخنا العلامة الفقيه ابن عثيمين- رحمه الله- يقصد معناه من "جهة اللغة " كما مر معنا قول شيخ الإسلام، والتعريف المعني والمقصود إنما هو التعريف الاصطلاحي كما لا يخفى. (٢٦)

المطلب الثالث: مفهوم البيان في اللغة والاصطلاح

أ- مفهوم البيان في اللغة

مأخوذ من: الاتضاح والإفصاح وأصله الكشف والإيضاح والظهور.

يقول ابن منظور- رحمه الله-:

البيان ما بين به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بيانًا، اتضح فهو بين.

والبيان الفَصَاحة واللّسن، وكلام بين فصيح، والبيان الإفصاح مع ذكاء، والبين من الرجال: الفصيح. (٢٧)

ويقول ابن فارس- رحمه الله-:

وَبانَ الشَّيءُ وَأَبَانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، وفلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ أي أَوْضَحُ كلامًا منه (٢٨)

ب- مفهوم البيان في الاصطلاح

أما البيان في الاصطلاح فهو: أصول وقواعد يُعرف بها إيراد المعنى الواحد، بطرق يختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى، فالمعنى الواحد يُستطاع أداؤه بأساليب مختلفة في وضوح الدلالة عليه. (٢٩)

وهو بهذا يعني: إظهار المعاني بعبارات واضحة ودقيقة مبيّنة وكاشفة عن حقيقة الكلام بإيجاز، لا توسّع في الكلام معه ولا اسهاب ولا إطناب.

٢٦- يُنظر: د. عرفة بن طنطاوي: الذهب الإبريز في خصائص الكتاب العزيز: (ص:٨٣-٩٣).

٢٧- لسان العرب لابن منظور:(٦٨/١٣).

٢٨- مقاييس اللغة: (ص: ١٢١).

٢٩- المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين أبي الفتح الأبشيهي: (٧٣/١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

المبحث الثاني: أبرز وجوه الإعجاز الواردة في القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإعجاز البياني

معنى الإعجاز البيانيّ في القرآن:

الإعجاز البياني في القرآن الكريم يعني الدّقة في انتقاء الأساليب والكلمات والعِبارات والجُمل، واختيار الألفاظ والعبارات المناسبة في التشبيه والأمثال والقصص القرآني وترتيب ذلك كله ترتيبًا بليغًا بديعًا متناهيًا في الفصاحة والبلاغة وقوة سبك النظم وحُسن تلائم الألفاظ وترابطها، خاليًا من الغموض والإبهام والإيهام، مقترنًا بأداء المعاني المطلوبة بأسهل وأعجز أسلوب من أول القرآن وحتى منتهاه.

ولا يمكن للجن والإنس مجتمعين أن يأتوا بمثله أبدًا كما، قال سبحانه وتعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: ٨٨).

ولقد أبكمت فصاحة القرآن أساطين اللُّغة وأئمة الفصاحة وسادة البيان من العرب الفصحاء البلغاء، فوقفوا مبهورين عاجزين أمام نهاية فصاحة وقوة بلاغة القرآن وروعة بيانه، فعجزوا مجتمعين عن مماثلته ومحاكاته لأنه غاية في الإعجاز مع الإيجاز، وغاية في الفصاحة والبيان مع دقة الإحكام والإتقان، ولم يمنعهم من قبول التحدي أي مانع، ولم يحيل بينهم وبينه أي حائل أو مانع، فقد توافرت لديهم جميع الدواعي التي تحملهم على أن يستجيبوا للتحدي، وقد انتفت عنهم كل الموانع الحسية والمعنوية التي تمنعهم من الاستجابة لهذا التحدي، فَبطل مع ذلك كله تحدِّيهم وظهر عجزهم، مع أن التحدي كان في أعز ميادينهم ألا وهو ميدان الفصاحة والبلاغة والبيان، فالقرآن نزل بلسانهم، وألفاظه وكلماته وآياته وسوره مكونة من نفس الحروف العربية التي ينطقونها وتتكون منها ألفاظهم، وأساليب القرآن جرت على أساليبهم ومع ذلك كله هم أئمة الفصاحة وقادة البلاغة وسادة البيان، وفرسان الكلمة، فالشعر صناعتهم، والخطابة مهنتهم، وسائر ميادين الكلام والقول شغلهم الشاغل في نواديهم ومجالسهم وأسواقهم، وفيهم الحكماء والبلغاء وأهل الحنكة والتجارب، وبينهم الأحبار والرُّهبان والكهنة من أهل الكتاب وغيرهم، ومع هذا وذاك فقد ظهر إفلاسهم وأعلنوا عجزهم، وذلك أنهم لم ينزلوا إلى ميدان التحدي فلم يعارضوا القرآن ولم يأتوا ولو بآية من مثله، ولو جاءوا بآية من مثله، لنصروا بذلك آلهتهم، ولأ بطلوا حُجة القرآن، ولردوا بذلك على من سفَّه أحلامهم وعاب آلهتهم، ولكَفَوا أنفسهم ويلات حربه وقتاله ونزاله سنين عددًا. فبدلوا المعارضة بالمحاربة والعداوة، ووصفوه بأنه سحر، ووصفوه تاليه بأنه ساحر وشاعر ومجنون، وهذا كله إظهار لعجزهم عن معارضة القرآن، واعتراف منهم بأنه فوق قدرتهم وطاقتهم وأنه كلام رب البشر وليس بكلام البشر، وأنه فوق قدرة وطاقة البشر.

و"القرآن الكريم هو كلام الله المعجِز في ألفاظه وتراكيبه ونظمه ومضمونه، وقد ثبت عجز أهل اللغة عن الإتيان بمثل آياته، وينقسم الإعجاز في القرآن الكريم إلى عدّة أنواعٍ، منها: الإعجاز الغيبيّ، والتشريعيّ، والبيانيّ، والإعجاز

شبكة الألوكة www.alukah.net

البيانيّ هو الذي يُظهر جمال نظم الكلمات القرآنيّة، بحيث تُوصل هذه الكلمات المعنى بأدقّ وأبدع تعبيرٍ ووصف؛ بحيث لو وضعت كلمةٌ عربيّةٌ أخرى لتؤدّي ذات المعنى في التركيب القرآني لم يوجد أفصح وأدقّ من اللفظ القرآنيّ المختار، وقد أدرك العرب القدامى دقّة الكلمات القرآنية في سياقها، وأقرّوا بفصاحته التي عجزوا عن بلوغها، حتى إنّ منهم من قال عند سماعه: "والله إنّ لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه، وما هو بقول بشر"(٣٠)، وفي ذلك شهادةٌ من الذين عادوا النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم– ورفضوا دعوته على عظمة هذا الكتاب وتفوّقه في الفصاحة والبلاغة والبيان عليهم، وهم أهل فصاحةٍ وبيانٍ. (٣١).

يقول الباقلاني:

والذي يشتَمِل عليه بديعُ نظمِه المتضمِّن للإعجاز وجوه:

منها: ما يرجع إلى الجملة؛ وذلك أنَّ نظْم القرآن على تَصَرُّف وجوهه، واختلاف مَذاهِبِه، خارِجٌ عن المعهود مِن نظام جميع كلامهم، ومُبايِن للمألوف مِن ترتيب خِطابِهم، وله أسلوب يختصُّ به ويتميَّز في تصرُّفه عن أساليب الكلام المعتَاد؛ وذلك أن الطُّرُق التي يتميَّز بها الكلام البديع المنظوم تنقَسِم إلى أَعارِيض الشِّعر على اختِلاف أنواعِه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقَفَّى، ثم إلى أصناف الكلام المعدَّل المسَجَّع، ثم إلى مُعدَّل موزون غير مُسَجَّع، ثم إلى ما يُرسَل إرسالًا فتُطلَب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجهٍ بديع، وترتيب لطيف، وإنْ لم يكُن معتدلًا في وزنه، وذلك شَبِيهٌ بجملة الكلام الذي لا يَتعمَّل فيه، ولا يتصنَّع له، وقد عَلِمنا أن القرآن خارِجٌ عن هذه الوجوه، ومُبايِن لهذه الطرق، ويَبقَى علينا أن نُبَيِّن أنه ليس مِن باب السجْع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس مِن قَبِيل الشِّعر؛ لأن مِن الناس مَن زَعَمَ أنَّه كلام السجع، ومنهم مَن يدَّعِي فيه شِعرًا كثيرًا، فهذا إذا تأمَّله المتأمِّل تَبَيَّن – بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم – أنه خارِجٌ عن العادَة، وأنه مُعجِز، وهذه خصوصِيَّة ترجع إلى جملة القرآن، وتَمَيُّزٍ حاصِل في جميعه.

ومنها: أنه ليس للعرب كلامٌ مُشتَمِل على هذه الفَصاحة والغَرابة، والتصرُّف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحِكَم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطُّولِ، وعلى هذا القَدْرِ، وإنما تُنسَب إلى حَكِيمِهم كلماتٌ معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعِرِهم قصائد مَحصُورة يَقع فيها مِن الاختِلال، ويَعتَرِضها مِن

٣٠- يُنظر: المستدرك على الصحيحين للنيسابوري – كتاب التفسير – تفسير سورة المدثر – مدح كلام الله من لسان الكافر: مسألة:(١٥٠٦)، (٣٩٢٦)، قال النيسابوري: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه.، ورواه الحاكم: في كتاب التفسير (٣٨٧٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، يُنظر: صحيح السيرة النبوية ص١٥٩. وضعفه الذهبي وحكم عليه بالإرسال كما في تاريخ الإسلام، المصدر: تاريخ الإسلام الجزء أو الصفحة:١/١٥٤ حكم المحدث: روي مرسلاً، وضعفه كذلك الشيخ/ مقبل بن هادي الوادعي في صحيح أسباب النزول الجزء أو الصفحة:٢٦٢ حكم المحدث: ضعيف. ويُنظر: د. عرفة بن طنطاوي: (جَنَى الحُرْفَةِ في إبطالِ القولِ بالصَّرْفَةِ) (ص: ٤٣). وثبوت الأثر عند الباحث محل نظر.

٣١- من أسرار الكلمات في القرآن الكريم، د. طارق طبل. (د. ص) بتصرّف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الاختلاف، ويَشمَلُها مِن التَّعَمُّل والتكلُّف والتجوُّز والتعسُّف ما يُمكِن بيانه، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله مُتناسِبًا في الفصَاحَة على ما وصَفه الله تعالى به فقال عزَّ مِن قائل: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) (الزمر: ٢٣). (٣٢)

وإنما ذُكِرَ الإعجاز البياني هنا بشيء من الإيحاء والإشارة فقط لأنه موضوع البحث الرئيس وسيأتي الكلام عنه بالتفصيل والتأصيل في موضعه من الفصل الثالث بإذن الله تعالى.

المطلب الثاني: الإعجاز الغيبي وأقسامه

إعجازه القرآن في الإخبار عن المغيَّبات

مِن أبرز وجوه الإعجاز في القرآن إعجازُه في الإخبار عن الأمور الغيبية، وتلك الأمور الغيبية منها ما هو متعلق بالماضي، ومنها ما هو متعلق بالوقت والزمن الحاضر الْمُعاصِر لنزول القرآن(وهو عهد الرسالة)، ومنها ما هو متعلق بالمستقبل.

فـ "مِن وجوه إعجاز القرآن إعجازُه في الإخبار بالْمُغَيَّبات،

وهذه الْمُغَيَّبات قد تَتَعلَّق بالماضي السَّحِيق الْمُوغِل في القِدَم ممَّا لم يشهَدْه رسول الله-صلَّى الله عليه وسلَّم-، الذي خاطَبَه ربُّه سبحانه فقال:(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مريم وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) (آل عمران: ٤٤).، وذلك تعقيبًا على قصة امرأة عمران، وتمهيدًا للحديث عن مريم عليها السلام.

ومنها: ما يتعلَّق بالحاضر الواقع في زمنِ نزول القرآن عن أمور مُتَعَلِّقة بغُيُوبٍ لِمَن هم في عصْر الرسالة.

ومنها: ما يَتَعلَّق بغُيُوبٍ مستقبلِيَّة لم تكن وقعَت في عهده صلَّى الله عليه وسلَّم، وممَّا يكُون في يوم القيامة ". (٣٣)

والله سبحانه قد جعل للحق علامات وآيات باهرات متعددات ومتنوعات تدل على الحق الذي أرسل به رسله الكرام عليهم السلام، وهذه العلامات وتلك الآيات تدل على صدق المرسَل الذي هو "الرسول" وصدق المرسَل به وهو "الرسالة" لتقوم به الحجة على كل معاند وجاحد ومنكر لها، ويطمئن بها قلب كل مؤمن ومصدق ومتبع لها.

ومن تلك الآيات الباهرات التي جعلها الله تعالى علامة على أن القرآن وحيه الذي أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يمكن أن يكون لبشر قدرة على أن يقول بمثلها أبدًا، الأخبار المستقبلية التي ذكرها الله في كتابه، وقد قعت كما أخبر بها سبحانه وتعالى.

٣٢- يُنظر: إعجاز القرآن للباقلاني: (ص: ٣٥).

٣٣- يُنظر: إعجاز القرآن- أ. طاهر العتباني-عن موقع الألوكة- بتاريخ: ١٤٣١/٥/٢هـ.

شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول الباقلاني في الإعجاز الغيبي:

"وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه، فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أنه سيُظهر دينه على الأديان بقوله عز وجل: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)(التوبة:٣٣)، ففعل ذلك". (٣٤)

ذكر بعض ما ورد في القرآن عن الإخبار عن المغيَّبات الثلاث بشيء من التفصيل.

الإعجاز الغيبي الأول: الإخبار عن الأمور الغيبية التي تتعلق بغُيُوبٍ في الماضي.

تضمُن القرآن بعض الغُيُوب في الماضي:

لا شك: " أن القرآن معجز بتضمنه بعض أنباء الغيب الماضي (٣٥)، حيث أتى بمجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه، والنبي صلى الله عليه وسلم كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ولم يتتلمذ على يد أحد، ولم يكن يعرف عن ذلك شيئًا قبل نبوته، قال تعالى: [وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ] {العنكبوت:٤٨}" (٣٦).

ولقد قص الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من أخبار من سبقه من المرسلين قصصًا لم يكن يعرفها من قبل، فقال الله تعالى مخاطبًا له-صلى الله عليه وسلم- في الإخبار عن نبأ نوح عليه السلام: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) (هود: ٤٩).

وقال له في نبأ الإخبار عن موسى عليه السلام: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ... وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ) (هود: ٤٤-٤٦)

وقال له في نبأ الإخبار عن كفالة مريم عليها السلام ورعايتها: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) (آل عمران:٤٤) وقال له في نبأ الإخبار عن أنباء الرسل عليهم السلام: (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ) (هود: من آية:١٢٠).

ونسوق أمثلة عن بعض ما ورد في القرآن من المغيبات الماضية التي أخبر الله تعالى وأنبأ عنها.

٣٤-إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣٣).

٣٥- ما غاب عنك في الماضي يعتبر غيبًا بدليل قوله تعالى عقب قصة يوسف عليه السلام : [ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ...] {يوسف:١٠٢}

٣٦- يُنظر: إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص / ٦٤ ، ٦٥ .

شبكة الألوكة www.alukah.net

أولًا: ذكر نبأ أبينا آدم أبي البشر–عليه السلام–، وما قصه الله من خبر خلقه ونشأته، وخبره مع الملائكة، وخبره مع إبليس، وخبر معصيته وخروجه من الجنّة بسببها ثم هبوطه إلى الأرض.

١–مبدأ قصّة خلق آدم عليه السلام

وإنما كان مبدأ ذلك عندما أخبر الله تعالى ملائكة الكرام عليهم السّلام، بأنّه سيخلق في الأرض بشرًا يخلف بعضُهم بعضًا، كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)،(البقرة: ٣٠)

٢–تقدير خلق آدم من طين وأمره سبحانه الملائكة بالسجود له، ثم بيان عصيان إبْليس وتمرده

وقد أخبر سبحانه وتعالى ملائكته أنه قضى وقدر خلق آدم من طين؛ كما قال تعالى:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧)) (ص: ٧١-٧٧).

ولقد سجد الملائكة كلّهم أجمعون لآدم كما أمرهم ربُّهم، إلا إبليس أبى واستكبر، فقال له الله تعالى:(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)، فكان ردّ إبليس بكلّ كبرياء وحسدٍ: (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)، فحلّت عليه لعنة الله تعالى، وطُرِدَ من رحمته إلى الأبد، كما قال ربنا: (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)، ثمّ جاء طلبه بالإنظار بعد ذلك كما في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)(ص: ٧٩-٨٣).

٣– إسكان آدم–عليه السلام– وزوجه الجنة، وأكلهما من الشجرة، وهبوطهما إلى الأرض

قال تعالى: (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)[الأعراف: ١٩ –٢٥]

شبكة الألوكة www.alukah.net

٤- كما أخبر عن قصّة ونَبأَ ابنَي آدم

كما في قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (المائدة:٢٧)

ثانيًا: ذكر نبأ نوح-عليه السلام-،

١- الإخبار نوح-عليه السلام - وعن دعوته

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) (العنكبوت: ١٤)، وتأمل أيضًا سورة نوح بأكملها

٢- الإخبار عن طوفان -عليه السلام -

وفي ذلك يقول ربنا: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)) (يونس: ٧١-٧٣)، ثم تأمل ما ورد من خبره مع قومه وولده في سورة هود كذلك.

ثالثًا: الإخبار عن أبي الأنبياء إبراهيم-عليه السلام -

١- الإخبار عن إعلامِ اللهِ لإبراهيم -عليه السلام - مكان البيت

قال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (الحج: ٢٦).

٢- الإخبار عن بناء إبراهيم وابنه إسماعيل-عليهما السلام- للبيت العتيق

قال تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة: ١٢٧)، ثم تأمل فيما تلاها من آيات.

٣- تأمل في نبأ ابتلاءِ اللهِ لإبراهيم-عليه السلام -

قال تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة: ١٢٤)، ثم تأمل فيما تلاها من آيات كذلك.

٤-الإخبار عن محاجة إبراهيم -عليه السلام - للنمرود بن كنعان

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة: ٢٥٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

٥-الإخبار عن طلب إبراهيم -عليه السلام - اليقين من ربه

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)) (البقرة:٢٦٠)

٦-الإخبار عن ضَيْفِ إبراهيم -عليه السلام - من الملائكة وبشراهم له بغلام عليم، وبعذاب قوم لوط

قال تعالى: (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)) (الحجر:٥١-٦٠).

وتأمل كذلك إن شئت خبر ابتلاء إِبْرَاهِيمَ عليه السلام في إسكان ذريته بواد غير ذي زرع عن البيت المحرم، وابتلائه كذلك في ذبح ولده وفلذة كبده، ثم ابتلائه بإلقائه حيًا في النار، وغير ذلك مما أكثر الله ذكره من الغيبيات في حقه عليه السلام.

والحديث عن إِبْرَاهِيمَ عليه السلام في القرآن يطول جدًا، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. (٣٧)

رابعًا: الإخبار عن موسى -عليه السلام - في القرآن فهو أكثر من أن يُحصى، حتى قال بعض السلف: "كاد القرآن أن يكون كله لموسى" (٣٨)

ومن الغيبيات التي أعادها الله وثنَّاها في القرآن تكرارًا ومرارًا قصة موسى عليه السلام.

ولقد جاء ذكر موسى -عليه السلام - وقصته وخبره في كثير من سور القرآن الكريم.

فقد ذكر اسمه قرابة مائة وست وثلاثين مرة. وذلك فى أربع وثلاثين سورة من سور القرآن الكريم، وها هى مرتبة على الترتيب العددي التنازلي على النحو التالي:

١- سورة الأعراف: ٢١مرة

٢- سورة القصص: ١٨ مرة

٣- سورة طه: ١٧ مرة

٤- سورة البقرة: ١٣ مرة

٣٧- يُنسب هذا المثل لـ"عقيل بن علفة"، يُنظر: مع الجواهر في الملح والنوادر(٤٦/١).

٣٨- قال السيوطي: " ومع هذا كله لم يفرد لموسى سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن حتى قال بعضهم كاد القرآن أن يكون كله موسى".

يُنظر: الإتقان: (١٥٧/١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

٥- سورة يونس: ٨ مرات

٦-سورة الشعراء: ٨ مرات

٧-سورة غافر: ٣ مرات

٨- سورة النساء: ٣مرات

٩- سورة المائدة: ٣ مرات

١٠- سورة الأنعام: ٣ مرات

١١- سورة إبراهيم: ٣ مرات

١٢- سورة النمل: ٣ مرات

١٣- سورة هود: ٣ مرات

١٤- سورة الإسراء: ٣ مرات

١٥- سورة الكهف: مرتان

١٦- سورة المؤمنون: مرتان

١٧- سورة الأحزاب: مرتان

١٨- سورة الصافات: مرتان

١٩- سورة الأحقاف: مرتان

٢٠- سورة آل عمران: مرة واحدة

٢١- سورة مريم: مرة واحدة

٢٢- سورة الأنبياء: مرة واحدة

٢٣- سورة الحج: مرة واحدة

٢٤- سورة الفرقان: مرة واحدة

٢٥- سورة العنكبوت: مرة واحدة

٢٧- سورة السجدة: مرة واحدة

٢٧- سورة فصلت: مرة واحدة

٢٨- سورة الشورى: مرة واحدة

٢٩- سورة الزخرف: مرة واحدة

٣٠- سورة الذاريات: مرة واحدة

٣١- سورة النجم: مرة واحدة

٣٢- سورة الصف: مرة واحدة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣٣- سورة النازعات: مرة واحدة

٣٤- سورة الأعلى: مرة واحدة

ولنتخير بعض المواضع من آي القرآن التي ورد فيها ذكر خبر موسى **-عليه السلام -** على النحو التالي:

قال تعالى في سورة البقرة:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً) (البقرة ٦٧).

وقال تعالى في سورة النساء:

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) ﴿١٦٤ النساء﴾

وقال تعالى في سورة الأعراف:

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

﴿١٤٢ : الأعراف﴾

وقال تعالى في سورة الأعراف أيضًا:

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) ﴿١٤٣ : الأعراف﴾

وقال تعالى في سورة الأعراف أيضًا:

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ) ﴿١٤٨ : الأعراف﴾.

قال تعالى في سورة إبراهيم:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (إبراهيم:٥).

وقال تعالى في سورة الكهف:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) ﴿٦٠ : الكهف﴾

وقال تعالى في سورة الإسراء:

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا) (الإسراء:٢).

وقال سبحانه في سورة الإسراء أيضًا:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا) ﴿١٠١ الإسراء﴾

وقال عز وجل في سورة الدخان:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) (الدخان:١٧).

وقال سبحانه في سورة والنازعات:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) (النازعات:١٥).

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا كله غيض من فيض عن بعض ما ورد ذكره من قصة موسى-عليه السلام - وخبره في القرآن الكريم.

ومثالًا عن تلك الغيبيات التي أعادها الله وكررها وثنَّاها في القرآن الكريم وذكرها تكرارًا ومرارًا ذكر قصته -عليه السلام - وخبره مع فرعون وقومه، وهي من الغيبيات المشتملة على العبر المؤثرات العظام، والحكم البالغات الجسام، والمواعظ النافعات الكبار، ولقد ذكرت تلك القصة في القرآن قرابة عشرين مرة.

ولنتأمل ذلك كمثال في صدر سورة القصص وما تبعها من آيات

قال تعالى: (طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(٤)) (القصص: ٢-٤).

وقد ذكر الله تعالى خبر موسى -عليه السلام - في القرآن الكريم في مائة وست وثلاثين مرة. وذلك في أربع وثلاثين سورة من سور القران الكريم كما مر بنا ذلك آنفًا، وأغلب السور المكيه تناولت قصته-عليه السلام - قبل خروجه من مصر، أما السور المدنية؛ فأبرز ما ورد فيها من قصته -عليه السلام- معاناته مع بني إسرائيل بعد خروجه من مصر وغرق فرعون وقومه....

و موسى أُلقِي في اليم طفلًا رضيعًا، و نشأ وترعرع في قصر فرعون، وخرج خائفًا يترقب حتى وصل أرض مدين وعاش فيها وتزوج ابنة الرجل الصالح، ثم عاد قافلًا إلى مصر، وفي الواد المقدس كلمه ربه تكليمًا وأوحي إليه تكليفًا وتكريمًا، ثم عالج صراعًا مع فرعون وقومه سنين عدة، ثم كان بعد ذلك ما أخبر الله به من إغراقه لفرعون وقومه، ونجاة موسى-عليه السلام - وقومه، ثم تأمل جيدًا قصته وخبره مع الخضر عليه السلام، ثم أعد التأمل فيما دار بينهما من حوار في خبر أصحاب السفينة، ثم خبر الغلام الذي قتله الخضر-عليه السلام -، ثم خبر الجدار الذي أقامه، هل كان ذلك كله تخمينًا وضربًا من الخيال، وكيف يتنبأ بذلك نبي أمي لم يتلق كتابًا قبله قط، فلا يمكن أن يكون ذلك أبدًا إلا وحيًا أوحاه الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

"أحسن أحاديث الأنبياء حديث تكليم الله لموسى-عليه السلام - ". (٣٩)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"قصة موسى-عليه السلام - هي أعظم قصص الأنبياء المذكورين في القرآن، وهي أكبر من غيرها، وتبسط أكثر من غيرها". (٤٠)

٣٩- مجموع الفتاوى: (١٧/٣٢).

٤٠- شرح العقيدة الأصفهانية: (ص: ٢٠٩).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال–رحمه الله – أيضًا:

" وثنى قصة موسى مع فرعون؛ لأنهما في طرفي نقيض في الحق والباطل فإن فرعون في غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى في غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليمًا لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار، فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله ولم يكن أيضًا للرسل من التكليم ما لموسى؛ فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتبارا لأهل الإيمان ولأهل الكفر؛ ولهذا كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة". (٤١)

وقال ابن القيم –رحمه الله–:

" يذكر سبحانه وتعالى قصة موسى عليه السلام ويعيدها ويبديها ويسلي رسوله صلى الله عليه وسلم. " (٤٢)

وقال الحافظ ابن كثير – رحمه الله –:

" وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص". (٤٣)

وقال ابن سعدي – رحمه الله –:

" وليس في قصص القرآن أعظم من قصة موسى عليه السلام؛ لأنه عالج فرعون وجنوده، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، وشريعته وكتابه التوراة هو مرجع أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم وأتباعه أكثر أتباع الأنبياء غير أمة محمد – صلى الله عليه وسلم –، وله من القوة العظيمة في إقامة دين الله والدعوة إليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره". (٤٤).

وقال– رحمه الله – أيضًا:

" أعاد الباري تعالى، قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن". (٤٥)

وقال السيوطي رحمه الله:

" ومع هذا كله لم يفرد لموسى سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن حتى قال بعضهم كاد القرآن أن يكون كله لموسى". (٤٦)

٤١– مجموع الفتاوى: (٩/١٢).

٤٢– جلاء الأفهام: (ص:١٩٩).

٤٣– تفسير ابن كثير: (٢٨٥/٤).

٤٤– تفسير ابن سعدي: (ص: ٢٢٣).

٤٥– تفسير ابن سعدي: (ص: ٥٨٩)

٤٦– يُنظر: الإتقان: (١٥٧/١). وقد سبق ذكره آنفًا.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما كانت قصة موسى-عليه السلام - في القرآن أكثر من نحيط بها في بحث أو مقال، فاكتفينا بمثال ليوضح الحال، ولعل في الإشارة ما يغني عن العبارة.

خامسًا: الإخبار عن عيسى -عليه السلام -

١- بشرى الملائكة لمريم -عليهما السلام - باصطفاء الله لها

ذكر الله تعالى من خبر بشرى الملائكة لمريم باصطفائه تعالى لها فقال سبحانه:

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ

(آل عمران: ٤٢-٤٣).)يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ

٢- بشرى الملائكة لمريم بـ "عيسى" -عليهما السلام-

كما قال تعالى: (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلًا) (آل عمران:٤٥-٤٧).

٣- بشرى جبريل عليه السلام لمريم بميلاد عيسى -عليه السلام -

قال سبحانه: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا- فاتخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا - قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا- قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا - قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيًا - قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرًا مقضيًا) (مريم:١٦ - ٢١).

٤- إخبار الله تعالى عن حمل مريم بعيسى-عليه السلام -

فلما أخبرها جبريل بذلك الأمر الجلل استسلمت لقضاء الله ورضيت بقدره، فجاءها ونفخ في جيب درعها.. (فحملته فانتبذت به مكانًا قصيًا - فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا) (مريم:٢٢ - ٢٣).

٥- إخبار الله تعالى عن بعث الطمأنينة في نفس مريم، وسوق رزقها إليها

قال تعالى: (فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريًا - وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيًا - فكلي واشربي وقرّي عينًا فإما ترين من البشر أحدًا فقولي إني نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًا) (مريم:٢٤ - ٢٦).

٦- إخبار الله تعالى عن ريبة قوم مريم منها واستنكارهم لشأنها

قال تعالى: (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريًا - يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًا - فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيًا) (مريم:٢٧ - ٢٩).

شبكة الألوكة www.alukah.net

٧- إخبار الله تعالى عن معجزة نطق عيسى -عليه السلام - في المهد تبرأة لأمه

أخبر الله تعالى عن شأن عيسى حينما أنطقه في المهد بقول سبحانه: (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا - وجعلني مباركًا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا - وبرًا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًا - والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا) (مريم: ٣٠ -٣٣).

٨- إخبار الله تعالى عن امتراء بني إسرائيل في عيسى-عليه السلام -

قال تعالى.. (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون - ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون - وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم - فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) (مريم: ٣٤ -٣٧).

٩- إخبار الله تعالى ببشرى تشريفه سبحانه لعيسى -عليه السلام - بالنبوة والرسالة, وتأييده بالمعجزات

قال تعالى: (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل - ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين - ومصدقًا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) (آل عمران: ٤٨ -٥١).

وما أخبر الله في كتابه عن الغيبيات الواردة في حق عيسى-عليه السلام - كثيرة ومعلومة.

سادسًا: الإخبار عن الكثير من قصص الأولين وأخبار السابقين،

ومنه: الإخبار عن نبأ قوم عاد [٤٧] وثمود [٤٨] وما أصابهما من بلاء ونكال وصواعق وعذاب شديد،

تأمل ذلك في مواضع شتى من كتاب الله

١- ومن ذلك ما ورد في قوله الله تعالى في سورة فصلت:

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا

٤٧-عن إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك... أن عادًا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها فبعث الله لهم هودًا... فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه، وان يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه.. وكانت منازلهم بالأحقاف، والأحقاف الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا في الأرض كلها، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله. (اهـ). يُنظر: تفسير المنار (٨/ ٤٩٧). بتصرف

٤٨- ثمود قبيلة من العرب سميت باسم جدهم ثمود ابن عاد بن إرم بن سام بن نوح... وعن عمر بن العلاء: أنهم سموا بذلك لقلة مائهم، فالثمد: الماء القليل... وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى... يُنظر: تفسير المنار (٨/ ٥٠٣).

شبكة الألوكة www.alukah.net

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)(فصلت:١٣-١٨).

٢- وما ورد عن نوعي العذاب الذي أصابهما أيضًا، وذلك في قوله تعالى في سورة الحاقة:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨))

(الحاقة: ٤-٨).

٣- ويقول الله تعالى عن نبأ إهلاكهما في سورة النجم أيضًا:

. (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١)) (النجم:٥٠-٥١)

-ويقول الله تعالى عن نبأ ثمود في سورة الذاريات أيضًا: (... وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥)(الذاريات:٤٣-٤٥).

٤- ويقول الله تعالى عن نبأ عاد وثمود وفرعون وما أصابهم من العذاب في سورة الفجر أيضًا:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)) (الفجر:٦-١٤)

٥- ومنه: الإخبار عن العزير

تأمل قوله تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة: ٢٥٩).

٦- ومنه: الإخبار عن أبرهة الأشرم وحادثة الفيل، ثم تأمل ذلك في سورة الفيل.

واعلم أن الإخبار عن تلك الغيبيات الماضية منذ مبدأ الخلق إلى مولده-عليه الصلام والسلام- يدل دلالة واضحة لا تدع أي مدخل أو ريبة في أن القرآن كلام الله حقًا، ووحيه صدقًا، وأن الله تعالى قد أوحاه لنبي أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتلق أي علم من بشر، وقد قال الله عن افتراء الكفار في ذلك: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) (الفرقان:٤)

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال سبحانه: (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (الفرقان:٥). وقال سبحانه أيضًا: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (النحل: ١٠٣)، فرد الله جل في علاه عليهم شبهاتهم وأبطل مزاعمهم ودحض أباطيلهم بقوله سبحانه: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) (العنكبوت: ٤٨)

بل هو كما وصفه ربنا بقوله: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد) (فصلت: ٤١-٤٢).

الإعجاز الغيبي الثاني: الإخبار عن الأمور الغيبية التي تتعلق بغُيُوبٍ في الزمن الحاضر الْمُعاصِر والواقع في زمنِ نزول القرآن عن أمور مُتَعَلِّقة بغُيُوبٍ لِمَن هم في عصْر الرسالة.

لقد أنزل الله آيات بينات فضحت أهل النفاق من خلال مواقف وأحداث لم يحضرها رسول صلى الله عليه وسلم فجاء الوحي بإخباره وإعلامه بها.

ومن ذلك:

١- ما ورد في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ) (البقرة:٢٠٤)

قال السدي:

"هذه الآية وثلاث آيات بعدها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأظهر الإسلام، وفي باطنه خلاف ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما:

أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع، وعابوهم فأنزل الله ذم المنافقين، ومدح خبيبًا وأصحابه.

وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم، وهذا قول قتادة، ومجاهد، والربيع بن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح". (٤٩)

وفي قوله تعالى: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ) (التوبة:٦٤)

قال الطبري:

يقول - تعالى ذكره -: يخشى المنافقون أن تنزل فيهم (سورة تنبئهم بما في قلوبهم) يقول: تظهر المؤمنين على ما في قلوبهم.

٤٩-عمدة القاري شرح صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى وهو ألد الخصام (٢٣٢٥).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقيل: إن الله أنزل هذه الآية على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؛ لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وذكروا شيئًا من أمره وأمر المسلمين، قالوا: " لعل الله لا يفشي سرنا! " فقال الله لنبيه – صلى الله عليه وسلم –: قل لهم: (استهزئوا) متهددًا لهم متوعدًا (إن الله مخرج ما تحذرون) (٥٠)

ومن ذلك أيضًا:

٢–ماورد في قوله تعالى: (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) (التوبة:٧٤)

فهل كان النبي صلى الله عليه وسلم معهم هؤلاء جميعًا: (إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ) (النساء: من آية: ١٠٨).

ومن ذلك أيضًا:

٣–فضْحُ مَكايد المُنافِقين ومُؤامراتهم؛ كما حدَث في اتخاذهم لمسجد الضرار؛ الذي قال تعالى في شأنه:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)) (التوبة: ١٠٧ – ١٠٨).

يقول ابن كثير: حمه الله

"سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مَقدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له: " أبو عامر الراهبُ "، وكان قد تَنَصَّر في الجاهلية وقرأ علْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قَدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألَّبهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه، وكُسِرت رباعِيتُه اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه، صلوات الله وسلامه عليه. وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شَر.

٥٠– تفسير الطبري (٣٣٢/١٤).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيدًا طريدًا، فنالته هذه الدعوة.

وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمرَ الرسول صلوات الله وسلامه عليه في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم، فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويُمَنِّيهم أنه سيقدمُ بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه، ويكونَ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: (إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله)(٥١)، فلما قفل عليه الصلاة والسلام راجعًا إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة.

كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهم- في قوله: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم وأخرج محمدًا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله عز وجل: (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) إلى (وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتاد، وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادة، وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعني من تبوك - حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار(٥٢) - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: (إني على جناح سَفر وحال شُغل - أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولو قد قدمنا إن شاء

٥١- سيأتي بطوله مع تخريجه بعد قليل.

٥٢- يُنظر: السير والمغازي لابن إسحاق: (٤/١٥٥-١٥٦).

شبكة الألوكة www.alukah.net

الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه) ([٥٣])، فلما نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي – أو: أخاه عامر بن عدي – أخا بني العجلان فقال: (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه). فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدّخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سَعَفا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يَشتدَّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا) إلى آخر القصة.

وكان الذين بنوه اثني عشر رجلًا، وهم:

١-خذام بن خالد، من بني عُبَيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق.

وثعلبة بن حاطب، من بني عبيد وهو إلى بني أمية بن زيد. ٢-

ومعتِّب بن قُشي، من بني ضُبَيعة بن زيد. ٣-

وأبو حبيبة بن الأذعر، من بني ضُبَيعة بن زيد. ٤-

وعَبَّاد بن حُنَيف، أخو سهل بن حنيف، من بني عمرو بن عوف. ٥-

وجارية بن عامر. ٦-

وابناه: مُجَمِّع بن جارية. ٧-

وزيد بن جارية. ٨-

٩- ونَبْتَل بن الحارث، من بني ضبيعة.

وبحزج وهو من بني ضبيعة. ١٠-

وبجاد بن عُثمان وهو من بني ضُبَيعة. ١١-

ووديعة بن ثابت وهو إلى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر. ١٢-

وقوله تعالى: (وَلَيَحْلِفُنَّ) أي: الذين بنوه: (إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى) أي: ما أردناه ببنيانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس.

قال الله تعالى: (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) أي: فيما قصدوا وفيما نوَوا، وإنما بنوه ضِرارا لمسجد قُباء، وكفرا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: " الراهب " لعنه الله.

وقوله: (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا) نهي من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، والأمة تَبَع له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبدًا.

٥٣- قلت هكذا أورده الحافظ ابن كثير عن طريق ابن إسحاق عن الزهري عن الجماعة المذكورين مرسلًا، وهو في السيرة لابن هشام: (٤/١٧٥-١٧٦) بهذا السياق بدون إسناد، وأما السيوطي فأورده في "الدر المنثور" : (٣/٢٧٦-٢٧٧) بهذا السياق من تخريج ابن إسحاق وابن مردويه عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال فذكره، ومن تخريجهما عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصرًا. والله أعلم.

يُنظر: إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل: (٥/٣٧٠-٣٧١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم حثه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله، وجمعًا لكلمة المؤمنين، ومَعقلًا وموئلًا للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء؛ وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلح، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهر، عن عُرْوَة بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جُبَي، وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو في جوف المدينة

هو المسجد الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى والأحرى ". (٥٤)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله اقتضاء الصراط المستقيم:

"وكان مسجد الضرار قد بني لأبي عامر الفاسق الذي كان يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وكان المشركون يعظمونه، فلما جاء الإسلام حصل له من الحسد ما أوجب مخالفته للنبي صلى الله عليه وسلم، وفراره إلى الكافرين، فقام طائفة من المنافقين يبنون هذا المسجد، وقصدوا أن يبنوه لأبي عامر هذا، والقصة مشهورة في ذلك، فلم يبنوه لأجل فعل ما أمر الله به ورسوله، بل لغير ذلك ". (٥٥)

ويقول شيخنا الفقيه العلامة ابن عثيمين رحمه الله في مجموع فتاويه:

"مسجد الضرار بني على نية فاسدة، قال تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) والمتخذون هم المنافقون، وغرضهم من ذلك:

١- مضارة مسجد قباء: ولهذا يسمى مسجد الضرار

٢- الكفر بالله: لأنه يقرر فيه الكفر - والعياذ بالله -؛ لأن الذين اتخذوه هم المنافقون.

٣- التفريق بين المؤمنين: فبدلًا من أن يصلي في مسجد قباء صف أو صفان يصلي فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر، والشرع له نظر في اجتماع المؤمنين.

٤- الإرصاد لمن حارب الله ورسوله يقال: إن رجلا ذهب إلى الشام، وهو أبو عامر الفاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات، فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، قال الله تعالى: (وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى)، فهذه سنة المنافقين: الأيمان الكاذبة ". (٥٦)

٥٤- تفسير ابن كثير: (٤/٢١٠-٢١٤).

٥٥-اقتضاء الصراط المستقيم: (ص:٤٣١).

٥٦- مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٩/٢٢٦-٢٢٧)

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولِيُعلَمَ أن القصة مروية في عدد من التفاسير المسندة بأسانيد صحيحة من طرق عدة، فلتراجع في مظانها. ([٥٧])

وكذلك في سورة براءة-"التوبة"-المدمرة -المبعثرة -الفاضحة التي فضحت المنافقين، فيها بيانٌ لكثيرٍ مِن المغَيَّبات التي كانت حاضرة وقتَ نزول القرآن، وقد أُخبِرَ بها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يكُن يَعلم بها حتى نزَل القرآنُ بها وبيّنها وجلاها؛

ومِن ذلك أيضًا:

٤-مواقف المنافقين التي بينها الله تعالى في كتابه الكريم؛ والتي منها قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)) (التوبة: ٧٥-٧٨). (

قال ابن كثير رحمه الله:

"يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقًا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله - عز وجل - يوم القيامة

عياذًا بالله من ذلك. " ([٥٨])

ومِن ذلك أيضًا:

٥- ما ذكر الله تعالى وأَخبَر به في كتابه مِن شأن المنافقين:

موقف رأس النفاق وزعيم المنافقين عبدِ الله بن أُبَيّ بن سَلُول الأزدي الخزرجي والذي ترأس النفاق في أرض الهجرة، وهو يظن نفسه كما قيل: " لص الدار لا تراقبه الأنظار"، ولكن الله كان له بالمرصاد ففضحه في عقر داره، فقال عنه سبحانه: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)) (المنافقون: ٧-٨)، ثم تأمل مطلع السورة كذلك، وما تلاها وتبعها من آيات في وصف النفاق والمنافقين.

٥٧- وقصة مسجد الضرار قد وردت تفاصيلها في كتب التفسير المسندة من طرق عدة، منها: طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - كما في تفسير ابن أبي حاتم (رقم/١٠٠٦٠) بسند صحيح، ومن طرق صحيحة أخرى إلى جماعة من التابعين، ولما كان أصل تفسير القصة ثابتًا عن ابن عباس رضي الله عنهما بالسند الصحيح، كان ذلك كافيًا في توضيح الحادثة، والآثار الأخرى الواردة عن تلاميذ ابن عباس من التابعين وغيرهم تزيد القصة وضوحًا وبيانًا، والحمد لله. ويُنظر تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في كتاب الكشاف " للزيلعي (٢/٩٩-١٠٢)، " الدر المنثور للسيوطي" (٤/٢٨٤-٢٨٨)، " زاد المعاد " (٣/٥٤٩)، " السيرة النبوية " لابن هشام (٥/٢١١) وغيرها.

٥٨- تفسير ابن كثير (٤/١٨٤).

شبكة الألوكة www.alukah.net

عن زيد بن أرقم – رضي الله عنه– قال –: (٥٩)

كنت مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في غزاة، فسمعت عبد الله بن أُبيّ ابن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من عنده، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلَّ. فحدَّثتُ به عمِّي، فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبره، فدعاني رسول الله، فأخبرته، فبعث إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه، فجاؤوا، فحلفوا بالله ما قالوا، فصدَّقه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكذَّبني، فدخلني من ذلك همٌّ، وقال لي عمِّي: ما أردتَ إلى أن كذَبك رسول الله، ومقتَك، فأنزل الله: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ)، فدعاهم رسول الله، فقرأها عليهم، ثم قال: "إن الله قد صدقَكَ يا زيد". (٦٠).

وقد تبادر أبو بكر وعمر إلى زيد ليبشراه فسبق أبو بكر عمر فأقسم عمر ألا يبادره بعدها إلى شيء، وجاء النبي فأخذ بأذن زيد وقال: "وفت أذنك يا غلام". (٦١)

وابن سلول قال تلك الكلمة الشنيعة في حقِّ خير خلق الله –صلَّى الله عليه وسلَّم–، فأسرع زيدُ بنُ أرقم– رضي الله عنه– فأَخبَر بها رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمَّا سُئِل ابن سلول عن ذلك أَنكَر أشد الإنكار، فأنزل الله تعالى تلك الآيات تصْديقًا لزيدِ بنِ أرقم– رضي الله عنه–، وهذا وشبهه في حال المنافقين في القرآن كثير.

الإعجاز الغيبي الثالث: الإخبار عن الأمور الغيبية التي تتعلق بغُيُوبٍ مستقبلِيَّة.

تضمُن القرآن بعض الغُيُوب المستقبلية:

أي: إن القرآن معجز بتضمنه بعض أخبار الغيب المستقبلي، وهذا لا يقدر عليه إلا الله ولا يستطيعه البشر، ولا سبيل لهم إليه، ومن ذلك وعد الله لنبيه صلوات الله وسلامه عليه بإظهار دينه على كل الأديان، وذلك قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشْرِكُونَ] {التوبة:٣٣} وقد تحقق كثير من هذا الوعد في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وفي العهود اللاحقة. (٦٢)

وهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١– انتصار الروم على الفرس بعد هزيمتهم من قبَلهم أول الأمر .

قال تعالى: (غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ...) (الروم: ٢ – ٤) .إلى قوله سبحانه: (وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم: ٦)

٥٩– زَيْد بْن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان الأنصاري الخزرجي، صحابي مشهور، أول مشاهده الخندق، (ت : ٦٦هـ)، الاستيعاب (١٠٩/٢، التقريب ٢٢٢).

٦٠– متفق عليه، البخاري (١ / ٣٢٧) برقم (٤٩٠٠)، مسلم (٤ / ٢١٤٠) برقم (٢٧٧٢).

٦١–وقصة عَبد الله بن أَبي بن سلول أخرجها أحمد: ٤ / ٣٦٨ و٣٧٠، والبخاري: ٦ / ١٩٠، والتِّرْمِذِيّ (٣٣١٤) من رواية مُحَمَّد بْن كعب عن زيد. وأخرجها أحمد: ٤ / ٣٧٣، وعَبدُ بن حُميد (٢٦٢) ، والبخاري: ٦ / ١٨٩ و١٩١، ومسلم (٢٧٧٢) ، والتِّرْمِذِيّ (٣٣١٢) من رواية أَبِي إِسْحَاق عَنْ زَيْد بْن أرقم.

(٦٢) يُنظر: إعجاز القرآن، للباقلاني ، ص / ٦٢ وما بعدها .

شبكة الألوكة www.alukah.net

وكلمة " بِضع " في اللغة تدل على ما بين ثلاث وتسع، وقد جاء انتصار الروم على الفرس بعد سبع سنين من نزول الآية

قال ابن كثير – رحمه الله– :

"وقوله: (وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) أي: هذا الذي أخبرناك به – يا محمد – مِن أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق، وخَبَر صدق لا يُخلف، ولا بد من كونه ووقوعه". (٦٣)

ويقول ابن سعدي – رحمه الله –:

" وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) أن ما وعد الله به حق فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته ". (٦٤)

٢– الإخبار عن انتصار المسلمين في غزوة بدر وتحقق ذلك النصر.

.قال تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ). (القمر:٤٥)

قال القرطبي – رحمه الله –:

"وهذا مِن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر ". (٦٥)

وقال الطاهر بن عاشور – رحمه الله –:

" وهذا بشارة لرسوله صلى الله عليه وسلم بذلك، وهو يعلم أن الله منجز وعده، ولا يَزيد ذلك الكافرين إلا غرورًا فلا يعيروه جانب اهتمامهم. وأخذ العدة لمقاومته ". (٦٦)

وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب:"بل الساعة موعدهم "... (٦٧)الآية، ومعنى هذا أنها نزلت والمسلمون لا زالوا بمكة مستضعفين قليلين رمتهم العرب عن قوس واحد، ولم تكن حينئذ أية فكرة قتال لدى المؤمنين – إذ الجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة – ولو كان القتال فلم يكن متوقعًا في ميزان القوة أن يتغلب المسلمون فيه، ولذلك روى ابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه قال لما نزلت الآية: " أي جمع يهزم أي جمع يغلب؟!) "(٦٨)

ثبت عند البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ يَوْمَ بَدْر: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ" فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ

٦٣–تفسير ابن كثير (٦ / ٣٠٥)

٦٤–تفسير ابن سعدي (ص: ٦٣٦)

٦٥ –تفسير القرطبي (١٧ / ١٤٦).

٦٦–التحرير والتنوير (٢٧ / ٢٣١).

٦٧– صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن(٤٧٠٧).

٦٨– مختصر تفسير: ابن كثير(٣٤١٢/٤١٣).

شبكة الألوكة www.alukah.net

يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ- وَهُوَ فِي الدِّرْعِ - فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: (سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ). (القمر:٤٥- ٤٦). (٦٩)

ثم تأمل ما ثبت عند مسلم من حديث ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْف، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ:

"اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ"، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) (الأنفال: ٩)، فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ. (٧٠)

"وتمر الأيام ويتميز معسكر الكافرين عن معسكر المؤمنين وتقع غزوة بدر فيعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد جاء اليوم الموعود، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:" فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتب في الدرع ويقول:" سيهزم الجمع.. " فعرفت تأويلها يومئذ". (٧١)

٣- الإخبارٌ عن موت أبي لهب وامرأته على الكفر وتحقق ذلك

قال تعالى: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) (المسد: ١-٣).

"فقوله تعالى: (تبت يدا أبي لهب) أي: خسرت وخابت، وضل عمله وسعيه (وتب)أي: وقد تب تحقق خسارته وهلاكه.

ف الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه. وأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة. وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه.

(وامرأته حمالة الحطب) وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان. وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده; فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه في عذابه في نار جهنم. ولهذا قال: (حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) يعني: تحمل الحطب فتلقي على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهي مهيأة لذلك مستعدة له.

٦٩- رواه البخاري (٢٩١٥).

٧٠- رواه مسلم (١٧٦٣).

٧١ - مختصر تفسير: ابن كثير(٤١٣/٣٤١٢).بتصرف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد يعني: فأعقبها الله بها حبلًا في جيدها من مسد النار.

وقال مجاهد (في جيدها حبل من مسد أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسدًا؟ (٧٢)

"وفي هذه الآيات إخبارٌ من الله تعالى أن عمَّ النبي صلى الله عليه وسلم أبا لهب سيموت على الكفر ولن يدخل في الإسلام، وهو أمر غيبي أوحاه الله لنبيِّه عليه الصلاة والسلام، وكان بإمكان أبي لهب أن يعلن إسلامه ليكذِّب هذا الخبر – ولو في الظاهر – لكنه لم يفعل، وقد أحدثت هذه الآيات وقعًا عظيمًا على بعض الكفار الذين أرادوا البحث في القرآن عن أخطاء ليشككوا المسلمين بكتاب ربِّهم تعالى، فأبهرتهم هذه الآية – من ضمن آيات كثيرة – فما كان من هذا الراغب بالتشكيك بالقرآن إلا أن يُعلن إسلامه ويصير من الدعاة للإسلام، وهو الدكتور " جاري ميلر "(٧٣)، ومما قاله في صدد

هذه الآيات: "هذا الرجل يعني– أبا لهب – كان يكره الإسلام كرهًا شديدًا لدرجة أنه كان يتبع محمدًا صلى الله عليه وسلم أينما ذهب ليقلل من قيمة ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم، إذا رأى الرسول يتكلم إلى أناس غرباء فإنه ينتظر حتى ينتهي الرسول صلى الله عليه وسلم من كلامه ليذهب إليهم ثم يسألهم ماذا قال لكم محمد؟ لو قال لكم أبيض فهو أسود! ولو قال لكم ليل فهو نهار! والمقصد أنه يخالف أي شيء يقوله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ويشكك الناس فيه.

وقبل عشر سنوات من وفاة أبي لهب نزلت سورة في القرآن اسمها " سورة المسد "، هذه السورة تقرر أن أبا لهب سوف يذهب إلى النار، أي بمعنى آخر: أن أبا لهب لن يدخل الإسلام، وخلال عشر سنوات كاملة كل ما كان على أبي لهب أن يفعله هو أن يأتي أمام الناس ويقول: " محمد يقول إني لن أسلم وسوف أدخل النار ولكني أعلن الآن أني أريد أن أدخل في الاسلام وأصبح مسلمًا، الآن ما رأيكم هل محمد صادق فيما يقول أم لا؟ هل الوحي الذي يأتيه وحي إلهي؟ "، لكنَّ أبا لهب لم يفعل ذلك تمامًا، رغم أن كل أفعاله كانت هي مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنه لم يخالفه في هذا الأمر، يعني القصة كأنها تقول إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأبي لهب أنت تكرهني وتريد أن تُنهيني؟ حسنًا لديك الفرصة أن تنقض كلامي! لكنه لم يفعل خلال عشر سنوات كاملة! لم يسلم، ولم يتظاهر حتى بالإسلام! عشر سنوات كانت لديه الفرصة أن يهدم الاسلام بدقيقة واحدة! ولكن لأن الكلام هذا ليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنه وحي ممن يعلم الغيب ويعلم أن أبا لهب لن يسلم.

٧٢- تفسير ابن كثير (٨/٥١٤-٥١٦). بتصرف

٧٣-الدكتور/ جاري ميلر، كان مبشرًا ومنصرًا وواعظًا في الكنيسة الكندية، وبعد أن هداه الله للإسلام تسمى بـ "عبد الأحد عمر"، وعرف بحب الرياضيات، وكان أستاذًا لها في جامعة تورنتو، وكان مهتمًا بعلم المنطق كذلك . يُنظر: حقيقة إسلام العالم الكندي "غاري ميلر". بتصرف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

كيف لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يعلم أن أبا لهب سوف يثبت ما في السورة، إن لم يكن هذا وحيًا من الله؟ كيف يكون واثقًا خلال عشر سنوات كاملة أن ما لديه حق لو لم يكن يعلم أنه وحي من الله؟ لكي يضع شخص هذا التحدي الخطير ليس له إلا معنى واحد هذا وحي من الله". (٧٤).

وختامًا لهذا الأمر الجلل نقول:

لو أن أبا لهب قام بعد نزول هذه السورة ونطق بالشهادتين، لاختلت الموازين،، ولكن هيهات هيهات، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، فهناك رب علام للغيوب، وأن هذا لن يخطر ببال أبي لهب ولا امرأته أبدًا وأنه سيختم لهما بخاتمة السوء، وأنهما سيموتان على الكفر.... ثم من أطلع نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن أبا لهب وامرأته سوف يموتا على الكفر؟ والتاريخ شاهد على أن هناك من كانوا على الشرك مثلهما تمامًا، بل كانوا من ألد أعداء الإسلام، وحاربوا وقاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مواطن شتى، وقد شرح الله صدورهم للإسلام وأنار الله بصائرهم وهدى قلوبهم، ومن أبرز هؤلاء: عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– وقد أسلم قبل الهجرة، قيل في سنة ستة من البعثة، وعمرو بن العاص–رضي الله عنه– قيل أسلم في السنة الثامنة من البعثة، وخالد بن الوليد – رضي الله عنه– قيل أسلم كذلك في السنة الثامنة من البعثة بعد الحديبية، وعكرمة بن أبي جهل–رضي الله عنه– أسلم عام الفتح في السنة الثامنة، وأبو سفيان بن حرب رضي الله عنه مع شدة عداوته وقيادته لقريش في قتال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في عدة معارك حاسمة طاحنة ومتتابعة، وقد أسلم عام الفتح في السنة الثامنة كذلك، وغيرهم، أليس هذا إعجازا بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى.

٤– توعد رب العزة تبارك وتعالى الوليد بن المغيرة بالعذاب الأليم والإخبار عن سوء خاتمته وموت على الكفر وتحقق ذلك

قال تعالى: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢)وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)) (المدثر:١١-٣٠). و "لا خلاف أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي". (٧٥)

"يقول تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر.

٧٤- الأخبار المستقبلية في القرآن والسنَّة وتحقق وقوعها من أدلة صدق هذا الدِّين، مقال عن موقع الإسلام سؤال وجواب، بتاريخ:١٩/٥/٢٠١١م. بتصرف

٧٥- تفسير البحر المحيط (٣٧٣/٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

قال مجاهد: (سأرهقه صعودًا)أي: مشقة من العذاب. وقال قتادة عذابًا لا راحة فيه واختاره ابن جرير.

وقوله عز وجل (سأصليه سقر) أي: سأغمره فيها من جميع جهاته.

وقوله سبحانه وتعالى: (وما أدراك ما سقر) وهذا تهويل لأمرها وتفخيم". (٧٦)

٥- تصديق الله لرؤيا رسو له صلى الله عليه وسلم وتحقق الفتح المبين

قوله تعالى: (لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) (الفتح: ٢٧)

قال الطبري:

"يقول – تعالى ذكره –: لقد صدق الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصرًا بعضهم رأسه، ومحلقًا بعضهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وقوله: (فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) قال: النحر بالحُديبية, ورجعوا فافتتحوا خيبر, ثم اعتمر بعد ذلك, فكان تصديق رؤياه في السنة القابلة ". (٧٧).

قال البغوي:

"وذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أري في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين، ويحلقون رءوسهم ويقصرون، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق عليهم، فأنزل الله هذه الآية.

ثم قال: أخبر أن الرؤيا التي أراه إياها في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدق وحق". (٧٨).

٧٦- تفسير ابن كثير (٨/٢٦٦-٢٦٨).

٧٧-تفسير الطبري (٢٢/٢٥٧).

٧٨-تفسير البغوي(٧/٣٢٣).

شبكة الألوكة www.alukah.net

والإخبار عن المغيبات المستقبلية أكثر من أن يحصيه بحث أو مقال، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. (٧٩) والحمد لله على كل حال.

أما عن أُصول المغيبات في القرآن فإنها ترجع إلى ثلاثة أمور

الأمر الأول: الإخبار عن رب العزة تبارك وتعالى، وعن أسمائه الحسنى وصفاته العلى، والإخبار عن عالم الملائكة وعالم الجن وعالم البرزخ،

والإخبار عن أمر المعاد وما يكون فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وثواب وعقاب، ومجازاة أهل الإيمان والإحسان بالإحسان، ومجازاة أهل الكفر والطغيان بالعذاب والجحيم والنكال، وقد ورد ذكر تلك الغيبيات بكثرة في القرآن ولاسيما في المكي منه، وتلك الغيبيات لا تعرف بالحسّ ولا تدرك بالعقل.

الأمر الثاني: الإخبار عن الأُمم السابقة وأحوالها، وعن أخبار أتباع الرسل، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، وعن صراع الرسل عليهم السلام مع أممهم، وبيان أحوال ومصير المعاندين منهم الذين جحدوا دين ربهم وكذبوا رسله الكرام عليهم السلام، وتلك الأمم قد خلت وهلكت عن بكرة أبيها وأصبحت نسيًا منسيًا، فلا ترى لها أثرًا ولا تُحِس لها خبرًا، فمساكنهم أبيدت، ومعالم مواطنهم محيت، فذكر الله تلك الغيبيات، كما ذكر من أخبارهم وقَص علينا من قصصهم في محكم كتابه الكريم، ولا يمكن لأي عقل أن يدرك تلك الغيبيات إلا بالوحي المعجز المنزل من عند الله تبارك وتعالى.

الأمر الثالث: الإخبار عن بعض آيات الكونية وما يجري فيها من قضاء الله وقدره، وعن أخبار الساعة، وما سيحدث في الكون من مقدمات بين يد الساعة، كعلاماتها الكبرى التي ورد ذكر بعض منها في القرآن، وورد ذكر بعض منها في السنة.

وقد ثبت في كتاب الله تعالى أن للقيامة علامات وأمارات تتقدمها وتكون بين يديها، كما ثبت ذلك في السنة الصحيحة الثابتة عن المعصوم صلى الله عليه وسلم والتي استفاضت بأحاديث كثيرة والتي من أجمعها وأبرزها حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ(٨٠)، قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ – فَذَكَرَ – الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ

٧٩-يُنسب هذا المثل لـ"عقيل بن علفة"، يُنظر: مع الجواهر في الملح والنوادر(١/٤٦).، وقد سبق الإشارة إليه سابقًا.

٨٠- حذيفة بن أسيد الغفاري: صحابي شهد الحديبية، وقيل: إنه بايع تحت الشجرة، وشهد فتح دمشق . له أربعة أحاديث انفرد مسلم بحديثين، وعنه أبو الطفيل والشعبي، ترجمه ابن حجر في الإصابة (١: ٣١٧)، وله ترجمة في الثقات (٣: ٨١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ". (٨١)

والباحث لا يعلم نصوصًا صحيحة وصريحة في ترتيب تلك العلامات، وإنما يستفاد ترتيب بعضها من جملة ما ورد من نصوص.

وقد سئل شيخنا العلامة الفقيه ابن عثيمين رحمه الله تعالى: هل أشراط الساعة الكبرى تأتي بالترتيب؟ فأجاب:

"أشراط الساعة الكبرى بعضها مرتب ومعلوم، وبعضها غير مرتب ولا يعلم ترتيبه، فمما جاء مرتبًا نزول عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال فإن الدجال يبعث ثم ينزل عيسى بن مريم فيقتله ثم يخرج يأجوج ومأجوج. وقد رتب السفاريني رحمه الله في عقيدته هذه الأشراط، لكن بعض هذا الترتيب تطمئن إليه النفس، وبعضها ليس كذلك، والترتيب لا يهمنا، وإنما يهمنا أن للساعة علامات عظيمة إذا وقعت فإن الساعة تكون قد قربت، وقد جعل الله للساعة أشراطًا؛ لأنها حدث هام يحتاج الناس إلى تنبيههم لقرب حدوثه ". (٨٢)

والإخبار عن المغيبات، أو الإعجاز الغيبي، هو أحد وجوه الإعجاز القرآني، وهو من أبرزها وأشهرها وأهمها، والإخبار عن المغيبات من الأمور التي يستحيل للعقول إدراكها أو التنبؤ بها، أو الاطلاع على شيء منها، أو التخمين فيها بما يسمى بالحسابات المادية، أو بإعمال الفكر أو العقل فيها، لأن هذه الأمور لا يمكن إدراكها بالعقل، ولا يمكن أبدًا إدراكها إلا بالوحي، وبالوحي وحده.

وقد عدّ علماء الإعجاز الغيبي في كتاب الله تعالى هو أحد وأهم وجوه الإعجاز، فأطالوا البحث والتنقيب عنه وإبرازه وبيانه وشرحه وإيضاحه، وممن أطال البحث فيه من المتقدمين وأجاد وأفاد:

١-الخطابي: وهو: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الشافعي المعروف بالخطابي: (ت: ٣٣٨) في كتابه: بيان إعجاز القرآن.

٢-الرماني المعتزلي: وهو: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت: ٣٨٤هـ) في كتابه: النكت في إعجاز القرآن.

٣-الباقلاني: وهو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: (ت: ٤٠٣هـ) في كتابه إعجاز القرآن. (٨٣)

٨١- صحيح مسلم - الفتن وأشراط الساعة (٢٩٠١)، سنن الترمذي - الفتن (٢١٨٣)،سنن أبي داود - الملاحم (٤٣١١)، مسند أحمد - أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين (٦/٤).

٨٢-مجموع فتاوى ابن عثيمين (٢/ ١٣٧).

٨٣ - يُنظر: د. عرفة بن طنطاوي، الذهب الإبريز في بيان خصائص الكتاب العزيز: (ص: ٩٧: ١٢٩).

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الثالث: الإعجاز التشريعي

إنَّ القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الذي تحدى الله الإنس والجن على أن يأتوا بمثله كما قال تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: ٨٨) فعجزوا كما عجز أهل الفصاحة والبيان من أهل اللغة واللسان أن يأتوا بمثله، فتحداهم أن يأتوا بعشر سورة من مثله مفتريات كما قال تعالى: (قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) (هود:١٣)، فعجزوا، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فقال سبحانه: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (يونس: ٣٨) فعجزوا كذلك.

والقرآن هو المعجزة الخالدة الباقية على مر الدهور والعصور، وإنَّ جوانبَ إعجازه لتجلُّ عن العد والحصر والوصف؛ فهو معجز في ظاهر أساليبه. وجلي في نظمه وتراكيبه، وواضح في مَعانيه وظاهر في مقاصده ومراميه، وقوي في حُججه وبَراهينه، وصادق في قصصه وأخباره ومحكم في حكمه وأحكامه، وكامل في تشريعاته، ومصلح في إرشاده ودلالاته وهداياته.

ومن أبرز أوجه إعجازه "الإعجاز التشريعي"، وقبل الخوض في بيان أهم وأبرز جوانبه لابد من بيان مفهومه ومعناه في اللغة والاصطلاح

أ- معنى التشريع في اللغة:

الشَّرع في اللغة: مصدر شَرَعَ بالتخفيف، والتَّشريع مصدر شرَّع بالتشديد، والشَّريعة في أصْل الاستعمال اللُّغوي: مَورد الماء الذي يُقصد للشُّرب، ثُم استعملها العربُ في الطريقة المستقيمة، وذلك من حيثُ إنَّ الماء سبيلُ الحياة والسلامة، ومثل ذلك أيضًا الطريقة المستقيمة، التي تهدي النُّفوس فتحييها.

قال الراغب: "الشَّرع: نَهجُ الطَّريق الواضح، يُقال: شرعت له طريقًا، والشَّرعُ مصدر، ثُم جُعِل اسمًا للطَّريقِ النَّهْجِ، فقيل له: شَرَعَ، وشَرْع وشَرِيعة، واستعير ذلك للطَّريقة الإلهيَّة"(٨٤)

ب- مفهوم التشريع اصطلاحًا

والتشريع مأخوذ من الشريعة: وهي ما شرعه الله تعالى لعباده من شرائع وأحكام الدين، ومنه قوله سبحانه:(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (الشورى: ١٣).

و**الشريعة هي:** الدين كله، الذي اصطفاه الله لعباده ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، وهو ما شرعه لهم وبينه لهم من الأوامر والنواهي والحلال والحرام، فمن اتبع شريعة الله فأحل حلاله وحرم حرامه فقد فاز، ومن خالف شريعة الله فقد تعرض لمقته وغضبه وعذابه وأليم عقابه.

قال الله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (الجاثية: ١٨).

٨٤- كتاب الشين، للراغب، (ص: ٢٥٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي–رحمه الله–:

الشَّريعة والشّرائع: ما شرع الله للعباد من أمر الدين، وأمرهم بالتمسك به من الصلاة والصوم والحج وشبهه، وهي الشِّرْعَةُ. (٨٥)

وقال ابن حزم–رحمه الله–:

الشريعة: هي ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم في الديانة، وعلى ألسنة الأنبياء عليهم السلام قبله، والحكم منها للناسخ.

وأصلها في اللغة: الموضع الذي يتمكن فيه ورود الماء للراكب، والشارب من النهر، قال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) (الشورى: ١٣) (٨٦)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ الشَّرِيعَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَصْلُحُ لَهُ فَهُوَ فِي الشَّرْعِ مِنْ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَأَحْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنَّا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (النساء: ٥٩) وَقَدْ أَوْجَبَ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ فِي آيٍ كَثِيرٍ مِنْ الْقُرْآنِ، وَحَرَّمَ مَعْصِيَتَهُ وَمَعْصِيَةَ رَسُولِهِ وَوَعَدَ بِرِضْوَانِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَجَنَّتِهِ عَلَى طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَأَوْعَدَ بِضِدِّ ذَلِكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ، فَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنْ عَالِمٍ أَوْ أَمِيرٍ أَوْ عَابِدٍ أَوْ مُعَامِلٍ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا هُوَ قَائِمٌ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ حُكْمٍ أَوْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ عِبَادَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَحَقِيقَةُ الشَّرِيعَةِ: اتِّبَاعُ الرُّسُلِ وَالدُّخُولُ تَحْتَ طَاعَتِهِمْ كَمَا أَنَّ الْخُرُوجَ عَنْهَا خُرُوجٌ عَنْ طَاعَةِ الرُّسُلِ وَطَاعَةُ الرُّسُلِ هِيَ دِينُ اللَّهِ. (٨٧)

وقال علماء اللجنة الدائمة للإفتاء:

الشريعة: هي ما أنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله إلى الناس، ليقوموا به على وجه التعبد به لله، وابتغاء القربى إليه به، وفق ما أمرتهم به رسلهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والطريقة المعتبرة السائرة وفق هذا، أي: وفق منهاج الله الذي أنزله على خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (الأنعام من آية: ١٥٢)، ووفق قوله صلى الله عليه وسلم: (وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن

---

٨٥ – العين (١/ ٢٥٣)، وينظر: الصحاح للجوهري (٣/ ١٢٣٦).

٨٦ –الإحكام (١/ ٤٦).

٨٧– مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٠٩).

شبكة الألوكة www.alukah.net

هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي) ([٨٨]) فهي داخلة في الشريعة أما الطريقة المخالفة لهذا؛ كالطرق الصوفية، والتيجانية، والنقشبندية، والقادرية، وغيرها، فهي طرق مبتدع، لا يجوز إقرارها، ولا السير فيها إلى الله سبحانه. ([٨٩])

ويمكن أن يُقال كذلك أن الشريعة:

هي الأحكام التي سنها الله تعالى لعباده وشرعها لهم في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من العقائد الدينية والأحكام الشرعية والتي تشمل العبادات، والمعاملات والأخلاق، وغير مما يربط علاقة المخلوقين بخالقهم وينظم لهم سبل الحياة المستقيمة الطيبة التي بها سعادتهم وصلاح شأنهم في الحال والمأل وفي العاجل والآجل، ومن ذلك قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (المائدة: ٣).

وشريعة الله هي:

دينه القويم ومنهجه المستقيم، وهو فطرته التي فطر الله الناس عليها، والتي يحفظ بها البشرية من الزيغ والضلال ويجنبها سبل الغواية وشر الشيطان ونزغاته، ولذا كانت الغاية العظمى من تحقيق عبودية الخلق لخالقهم هو تأهيلهم لكرامته ونيل فضله ورحمته، وبذلك تتحقق لهم السعادة في الدنيا بلزوم أمره والتمسك بدينه وشرعته، وفي الآخرة بدخول جنته.

مفهوم الإعجاز التشريعي في القرآن:

لقد أنزل الله القرآن وفصل في كل ما يصلح حال البشرية في معاشها ومعادها، وما ترك الله فيه شيئًا مما فيه قوام حياتهم وتنظيم علاقتهم التي تنظم حياتهم جميعًا أفرادًا وشعوبًا، بينها لهم على أكمل الوجوه، قال ربنا: (مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) (الأنعام: ٣٨)، فبين لهم ما يجب عليهم تجاه ربهم وخالقهم من وجوب تحقيق العبودية باجتناب الشرك ولزوم التوحيد الذي هو حق الله على جميع العبيد، وأمرهم بلزومه طاعته واجتناب معصيته، كما حذرهم من كل أسباب سخطه، وأمرهم بطاعة رسله الكرام عليه السلام أجمعين، والاستسلام والانقياد لما جاءوا به من عند الله تعالى، وشرع لهم أحكامًا تكفل لهم سعادة الدارين، ونظم لهم كل ما يحتاجه الفرد والجماعة في المجتمع المسلم وأسس لهم قواعد بنيان الأسرة المسلمة وتشريعاتها وما تحتاجه من أحكام لقوام حياتها، ووفى لهم فيه بكل احتياجاتهم فيه عبر الزمان والمكان، أما القوانين الأرضية الوضعية فقد أظهرت عجزها وأعلنت إفلاسها وأثبت قصورها عن مسايرة إصلاح أوضاع مجتمعاتها وسد ثغرات احتاجتها التي تجدد بين الفينة والفينة.

فهل تستطيع البشرية كلها قاطبة ومجتمعة أن تأتي بتشريع مثل تشريع بارئها وفاطرها. فإثبات عجزها عن الإتيان بِمثل تشريعات وتنظيمات علاقة الفرد والجماعة وما وضع الله فيه من أحكام محكمة تشمل كل ما شرعه الله تعالى

٨٨-حسنه الألباني في صحيح الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما برقم: (٢٦٤١).

٨٩-فتاوى اللجنة الدائمة (٢/٢١٩)، وينظر الإسلام موقع: سؤال وجواب، إجابة عن سؤال رقم(٢١٠٧٤٢)، بتاريخ: ٢٠١٤/٥/٣م..

شبكة الألوكة www.alukah.net

لعباده وبما يتَعلَّق بالفرد والأُسْرة والمجتمع المسلم في كل مجالات الحياة، فهل يستطع أي تشريع بشري أن يفي بأحكام فيها من القوة والإحكام ما شرعه الله لعباده في كتابه من تشريعات محكمة وعادلة ووافية، وما جعل فيها من أحكام ومبادئ وتشريعات كلها عدل ورحمة مع ما تفي به من مقومات الحياة السعيدة المطمئنة.

هذا هو مفهوم الإعجاز التشريع باختصار.

المُرادُ من الإعجاز التَّشريعي في القرآن

والمرادُ من الإعجاز التَّشريعي هو إثْبات نبوته النبي الله عليه وسلم وتصدْيقه في البلاغ عن الله تعالى، وأن القرآن كلام الله حقًا ووحيه الذي أوحاه لنبيه صدقًا، وليس المراد هو إثبات الإعجاز فحسب كما قال ربنا: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ(49) (العنكبوت: ٤٨-٤٩).

وكما قال ربنا: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (الشورى: ٥٢)

أبرز وجوه الإعجاز التشريعي في القرآن:

لا يمكن الإحاطة بجوانب الإعجاز التشريعي وبيان معالمه وضوابطه وأصوله كلها، ولكن فقط نشير إلى أبرز تلك المعالم والأصول، وذلك لعظم هذا الشأن وجلالة قدره ولا يحيط به إلا من تكلم به وأنزله سبحانه.

ولذا سنشير إلى أبرز تلك الجوانب التي تناول أهل العلم بيانها جملة وبشيء من الإيضاح مع بيان مبهمها وتفصيل مجملها، وبإيجاز نجمل بيان ذلك فيما يلي:

أ- شمولية أحكامه بحيث تستغرق جميع جوانب الحياة والتي من أبرزها ما يلي:

١- في جانب تنظيم العلاقة بين الراعي والرعية

حيث أمر الله بطاعة الولاة في المعروف وبين لهم أن المرجع عند التنازع هو حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء: ٥٩)، كما أمرهم بالتشاور بينهم لما في ذلك من جمع الكلمة وتأليف القلوب ووحدة الجماعة المسلمة فقال سبحانه: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) (آل عمران: من آية ١٥٩).

٢- في مجال الحكم بين العباد بالقسط وإرساء قواعد العدل في المجتمع

قال تعالى: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة:٤٢)

٣- في مجال المعاملات المادية وإثبات ضمان حقوق العباد فيما بينهم

قال تعالى في أطول آية في محكم كتابه: (يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ اِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ.....) (البقرة: من الآية ٢٨٢) وتأمل الآية إلى نهايتها، ثم تأمل تاليتها في قوله سبحانه: (وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا

شبكة الألوكة www.alukah.net

كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)(البقرة: آية: ٢٨٣) ومثلها كثير في القرآن.

٤- في جانب الكسب أحل البيع وحرم الربا كما قال تعالى: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) (البقرة: ٢٧٥)

ولم يجعل المال محسورًا بين الأغنياء ولا يصل إلى الفقراء قال تعالى: (مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ) (الحشر: من آية٧) أي حتى لا يتداوله الأغنياء ولا يناله الفقراء.

وجعل للفقير حق في مال الغني فقال تعالى: (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات: ١٩)، ولذا فرض الزكاة في أموال الأغنياء لتُرد إلى الفقراء والمساكين ومن في نحوهم فقال تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٦٠)

٥- في جانب إرساء قواعد الوفاء بالعقود والعهود

ففي الوفاء بالعقود قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) (المائدة: من آية ١)، وفي الوفاء بالعهود قال تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) (النحل: ٩١)

٦- في مجال حفظ قوام الأسرة المسلمة

فقد بين الله تعالى في القرآن كل ما يتعلق بالأسرة من أحكام وهو ما يسمى بالمعنى المعاصر بـ " قانون الأحوال الشخصية "، فبين أهداف تكوينها كما بين مراحل هذا التكوين والسبل المؤدية لسعادتها واستقرارها.

فبين كل ما يتصل بذلك وما يتعلق به من أحكام، كأحكام النكاح وعقوده، والنفقة والحضانة والطلاق والظهار واللعان والخلع والإيلاء والرجعة والعدة والرضاع وقواعد حقوق القرابة والمواريث وما يتعلق بذلك كله، وتوسع في أحكامها وجعلها مرنة قابلة لاجتهاد العلماء والفقهاء وأهل الاستنباط للأحكام بما يوافق الزمان والمكان، ولك أن تتأمل ذلك كله في مواضع شتى من كتاب الله تعالى،

في النكاح: قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم:٢١)

وفي الطلاق وأحكامه: قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) (الطلاق:١) ولك أن تتأمل ما تلاها من آيات ليكتمل أمام ناظريك عناية الله بعباده ولطفه بهم حتى في قضايا الطلاق وما يتعلق به من أحكام، ولا شك أن هذا من أعظم الدلائل على كمال الشريعة من كل وجه، كما أنه من أعظم البراهين الدالة على كمال الجانب الإعجازي التشريعي في كتاب الله تعالى.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي حقوق الأولاد: قال تعالى: (... وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...) (البقرة: ٢٣٣)

وفي تقسيم المواريث: قال تعالى: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ) فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ـ ابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) (النساء: ١١)

٧-الجانب الجنائي:

والجانب الجنائي يُعد من أعظم البراهين الدالة على عظم شأن التشريع الذي حكم الله فيه بين عباده وأنزله شرعة محكمة في كتابه، وهو سبحان أعلم بما يصلح شأن عباده كما قال سبحانه: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك:١٤).

وقد بين الله أنواع الجرائم في كتابه وبين حرمتها وحذر من اقترافها بل حذر كذلك من اقترابها، ولما شرع في حق مرتكبها عقوبة بنى تلك العقوبة على أساس من العدل والمساواة والرحمة وجعلها زاجرة ورادعة لمرتكبها، وتحذيرًا وتخويفًا وتهديدًا لكل من تسول له نفسه بالاقتراب منها أو اقترافها كما قال ربنا: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:١٧٩)، وفي ذلك كله حفاظًا على أمن الفرد والجماعة المسلمة، وإرساء لقواعد الأمن والسلامة ليعيش المجتمع المسلم الحياة الطيبة الهنيئة المطمئنة.

٨- جانب تحقيق مصالح العباد وسلامة المُجتمع:

ومن أجل تحقيق هذا المطلب العظيم الذي به قوام المجتمع المسلم وسلامته من الآفات والمهلكات تقرر في التشريع القرآني الحفاظَ على الكليَّات أو الضرورات الخمس والتي هي:

١-حفظ الدين

٢-حفظ النفس

٣- حفظ النسل(العرض)

٤- حفظ العقل

٥- حفظ المال

ثم حفاظًا على هذه الضرورات الخمس وحماية لجنابها شرع في حق من اقترفها حدًا رادعًا وعقوبة زاجرة لكل من اقترفها، وتحذيرًا وتخويفًا وتهديدًا لمن تسول نفسه بالاقتراب منها أو اقترافها كما مر معنا بيان ذلك في بيان الجانب الجنائي.

شبكة الألوكة www.alukah.net

قال الشاطبي:

"قد اتفقت الأمة؛ بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس وهي: الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري". (٩٠)

وقال الغزالي:

"ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم؛ فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ورفعها مصلحة.

وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح". (٩١)

ولقد توافرت دلالات الكتاب العزيز على وجوب حفظ هذه الضروريات الخمس، وقد وردت في كتاب الله تعالى آيات كثيرة مجتمعة ومتفرقة تحفظ تلك الكليات وتصون تلك الضرورات من جانب الوجود ومن جانب العدم.، ومن أمثلة الآيات التي وردت مجتمعة في ذلك من كتاب الله ما يلي:

١- قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الأنعام: ١٥١- ١٥٣].

ففي هذه الآيات الكريمات السابقات تظهر العناية بحفظ هذه الضرورات ظهورًا جليًا واضحًا.

أ-فقد جاء حفظ الدين في النهي عن الشرك في قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)[الأنعام: ١٥١]

ب-وجاء حفظ النفس في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلَدَكُمْ مّنْ إمْلاق) [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالى:(وَلاَ تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاّ بِٱلْحَقّ) [الأنعام: ١٥١]

ج-وجاء حفظ النسل: في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ ٱلْفواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) [الأنعام: ١٥١]

د- وجاء حفظ المال: في قوله تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) [الأنعام: ١٥٢]

٩٠- الموافقات (٨٣/١) ، وانظر بالتفصيل: (مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية) للدكتور: محمد سعد اليوبي ص(١٨٣) وما بعدها

٩١- المستصفى (٤٨٢/٢) .ويُنظر: محاسن الإسلام من خلال حفظه للضروريات الخمس، مقال من موقع المنبر.

شبكة الألوكة www.alukah.net

هـ – وأما حفظ العقل: فإنه يؤخذ من مجموع التكليف بحفظ الضرورات الأخرى؛ لأن الذي يفسد عقله لا يمكن أن يقوم بحفظ تلك الضرورات كما أمر الله، ولعل في ختام الآية الأولى: (ذلِكُمْ وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الأنعام: ١٥١] ما يدل على ذلك. (٩٢)

٢– وقوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) [الإسراء: ٢٣– ٣٦].

وجاء حفظ تلك الضرورات الخمس في آيات سورة الإسراء على النحو التالي:

أ– جاء ما يدل على حفظ الدين: في قوله سبحانه: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ). [الإسراء: ٢٣].

ب– وجاء حفظ المال: في قوله تعالى: (وَءاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا). [الإسراء: ٢٦] وفي قوله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [الإسراء: ٣٤] وقوله تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) [الإسراء: ٣٥]

ج– وجاء حفظ النفس: في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ) [الإسراء: ٣١]

وقوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِٱلْحَقّ) [الإسراء: ٣٣]

د– وجاء حفظ النسل: في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً) [الإسراء: ٣٢]، والزنا من أعظم الفواحش ويكفي وصف الله له بأنه فاحشة.

د– وأما حفظ العقل: فقد سبق بيانه إثر الدليل السابق، فهذه الآيات نصوص محكمة تدل على عناية الشريعة بهذه الضروريات، وأن حفظها هو مقصد الشارع الحكيم من شريعته.

٩٢– الإسلام وضرورات الحياة (ص ١٦– ١٧) . ويُنظر، محاسن الإسلام من خلال حفظه للضروريات الخمس، مقال من موقع المنبر

شبكة الألوكة www.alukah.net

٣- وقوله تعالى: {يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[الممتحنة: ١٢]

أ- جاء حفظ الدين: في قوله تعالى:(لا يشركن بالله)

ب- وجاء حفظ النفس: في قوله تعالى:(ولا يقتلن أولادهن)

ج- وجاء حفظ النسل: في قوله تعالى:(ولا يزنين)

د - وجاء حفظ المال: في قوله تعالى:(ولا يسرقن)

.هـ- وجاء حفظ العقل: على نحو ما ذُكر في الدليلين السابقين من آيات الأنعام، والإسراء

ونضيف إلي ما سبق بيانه أيضًا أنَّ من يقوم بما دلت عليه تلك الآيات فهذا دلالة رجحان عقله، ومن فعل خلاف ما أرشدت إليه فهذا دلالة على فساد عقله.

وكما أن حفظ الكليات أو الضرورات الخمس ورد في القرآن جملة في مواضع عديدة من كتاب الله تعالى، فإنه قد ورد كذلك كثيرًا مفردًا في مواضع شتى من كتاب الله، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عظم شأن هذه الضرورات وأن حياة البشر لا يمكن أن تقوم وتستقيم إلا بها، ونسوق منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ما يلي:

١- حفظ الدين:

لقد قرَّر الإمام الشاطبي – رحمه الله– أنَّ حفظ الدين يقوم على جانبين

الأول: حفظ الدين من جانب الوجود، وذلك بالمحافظة على ما يقيم أركانه ويثبت قواعده.

الثاني: حفظ الدين من جانب العدم، وذلك برفع الفساد الواقع أو دفع الفساد المتوقع". (٩٣)

أما عن حفظ الدين من جانب الوجود(الطلب):

فقد بين الله في كتابه أن الدين الحق الذي لا يرتضي دينًا سواه هو الإسلام كما قال سبحانه: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران: ٨٥].

وبيَّن لعباده أنه قد أكمل لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، وأنه لا يحق لأحد من خلقه أن يزيد فيه ولا أن ينقص منه فقال سبحانه: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا... (٣)﴾[سورة المائدة].

وفي جانب الوجود قال تعالى :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

٩٣- الموافقات، الشاطبي: (٢ / ١٨) تحقيق: مشهور حسن آل سلمان.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما عن حفظ الدين من جانب العدم(المنع):

فقد جاءت الأوامر بحفظ الدين من جانب العدم في كتاب الله في مواطن عدة، ومنها ما ورد في النهي عن كل ما يخل بجناب التوحيد ويوقع في الشرك، قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) الآية [الأنعام ١٥١]،

فشرع الله لعباده الجهاد في سبيله لحماية التوحيد وإقامة الدين، وحتى تزول فتنة الشرك والكفر التي في زوالها إبقاء للدين، قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ) [الأنفال: ٣٩].

ولقد جمع الله حفظ جانبي الوجود والعدم جميعًا في آية واحدة:

فقال سبحانه: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (النحل: ٣٦).

٢- حفظ النفس:

وكذلك حفظ النفس، حفظها الله تعالى في كتابه من جهة الوجود ومن جهة العدم

فأما عن حفظها من جانب الوجود: فقال تعالى: (وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ) (النساء: ٢٩)

وأما عن حفظها من جانب العدم: فقال تعالى﴿... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِي الاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنَ اَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا... (٣٢)﴾ [سورة المائدة].

٣- حفظ النسل(العرض):

وكذلك حفظ النسل، حفظه من جانب الوجود ومن جانب العدم،

أما عن حفظ النسل من جانب الوجود: فقد رغب في النكاح فقال سبحانه: (وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ][النور: ٣٢].

أما عن حفظ النسل من جانب العدم: فقد حرم قربان الفواحش فقال سبحانه: ﴿... وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ... (١٥١)﴾ [سورة المائدة].

وحرم كذلك قربان الزنا بتحريم كل الطرق والسبل المؤدية إليه بداية بالنظر الحرام ومرورًا بمصافحة الأجنبية والخلوة بها إليه فقال سبحانه: (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى) (الإسراء: ٣٢).

وشرع حد الزنا حماية للعرض وصيانة للنسل وحفظًا له وإبقاء عليه في حدود ما أباحه من النكاح والتسري فقال سبحانه: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) (النور: ٢)، كما شرع لحمايته كذلك حد القذف.

٤-حفظ العقل: حفظه من جانب الوجود ومن جانب العدم،

إن العقل نعمة عظيمة من أجل نعم الله التي أنعم بها على خلقه، التي تميز بها الإنسان عن الحيوان الأعجم، وبها تحفظ عليه كرامته، وبها يميّز النافع من الضارِّ والحسن من القبيح، وبها يميز سبل الهدى والرشاد من سبل الغواية والضلال،

شبكة الألوكة www.alukah.net

وعليها يدور مدار التكاليف الشرعية التي يترتب عليها المساءلة والمحاسبة والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فجاءت الشريعة بحفظها تلك النعمة والمحافظة عليها وتحريم كلَّ ما يذهبها أو يُخلُّ بوظائفها؛ من خَمْر ومُسْكر، ومُفَتِّر ومُخَدِّر، فحذر منها ورتب على من تجاوز حدود الله فيها بتعاطيها حد الجلد، وحفظها من جانب الوجود والعدم.

فأما عن حفظ العقل من جانب الوجود:

فقد حثَّ الله تعالى عباده طلب العلم ورغبه فيه بقوله سبحانه: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5) } [العلق: ١–٥]، ولا تتم هذا النعمة العظيمة لمخلوق إلا بالإدراك بواسطة العقل الذي هو مناط التكليف، والآيات التي تخاطب العقل في القرآن أكثر من أن تُحصى كثرة وعددًا، وتنوعًا في الخطاب والأسلوب، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: {وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الروم: ٢٤].

وأما عن حفظ العقل من جانب العدم:

فقد حرم الخمر كما حرم المسكرات والمخدرات بكل أنواعها، وقد الله أمر الله عباده باجتنابها ووصفها في كتابه بأشنع وصف تحقيرًا لها ولشأنها، وتنفيرًا لعباده من اقترافها فقال سبحانه: ﴿ يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالاَنصَابُ وَالاَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠)﴾[سورة المائدة].

ثم أعقب تلك الآية ببيان بعض الآثار السيئة المترتبة على تعاطيها، وأنها من أعظم الأسباب الجالبة والموقعة للعداوة والبغضاء فيما بينهم، فبيَّن تعالى أنَّ الخمر لها تأثير سيء على متعاطيها، وأنها من أعظم جلب العداوة والبغضاء التي تقع بينهم، فمن غاب عقله بتعاطيها، فإنَّه لا غرابة في أن يعتدي على عباد الله، ولا غرابة في أنها تقوده وتوقعه في الموبقات كلها، لما لا وهي أم الخبائث.

قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [المائدة:٩١].

٥–حفظ المال: حفظه من جانب الوجود ومن جانب العدم

فأما حفظه من جانب الوجود:

فقد حث على السعي في طلب الرزق من وجوهه المشروعة، فأباح للعباد المعاملات التي يحتاجون إليها في صلاح معاشهم، فأباح لهم أنواعًا شتى من العقود كالبيع والإجارة والرهن والشركة والمساقاة والمزارعة وغيرها ورغبهم في طلب الرزق الحلال وفتح لهم أبواب طلبه بيعًا وشراءً وتجارة، قال تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } (الملك:١٥)،

شبكة الألوكة www.alukah.net

قال ابن كثير:

" أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئًا إلا أن ييسره الله لكم". (٩٤).

وأمر الله عباده بكتابة الدين والإشهاد عليه حفظًا على حقوقهم المالية فيما بينهم، قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ} إلى قوله سبحانه {وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ} [البقرة:٢٨٢].

وأما حفظه من جانب العدم: فحرم الربا وحرم الخيانة والغش بأنواعه والتعدي على أموال الناس بكل صوره، وحرم أكلها بالباطل وذم التبذير ونهى عنه، كما حرم السرقة وحد لحفظ المال حد السرقة.

ففي النهي أكل الأموال بالباطل قال تعالى: (وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ اَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨) [سورة البقرة].

وفي ذم التبذير قال تعالى: (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(27)) (الإسراء: ٢٦-٢٧) فذمه وعابه ووصفه بأسوأ وصف تنفيرًا لعباده منه.

وفي عقوبة السرقة أوجب حد القطع ليحفظ على العباد أموالهم التي بها قوام معيشتهم، وليزجر به كل من تسول نفسه التعدي على أموال الناس بالسرقة فقال سبحانه:(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٣٩)﴾[سورة المائدة].

وأخيرًا:

فإن خصائص القرآن أكثر وأجل وأعظم أن يحيط بها بحث أو مقال، وإنما كان تناول هذا البحث عن أبين وأهم خصائص القرآن.

ولعل في هذا كفاية والحمد لله رب العالمين.

٩٤- تفسير ابن كثير ٤/٤٢٤

شبكة الألوكة www.alukah.net

المبحث الثالث:

الاعجاز الذي وقع به التحدي في القرآن جملة وتفصيلًا هو الإعجاز اللغوي البياني.

وفيه ستة مطالب:

تمهيد:

لما بعث الله تعالى رسوله محمدًا-صلى الله عليه وسلم- أرسله بحجة دامغة تؤيد دعواه وصدقه في إثبات نبونه ورسالته وكانت تلك الحجة هي القرآن الكريم، فلم أنكر المشركون الرسالة وجحدوها وكذبوا المرسَلَ وقع التحدي بمراحله، فدعاهم الله إلي التحدّي مجتمعين متّحدين على أن يأتوا بمثله فعجزوا، فوسّع الله عليهم دائرة التحدّي وأخبرهم أنهم لن يستطيعوا ذلك أبدًا لا في الحال ولا في المآل، وبذلك يكون التحدي باقيًا وقائمًا إلى آخر الزمان حين يرفع القرآن فلا يبقى منه شيء مكتوب في السطور ولا محفوظ في الصدور.

والقرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. (٩٥)، ومعنى "وإليه يعود" أي: يسرى به حتى لا يبقى في السطور منه حرف ولا في الصدور منه آية،، وهذا المعنى معروف ومشتهر في أقوال السلف، وقد استفاضت الآثار عنهم بذلك، وهذا مصداق ما أخرج ابن ماجه من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعًا: " يدرس الإسلام حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، ويسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية". (٩٦)

وفي نحو ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-:

" فإنه يسرى به فى آخر الزمان من المصاحف والصدور فلا يبقى فى الصدور منه كلمة، ولا فى المصاحف منه حرف". (٩٧)

وفي بيان وَجْهُ التَّحَدِّي فِي الْقُرْآنِ يقول ابْنُ عَطِيَّةَ الأندلسي- رحمه الله-:

" وَجْهُ التَّحَدِّي فِي الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ بِنَظْمِهِ وَصِحَّةِ مَعَانِيهِ، وَتَوَالِي فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ. وَوَجْهُ إِعْجَازِهِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحَاطَ بِالْكَلَامِ كُلِّهِ عِلْمًا، فَعَلِمَ بِإِحَاطَتِهِ أَيَّ لَفْظَةٍ تَصْلُحُ أَنْ تَلِيَ الْأُولَى، وَتُبَيِّنَ الْمَعْنَى بَعْدَ الْمَعْنَى، ثُمَّ كَذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ". (٩٨)

٩٥- يُنظر: لوامع الأنوار البهية للإمام السفاريني: (ص: ١٣٤).

٩٦- أخرجه ابن ماجه: (٤٠٤٩)، الحاكم: (٤/٤٧٣-٤٥٣)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٧٨).

٩٧- مجموع الفتاوى: (٣ / ١٩٨)

٩٨- يُنظر: (١/٤٤). بتصرف يسير.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الأول: مفهوم التحدي في اللغة والاصطلاح:

أ- مفهوم التحدي في اللغة:

التحدي لغةً بمعنى المباراة والمبارزة.

و " تحديت فلانًا إذا باريْتَه في فعل ونازَعْتَه الغلبة"،.... وهي الحديّا ". (٩٩)

قال عمرو بن كلثوم في معلقته متحديًا الناس جميعًا بمجد قومه وشرفهم:

حُدَيّا الناسِ كلِّهِمِ جَميعا *** مُقارَعَةً بَنِيهِمْ عن بَنِينا. (١٠٠)

ب- مفهوم التحدي في الاصطلاح:

التحدي اصطلاحًا يتصل اتصالاً وثيقًا بالمعنى اللغوي فهو طلب الإتيان بالمثل على سبيل المنازعة والغلبة ويتحدد المثل تبعا لما يتحدى به. فالتحدي بالقرآن طلب الإتيان بمثله. (١٠١)

المطلب الثاني: التحدي بالقرآن تعريضًا

المعجزة من الفعل أعجز وهو فعل مزيد بالهمزة وأكسبته الزيادة التعدي إلى مفعول به، فأصبح الإعجاز واقعًا على فرد أو أفراد أو غير ذلك، فعندما تستخدم الكلمة في سياق إعجاز القرآن وقعت على الجن والإنس كافة، ولعل آيات التحدي هي التي رسخت قضية الإعجاز التي ناقشها المكذبون ربما قبل أن يرد التعرض لها في القرآن تعرضًا، في قوله تعالى: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)) (المدثر:١٨- ٢٥)، وقد نزلت في الوليد بن المغيرة.

فإن الركون في الكلام المذكور هنا إلى تصنيف القرآن الكريم في إطار السحر لهو اعتراف صريح بخروجه على المألوف من كلام البشر، ولعل هذا هو الذي دعاه إلى تأكيد الزعم بأنه من كلام البشر، نذكر هذا للائتناس بهذا القول المذكور الذي يحاول صاحبه تفنيد الخصوصية والتفوق والرقي والسمو الذي لمسوه واقعًا فعليًا في النص القرآني، ولكننا ننبه أيضًا إلى أننا لا نقبل بحال ما ذهب إليه بعض المفكرين المحدثين من أن الفهم السائد للإعجاز قبل المعتزلة كان " استمرارًا لما كان سائدًا من قبل، أي منذ وصفت قريش القرآن بأنه سحر يؤثر". (١٠٢)، فلم يكن هذا هو تلقي من آمنوا بالقرآن، ولكنه كان تصنيف من ترددوا في تصنيفه لأنه غير متوافق مع أي استعمال لغوي عرفوه.

٩٩- ابن منظور-لسان العرب، مادة حدا- (١٦٨).

١٠٠ - شرح المعلقات السبع- الزوزني- ص: ١٧٧- نقلاً عن: التحدي بالقرآن الكريم-د. محسن الخالدي-ص:٣

١٠١- المرجع السابق-ص: ٣

١٠٢- د. محمد عبد الجابري: مدخل إلى القرآن الكريم ، ط١ مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ٢٠٠٦م ص ١٨٥

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الثالث: التحدي بالقرآن تصريحًا

وقد ظهرت قضية الإعجاز في آيات التحدي، وقد اعتاد المفسرون ومؤلفو كتب علوم القرآن الإشارة إلى تعدد مستويات التحدي بالقرآن الكريم، وطيب لهم دائمًا الإشارة إلى تدرج التحدي من التحدي بأن يأتوا بمثل القرآن، إلى التحدي بأن يأتوا بعشر سور من مثله، إلى التحدي بأن يأتوا بسورة واحدة، مستشهدين في ذلك بآية سورة الإسراء ثم آية سورة هود ثم آية سورة البقرة، فهذه الآيات الثلاث يتحقق بها الترتيب التنازلي وفق ترتيب النزول، والحقيقة أن هذه المستويات متداخلة في ترتيب نزولها؛ ذلك لأن آيات التحدي وفق ما ذهبوا إليه لا تقتصر على هذه الآيات الثلاث، بل هناك آيتا سورة الطور وسورة يونس، وإذا نظرنا رؤية استقرائية شاملة للآيات الخمس وجدنا أن التدرج من الأعلى إلى الأدنى ليس تدرجًا صارمًا لا تداخل فيه، الأمر الذي جعل بعض المتعرضين لآيات التحدي من المسلمين يتغاضون عن الإشارة إلى بعض الآيات التي ربما توهم بشيء من عدم الاطراد في الترتيب التنازلي في التحدي من الأعلى إلى الأدنى، فذكر آيات سور: الإسراء للتدليل على التحدي بالقرآن كله، ثم ذكر آية سورة هود للتدليل على المستوى الثاني التحدي بعشر سور، ثم ذكر آية سورة البقرة التي جاء فيها التحدي بسورة واحدة، وهو المستوى الثالث (١٠٣)، ولعل الذي دفع إلى هذا هو حساسية التعرض للتداخل في ترتيب النزول بين آيات التحدي، ولكن الحقيقة أن هذه رؤية عقل بشري قد تخطئ وقد تصيب، فلعل فكرة الترتيب التنازلي قد راقت لهم، ثم لعلها قادتهم إلى التغاضي عن الاستقصاء أو إلى التغاضي عن الإشارة إلى التداخل بين هذه المستويات.

وهذا الأمر نفسه جعل بعض المعترضين المتشككين يتغاضون ـ بدورهم ـ عن الاستقصاء في استقراء ترتيب النزول للسور التي جاءت فيها آيات التحدي، فانطلقوا بالمنحى الانتقائي المضاد للمنحى الانتقائي الأول، واكتفوا بذكر بعض آيات محاولين إثبات أن الترتيب جاء تصاعديًا وليس تنازليًا، أي بدأ بالتحدي بسورة ثم بعشر سور ثم بالقرآن كله، بل اختلقوا ترتيبًا ظنيًا لا نبرؤه من العَمْد، نتبين ذلك بالوقوف عند نموذج من العرض لبعض أصحاب هذا الاتجاه المضاد لآيات التحدي جاء فيه: أن آية سور الطور (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا) (الطور: ٣٤)

هي أول ما نزل من آيات التحدي، ثم رأى فيها إمكان أن يأتوا بحديث مثله مستندًا إلى أن إطلاق الحديث يترتب عليه إمكان أن يأتوا به؛ لأنه يتحقق في الآية والآيتين، ثم يخلص إلى أن " تحديهم بأن يأتوا بحديث مثله غير صحيح ولا مأمون فيه سوء العاقبة، فلذا عدل عنه محمد متدرجًا في التحدي إلى ما هو أعلى من ذلك، فجاء بالآية

الثانية: (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) (يونس: ٣٨)، ولم يقف عند هذا الحد حتى جعلها عشر سور، ثم ارتقى إلى ما يقتضيه التحدي الصحيح الذي يتعذر أو يستحيل عادة أن يجيبه إليه أحد، وهو تحديهم بأن يأتوا بمثل القرآن من

١٠٣-د. حلمي محمد القاعود : مدخل إلى البلاغة القرآنية ، ط١ دار النشر الدولي، الرياض ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م ص ١٦٧

شبكة الألوكة www.alukah.net

دون قيد بحديث أو سورة كما قال في الآية الأخرى (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ) (الإسراء: ٨٨)، وهذا هو التحدي الذي ترجع فيه المعارضة خائبة خاسرة بلا شك ولا ريب، ولذا نراه يتكلم بجراءة واطمئنان واثقًا بعجزهم عما يريد منهم، حتى أنه لم يتحد الإنس وحدهم بل جعل الجن لهم معاونين تهويلًا عليهم وتأكيدًا لعجزهم(١٠٤)

والغريب أن المتحدث هنا لم يهتم بالبحث في ترتيب النزول، ولا اهتم بالرجوع إلى المراجع التي تعرضت له، على الرغم من رجوعه إلى بعض هذه المراجع في كتابه المذكور ومنها كتاب الإتقان للسيوطي(١٠٥)،والبرهان للزركشي(١٠٦)

، ثم إن الغريب الغريب أيضًا أن العرض الذي عمد إلى ذكر ثلاث آيات فقط، وهي آيات:(الإسراء وهود والبقرة) متوافق، لا نقول مع ترتيب السيوطي، بل متوافق مع ترتيب المستشرقين، وذلك في الترتيب الذي قام به "نولدكة" وأخذ به "بلاشير" في ترجمته لمعاني القرآن(١٠٧).

ولعل في هذا مالا يحوجنا إلى رد أو مناقشة هذا الزعم، فهو محض هراء؛

لأن الحقيقة التي لا جدال فيها أن الإسراء نزلت أولًا ثم نزلت هود ثم نزلت البقرة، وهذا النزول يتحقق به الترتيب التنازلي في التحدي، وفقما ذهب إليه أصحاب الاتجاه الأول. ولكننا نود أن ندع هذا الاستقراء الناقص في الرؤيتين السابقتين لنعمد إلى تدبر ملمح آخر يتحدد في التداخل في ترتيب النزول بين آيات التحدي والترتيب التنازلي في التحدي نعتمد فيه على رؤية الآيات جميعها ونتجاوز الرؤية الانتقائية،

ولعلنا لسنا بحاجة إلى إيضاح أن المقصود بالترتيب التنازلي هو الترتيب المستند على الكم المتحدَّى به من الأكثر إلى الأقل، وهذا الترتيب التنازلي كما ذكرنا له ثلاثة مستويات:

المطلب الرابع: مستويات التحدي بالقرآن

المستوى الأول: التحدي بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقد جاء هذا المستوى في سورتي: الإسراء والطور.

المستوى الثاني: التحدي بأن يأتوا بعشر سور من مثله، وقد جاء في سورة هود.

المستوى الثالث: التحدي بأن يأتوا بسورة من مثله، وقد جاء في سورتي يونس والبقرة.

ووفقًا للترتيب التنازلي نرى تداخلًا في ترتيب النزول؛ لأن الترتيب التنازلي يقتضي أن يكون المستوى الأول هو الأسبق في زمن النزول، ثم يتلوه المستوى الثاني، ثم يتلوه المستوى الثالث، ولكن الحقيقة أن ترتيب النزول يقول غير ذلك، فترتيب النزول للسور السابق ذكرها في مستويات التحدي هي وفق ترتيب النزول: الإسراء ثم يونس ثم هود

---

١٠٤ – معروف الرصافي: الشخصية المحمدية ، أو حل اللغز المقدس ، ط١ منشورات الجمل ، ألمانيا ٢٠٠٢م، (ص:٦٠٧-٦٠٨).

١٠٥– السيوطي (جلال الدين) : الإتقان في علوم القرآن ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون تاريخ جـ ١ ص ١٥

١٠٦– الزركشي (بدر الدين) : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٧م

١٠٧ – بلاشير : ترجمة معاني القرآن ، صدر على ثلاثة أجزاء ١٩٤٧ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ م

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم الطور ثم البقرة. والله قد تحداهم في سورة يونس بسورة واحدة في قوله سبحانه: (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) (يونس: ٣٨)، وتحداهم بعشر سور في سورة هود بقوله سبحانه: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (هود:١٣)، والذي يظهر أن التحدي بسورة واحدة الذي في يونس متقدم نزولًا، وأن التحدي بعشر سور الذي في هود متأخر نزلًا فهي تلي يونس نزولاً وقبلهما الإسراء. فالترتيب الذي قال به بعض المفسرين وتبعهم عليه بعض الباحثين كذلك يفتقر إلى بينة واضحة وحجة داحضة.

والبعض الآخر من الباحثين وقف تجاه ترتيب نزول آيات التحدي موقف التقليد لمن سبق دون دليل واضح أو برهان ساطع. (١٠٨)

المطلب الخامس: إعجاز القرآن من أهم الأبحاث المتعلقة بالقرآن

إن مبحث إعجاز القرآن من أجل وأعظم وأشرف المباحث، وهو مبحث مشترك الأطراف بين الباحثين المتخصصين في علوم شتى، فلابد لعلماء العقيدة أن يبرزوا عظمة القرآن وأوجه إعجازه من جهة أنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه باطل ولا يطرأ عليه تغير ولا تبديل ولا تحريف، وأنه كلام الله حقيقة، وأن الله تعالى تكلم به بحرف وصوت، وأنه كامل من كل الوجوه، ومن تلك الوجوه وجه إعجازه.

وعلماء اللغة لابد أن يدلوا بدلوهم كذلك، فيبرزوا جوانب الإعجاز من جهة اللغة والبيان، فهم أهل اللسان وصناع البيان، والقرآن عربي وبلسان العربية نزل كما قال ربنا جل في علاه: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف: ٢).

وعلى العلماء المتخصصين في علوم القرآن تقع مسؤولية كبيرة في هذا الجانب لأن مبحث الإعجاز من أهم المباحث المتعلقة بعلوم القرآن.

على هؤلاء جميعًا مدارسة هذا المبحث الشريف الجليل وإبرازه في أحسن صورة وأبهى حلة إجلالًا لكلام الله وتعظيمًا لقدره ودفاعًا عنه وحماية وصيانة له.

"ولما كان القرآن المعجزة الخالدة الكبرى؛ كان الحديث عن إعجاز القرآن من أهم الأبحاث المتعلقة بالقرآن وآدابه وعلومه، وهو لبها وجوهرها، وأساسها وعمدتها، على أن الحديث عن الإعجاز ضرب من الإعجاز، لا يصل الباحث فيه إلى سرّ منه، حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سرّ إعجازها الزمن،

١٠٨- للدكتور عيد بلبع بحث قيم تحت عنوان آيات التحدي، منشور في موقع سياقات بتاريخ: ٤/٢ /٢٠٠٨ م، قد أفاد منه الباحث ونقل عنه هنا بعض النقولات بتصرف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

فهو كما يقول الرافعي:

وما أشبه القرآن الكريم- في تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه- بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهة وتعاوروه من كل ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثًا وتفتيشًا، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقًا(١٠٩) جديدًا، ومرامًا بعيدًا، وصعبًا شديدًا، وإنما بلغوا منه- إذ بلغوا- نزرا تهيأت لضعفه أسبابه، وقليلًا عرف لقلته حسابه، وبقي ما وراء ذلك من الأمر المتعذر الذي وقفت عنده الأعذار، والابتغاء المعجز الذي انحط عنده قدر الإنسان، لأنه مما سمت به الأقدار. (١١٠).

وصدق الله العظيم إذ يقول: (وإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت: ٤١-٤٢)". (١١١).

والقرآن هو المعجزة الخالدة التي أظهرها الله تعالى وأيد بها خاتم أنبيائه ورسله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تأييدًا له في دعواه وإثباتًا لنبوته وصدق رسالته، فقد ثبت عند البخاريّ منْ حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ". (١١٢)

وقوله:(وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيا أَوْحَى الله إِلَيَّ)،

" اختُلِفَ فيه على أقوال؛

أحدها: أن كل نبي أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء، فآمن به البشر، وأما معجزتي العظيمة الظاهرة فهي القرآن الذي لم يُعط أحد مثله، فلهذا قال أنا أكثرهم تابعًا..... "...

والثاني: معناه أن معجزات الأنبياء عليهم السلام انقرضت بانقراض أعصارهم، ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم، ومعجزة نبينا صلى الله عليه وسلم القرآن المستمر إلى يوم القيامة، مع خرق العادة في أسلوبه وبلاغته

١٠٩- ومقصود الرافعي رحمه الله من كلمة "خلقًا" يعني بها أنه متجدد العطاء فهو لا يبلي ولا يخلق عن كثرة الرد، وعلى العموم: فإن أهل السنة على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، ونحو ذلك، وعليه جرى التنبيه، حتى لا تفهم العبارة على غير ما وضعت له. الباحث.

١١٠-سئل شيخنا الفقيه العلامة ابن عثيمين رحمه الله تعالى: عن حكم قولهم: تدخل القدر؟ وتدخلت عناية الله ؟

فأجاب بقوله: تدخل القدر " لا تصلح لأنها تعني أن القدر اعتدى بالتدخل وأنه كالمتطفل على الأمر، مع أنه أي القدر هو الأصل فكيف يقال تدخل؟

والأصح أن يقال: ولكن نزل القضاء والقدر أو غلب القدر ونحو ذلك، ومثل ذلك " تدخلت عناية الله " الأولى إبدالها بكلمة حصلت عناية الله، أو اقتضت عناية الله .

المصدر: فتاوى فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين في العقيدة ٢-٢ ص١٤٦٩. انتهى

والأولى أن يُقال قدر الله كذا، وقضى الله كذا. الباحث.

١١١- إعجاز القرآن للرافعي: (ص: ١٥٧).

١١٢-أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، حديث (٤٩٨١). و مسلم –في كتاب الإيمان حديث (١٥٢).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وإخباره بالمغيبات، وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله، مجتمعين أو متفرقين، في جميع الأعصار مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصح القرون، مع غير ذلك من وجوه إعجازه المعروفة". (١١٣)

وهذا المعنى الأخير هو الأظهر

".... وهذا أقوى المحتملات وتكميله في الذي بعده، وقيل المعنى: أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزة القرآن، تُشاهد بالبصيرة فيكون من اتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا". (١١٤)

و " صدق بتلك الآيات لإعجازها لمن شاهدها، كقلب العصا حية، وفلق البحر لموسى عليه السلام، وكإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام، وكان الذي أعطيته أنا وحيًا أوحاه الله إليَّ فكان آية باقية دُعي إلى الإتيان بها أهل التعاطي له، ومن نزل بلسانهم، فعجزوا عنه، ثم بقي آية ماثلة للعقول إلى من يأتي إلى يوم القيامة، يرون إعجاز الناس عنه رأي العين والآيات التي أوتيها غيره من الأنبياء قبله رُئي إعجازهم في زمانهم، ثم لم تصحبهم مدة إلا حياتهم، وانقطعت بوفاتهم، وكان القرآن باقيًا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. (١١٥)

وقد تحدى الله تعالى الخلق قاطبة أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم ثانية بعدها أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا، ثم تحداهم ثالثة بعدها أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، ثم تحداهم رابعة بعدها أن يأتوا بحديث مثله فعجزوا. وترتيب التحدي هنا غير مقصود البتة، وقد مضى معنا الكلام بإيضاح وبيان حول تريب آيات التحدي.

والقرآن قد نزل على أمة أمية، إلا أن بضاعتها وحرفتها وصنعتها كانت في اللغة التي تتكلم بها، فكانوا هم أرباب الكلمة وأهل تذوقها، وهم أربابها وأصحابها, فلما بعث الله فيهم رسولًا منهم، وجعل معجزته فيما يتقنونه ويحذقون صناعته وسباكته، تحداهم في صناعتهم وحرفتهم تلك، وفيما برزوا فيه، وما فيما يدركون تمام الإدراك.

فجاءهم الله تعالى بكلامه، الذي هو أبلغ من أي كلام بليغ، وأفصح من أي كلام فصيح، ولا يرتقي لبلاغته أي بيان، ولا يستطيع النطق بمثله أفصح لسان، وهو يُتلى عليهم ليلًا ونهارًا، يسمعون آياته التي حوت البلاغة وفنونها، وحزت الفصاحة كلها.

فجاءهم بما لا قبل لهم بتكذيبه ولا إنكاره، ولا قدرة لهم الإتيان بمثله أو بعض منه، فقد أتاهم بكلام الله العظيم الذي لا يملكون إلا الإذعان والانقياد والتسليم إلى أنه:

(فصلت: ٤٢). لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

١١٣- شرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ٣٦٤).

١١٤-الفتح: (٩/ ٧).

١١٥- شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠/ ٣٣٠).

شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن أظهر أدلة إثبات نُبُوَّته صلَّى الله عليه وسلَّم، معجزة "القرآن"، ونبوته بُنِيَتْ على تلك المعجِزة، وهي مُعجِزة عامَّة لعموم الثَّقَلَيْن، وهي معجزة باقية بقاءَ الدهر، ولُزُوم الحجَّة بالقرآن باقية مِن أوَّل نزوله إلى قيام الساعة.

قال تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ) (التوبة:٦).

فلولا أنَّ سماع القرآن يُعَدُّ حجَّةً على سامِعِه لم يُوقف الله تعالى أمْر المشْرك على سماعه، ولا يمكن أن يكون القرآن حجَّةً إلَّا إذا كان معجزة كذلك.

"ونواحي الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة، ولها مؤلفات خاصة يطول ذكرها...، وهي في الجملة ترجع إلى فصاحة ألفاظه، وبلاغة أساليبه، وخفَّته على اللسان، وحسن وقعه على السمع، وأخذه بمجامع القلوب، وإخباره بأمور غيبية – ماضية أو مستقبلة – واشتماله على الأخلاق السامية، والشريعة الكاملة العادلة الصالحة لكل زمان ومكان، وسلامته من التعارض والتناقض، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء:٨٢)، وإذا كان القرآن معجزًا للعرب باعتبار أنه نزل بلغتِهم، فكيف يكون إعجازه بالنسبة لغير العرب؟!

نقول: إنه مُعجِز للبشر جميعًا بنواحٍ مختلفة، كما سبق، فهو معجز بما تضمَّنه من الحقائق الثابتة، والتوجيهات السديدة، والأغراض السامية، والمقاصد النبيلة، والإخبار بالأمور الغيبية التي لا تستقل العقول بإدراكها.... ". (١١٦)

وعند الكلام عن إعجاز القرآن قد ينصرف الذهن إلى بعض جوانب إعجازه فحسب، دون أن يولي جميع أوجه الإعجاز العناية من البحث والتنقيب والاطلاع، والمتأمل في هذا الجانب العظيم والمتبصر بما أولاه وأملاه أعلام الإسلام السابقين، يرى عنايتهم بهذا الجانب أيما عناية، وأنهم أولوه خصوصية في البحث والتصنيف، وذلك لعظم شأنه ولكونه يبرز أهم أوجه إعجاز القرآن ويبرهن للأجيال عبر الأجيال أنه كلام الله الذي: (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِ.....) (فصلت: من آية: ٤٢) وذلك أيضًا لأنه: (.... تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت: من آية: ٤٢).

ويعلل الباقلاني عن الاحتياج في باب القرآن إلى التحدي فيقول:

"وإنما احتيج في باب القرآن إلى التحدي لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزًا، فإنما يعرف أولا إعجازه بطريق؛ لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزًا، فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه، فيجب أن يعرف هذا، حتى يمكنه أن يستدل به، ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي إليه والتقريع به والتمكين منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصى ثعبانًا تتلقف ما يأفكون... ". (١١٧)

١١٦- يُنظر: أصول الفقه الميسر، للدكتور شعبان محمد إسماعيل: (ص:٨٢).

١١٧- إعجاز القرآن-الباقلاني-ص: ١٩٠.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب السادس: شمولية إعجاز القرآن

وحول شمولية إعجاز القرآن يسطر شيخ الإسلام ابن تيمية كلمات موجزات واضحات بينات فيقول رحمه الله:

"وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط (١١٨)، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك. ومن جهة معانيه، التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) (الإسراء: ٨٩).

وقال تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} (الكهف: ٥٤).

وقال سبحانه: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ - قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر: ٢٧ - ٢٨]. وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن، هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له". (١١٩)

١١٨- تنبيه من الأهمية بمكان: إلى أن شيخ الإسلام لا يقول بالصرفة، وبل هو ممن يقول ببطلانها، وكلامه هنا بمثابة حكاية الحال، والله أعلم.

يقول رحمه الله في "الجواب الصحيح":

"ومن أضعف الأقوالِ - أي في إعجاز القرآن - قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها، أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبًا عامًا، مثل قوله تعالى لزكريا: (... آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويًا) (مريم: ١٠) وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل". يُنظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٥/٤٢٩).

وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية آنفًا يدل على أنه يرد القول بالصرفة ولا يقبله، بل ويعتبره من أضعف ما قيل في بيان أوجه الإعجاز، وهو في ضوء كلامه آنفًا لا يقبله إلا على سبيل التنزل مع المخالف.

ولذا قال في محض كلامه: (فهذا غاية التنزل، وإلا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد صلى الله عليه وسلم نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وسائر كلامه لكل من له أدنى تدبر ...). الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٥/٤٢٩). وينظر أيضًا: د. عرفة بن طنطاوي، "جَنَى الخُرْفَةِ في إبطالِ القولِ بالصَّرْفةِ": (٤٩). الباحث.

١١٩- الجواب الصحيح: (٥/ ٤٢٩-٤٣٠):

شبكة الألوكة www.alukah.net

"أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم، فهي كيفما أدرتها وكيفما تأملتَها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ومن أي جهة وافقتها؛ فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب؛ وتراها تتساير إلى غاية واحدة، وتسنَح في معرض واحد، ولا يمنعها اختلاف حروفها وتباين معانيها وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرًا واحدًا في الطبع والصقل، وفي الماء والرونق؛ كأنما تتلامح بروح حية ما هو إلا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك وتخالِطَ إحساسك فلن تكون معها إلا على حالة واحدة.

تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحًا تداخلُك بما حوته من بلاغة ومعاني، وتُشرِب قلبكَ الروعة، وتنتزع من نفسك حس الاختلاف الذي طالما تدبرت به سائر الكلام، وتصحفت به على البلغاء في ألوان خطابهم وأساليب كلامهم وطبقات نظامهم، مما يعلو ويسفلُ، أو يستمر وينتقض، أو يأتلف ويختلف... إلى غيرها من آثار الطباع الإنسانية فيما يعتريها من نقص أو كلال أو غفلة، ومما هو صورة في الكلام لوجوه اختلافها بالقوة والضعف في أصل الخلقةِ وطريقةِ النشأة..... ". (١٢٠)

وحول شمولية إعجاز القرآن وتعدد وجوه إعجازه يقول القرطبي –رحمه الله–: ووجوه إعجاز القرآن عشرة:

الأول: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ} (يس: ٦٩).

وفي صحيح مسلم أن أُنيسًا أخا أبي ذرٍّ قال لأبي ذرٍّ: لقيت رجلاً بمكَّةَ على دِينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ، وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكَهَنَةِ، فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر،والله إنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون (١٢١).

وكذلك أقرَّ عُتبة بن ربيعة أنه ليس بسِحر ولا بشِعر، لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حم فُصلت،..... (١٢٢)، فإذا اعترف عُتبة – على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة – بأنه ما سَمِعَ مثل القرآن قَطُّ، كان في هذا القول مُقِرًّا بإعجاز القرآن له، ولضربائه من المتحقِّقين بالفصاحة، والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

١٢٠–إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي: (ص: ١٦٦). بتصرف يسير

١٢١– صحيح مسلم (٢٤٧٣) وعنده : فما يلتئم ، وهو في مسند أحمد (٢١٥٢٥) .

١٢٢– أخرج قصة عتبة بن ربيعة ابن إسحاق فيما ذكر ابن هشام (١/٢٩٣–٢٩٤) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٠٤–٢٠٥). حديث رقم: (٥٣٦)، الاعتقاد إلى سبيل الرشاد للبيهقي: حديث رقم: (٢٦٢). والأثر: إسناده ضعيف لأن به موضع إرسال، وفيه أحمد بن عبد الجبار العطاردي وهو ضعيف الحديث.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الثاني: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

الثالث: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} (ق: ١)، إلى آخرها، وقوله سبحانه: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } (الزمر: ٦٧)، إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } (إبراهيم: ٤٢)، إلى آخر السورة.

قال ابن الحصار: (١٢٣)

فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: { لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ } (غافر: ١٦)، ولا أن يقول: { وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء } (الرعد: ١٣).

قال ابن الحصار:

وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمةٌ كلَّ سورة، بل هي لازمةٌ كلَّ آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضافَ إليها أمرٌ آخر من الوجوه العشر، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات قِصار، وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبارَ عن مُغَيَّبَين:

أحدهما: الإخبار عن الكوثر، وعظمه، وسعته، وكثرة أوانيه، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرُّسُل.

والثاني: الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق:{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا}(المدثر:١١-١٤)، ثم أهلكَ الله سبحانه ماله وولده، وانقطع نسله.

الرابع: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقلُّ به عربيٌّ، حتى يقعَ منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

الخامس: الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزولِه من أمّيٍّ ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل

١٢٣-عبدالرحمن بن أحمد بن سعيد ، أبو المطرِّف ، القرطبي المالكي ، تفقه بأبي عمر الإشبيلي ، توفي سنة ٤٢٢هـ ، سيرة أعلام النبلاء (٤٧٣/١٧) .

شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتاب عنه، وتحدوه به من قصص أهل الكهف، وشأن موسى والخضر-عليهما السلام-، وحال ذي القرنين، فجاءهم - وهو أُميٌّ من أمَّةٍ أُمِّيَّة، ليس لها بذلك علم - بما عرفوا من الكتب السالفة صحته، فتحققوا صدقه.

قال القاضي ابن الطيب: (١٢٤)

ونحن نعلم ضرورة أنَّ هذا مما لا سبيلَ إليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابسًا لأهلِ الآثار، وحَمَلَةِ الأخبار، ولا مترددًا إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقعَ إليه كتاب فيأخذ منه، عُلِمَ أنه لا يصِلُ إلى علمِ ذلك إلا بتأييد من جهة الوَحي.

السادس: الوفاء بالوعد، المدرك بالحسن في العِيان، في كلِّ ما وعدَ الله سبحان، **وينقسم إلى:**

أخباره المطلقة: كوعده بنصر رسوله-عليه السلام-، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه.

وإلى مقيد بشرط: كقوله: { وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } (الطلاق: ٣) { وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } (التغابن: ١١) { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا} (الطلاق: ٢) و { إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ } (الأنفال: ٦٥) وشبه ذلك.

السابع: الإخبار عن المُغَيَّبات في المستقبل التي لا يُطَّلَعُ عليها إلا بالوحي، فمن ذلك: ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سَيُظهِرُ دينه على الأديان بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } (التوبة:٢٣)، الآية، ففعل ذلك، وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزَى جيوشه عرَّفَهم ما وعدهم الله في إظهار دينه، ليَثِقُوا بالنصر، وليَسْتَيقِنوا بالنُّجْح، وكان عمر يفعل ذلك (١٢٥): فلم يزل الفتح يتوالى شرقًا وغربًا، برًا وبحرًا، قال الله تعالى: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } (النور: ٥٥) وقال: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ} (الفتح:٢٧) وقال: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ } (الأنفال:٧) وقال: {الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} (الروم: ١-٣).

فهذه كلُّها أخبار عن الغيوب التي لا يَقِفُ عليها إلا ربُّ العالمين، أو من أوقفه عليها ربُّ العالمين، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكونَ دلالة على صدقه.

١٢٤- في إعجاز القرآن: (ص: ٥١) .

١٢٥- من قوله : فمن ذلك ما وعد الله نبيه ، إلى هذا الموضع ، من إعجاز القرآن للباقلاني: (ص: ٤٨) .، ينظر: موقع المتون العلمية بإشراف: عبد الله بن سفيان الحربي.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الثامن: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قِوامُ جميع الأنام، في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام.

التاسع: الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدميّ.

العاشر: التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرً وباطنًا من غير اختلاف، قال الله تعالى: { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} (النساء:٨٢).

قلت: فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم. ([١٢٦]).

وكلام القرطبي رحمه الله آنفًا ورد بصيغ مختلفة في اللفظ، ولكنها متقاربة ومتجانسة في المعنى والفحوى.

ولا شك في بقاء إعجاز القرآن، وبقاء إعجازه دليلٌ على بقاء تلك الرسالة الخاتمة، وأنها رسالة لعموم البشَر، وبقاء تلك الرسالة الخاتمة بقاءٌ لتلك الشريعة الخالدة، فهي إذًا شريعة خاتمة خالدة. ([١٢٧])

وبهذا ينتهي الفصل الأول. والحمد لله رب العالمين.

١٢٦- يُنظر: تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: (١/١١٦-١١٩) ط : الرسالة .

١٢٧- يُنظر: الذهب الإبريز في خصائص الكتاب العزيز: (ص:٦٩-٨١)، جَنَى الخُرْفَة في إبطال القولَ بالصَّرْفة: (ص: ٧، وما بعدها) وكليهما لـ د. عرفة بن طنطاوي.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الثاني
القَوْلُ بِالصَّرْفَةِ

وفيه أربعة مباحث:

تمهيد في وقفة مع مناقشة القول بالصَّرْفة

البشر عجزوا ما استطاعوا أن يعارضوا هذا القرآن، ولكن هذا العجز ليس كما يقول المعتزلة إن الله صرفهم عن معارضته, وهذه عقيدة مشهورة قال بها المعتزلة يقال لها "الصَّرْفة"، يقولون إن الله –عز وجل– صرف الناس عن معارضة القرآن فعجزوا، وصرف هممهم ودواعيهم فما استطاعوا، لأنه سبحانه صرفهم فزعموا أن الإعجاز إنما هو أن الله صرفهم لا أن القرآن معجز بنفسه.

ولهذا قد اشتغل علماء السنة منذ أن ظهرت هذه البدعة وهذه العقيدة الفاسدة الباطلة اشتغلوا بالرد عليها، لأن عقيدة الصَّرْفة عقيدة باطلة ونحن نقول كما قال أهل السنة القرآن لفظًا ومعنى هو دليل الإعجاز وهو دليل التحدي.

فالقول بهذه العقيدة "عقيدة الصَّرْفة" يعني أن القرآن في ذاته ليس فيه فضيلة في الامتياز ليس فيه فضيلة في التفوق, ولا شك أن هذا باطل بنصوص القرآن، لأن الله –عز وجل– أخبر في القرآن وفي نصوص كثيرة أنه تحدى العرب أن يأتوا بمثله ثم بإجماع الأمة على أن الإعجاز ذاتيٌ في القرآن غير منفك عنه بإجماعهم، لا كما تقول المعتزلة أن الإعجاز إنما هو في **بالصَّرْفة** أي أن الله صرفهم فعجزوا، لا أن القرآن معجز بنفسه، إنما جعلوا الإعجاز في قدرة الله، فرجعت إلى صفة القدرة التي هي أن الله بقدرته صرفهم فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، وهذا من أبطل الباطل ترده النصوص الكثيرة. (١٢٨)

ولا شك في أن القول **بالصَّرْفة** قولٌ باطلٌ وفاسدٌ ويرد هذا القول الفاسد التحدي الوارد في غير ما موضع من كتاب الله ولاسيما قوله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)) (الإسراء: ٨٨).

يقول الطبري:

" يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلَّذِينَ قَالُوا لَكَ: إِنَّا نَأْتِي بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، لَا يَأْتُونَ أَبَدًا بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَوْنًا وَظَهْرًا. وَذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبَبِ قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ جَادَلُوهُ فِي الْقُرْآنِ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ غَيْرِهِ شَاهِدَةٍ لَهُ عَلَى نُبُوَّتِهِ، لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْقُرْآنِ بِهِمْ قُدْرَةٌ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِهِ". (١٢٩)

١٢٨- يُنظر: موقع ميرا ث الأنبياء، عرفات بن حسن المحمدي، بتاريخ: ٢٠١٦/٩/١٥م. بتصرف.

١٢٩- تفسير الطبري: (١٥/٧٥)

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاشك في دلالة الآية على أن عجزهم قائم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا تلك القدرة لم يبق هناك أي فائدة لاجتماعهم.

قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (الأنبياء من الآية: ١٨) أَيْ نُبَيِّنُ الْحَقَّ فَيَدْحَضُ الْبَاطِلَ، وَلِهَذَا قَالَ: فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ أَيْ ذَاهِبٌ مُضْمَحِلٌّ(١٣٠).

ولمناقشة القول بالصَّرْفة لابد من بيان وإيضاح مسائل ومباحث هامة من أبينها ما يلي:

المبحث الأول: القول بالصرفة محاولة لنفي ذاتية الإعجاز عن القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الصَّرْفة في اللغة والاصطلاح

أ- مفهوم الصَّرْفة في اللغة

فمن المناسب بمكان بيان معنى ومفهوم **الصَّرْفة** في اللغة ودلالتها.

الصَّرْفة لغة: على وزن فَعلَة، بفتح الفاء واللام وسكون العين- رد الشيء عن وجهه، يقال: صرفه يصرفه، صرفًا، فانصرف، وصارف نفسه عن الشيء: صرفها عنه، قال تعالى: (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) (التوبة: ١٢٧)

فقوله:- (ثم انصرفوا...) أي: رجعوا عن المكان الذي استمعوا منه، وقيل:- انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا، وقوله تعالى: - (صرف الله قلوبهم..) أي:- أضلهم الله مجازاة على فعلهم، وصرفت الرجل عني فانصرف). (١٣١)

أي: صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوبَ هؤلاء المنافقين (١٣٢).

ويأتي الصرف بمعاني أخرى كالتوبة والتطوع والقيمة والعدل والمثل والميل والنافلة (١٣٣).

فـ" أصلُ الصَّرْفة من الفعلِ صرفَ، والصرفُ لغة هو ردُّ الشيءِ عن وجهِه". (١٣٤)

---

١٣٠ -تفسير ابن كثير: (٢٩٤/٥).

١٣١- لسان العرب – مادة صرف – لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت: ٧١١ هـ) – دار صادر – بيروت ١٩٥٥م .

١٣٢ - يُنظر: تفسير الطبري: (٩٤/١٢).

١٣٣ - المرجع السابق: مادة (صرف).

١٣٤- المرجع السابق: مادة (صرف).

شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقول الخليل بن أحمد الفراهيدي:

"الصَّرْفُ فَضْلُ الدَّرْهَم في القيمة وجَوْدةُ الفِضَّة وبيع الذَّهَبِ بالفضَّةِ ومنه الصَّيْرَفِيُّ لتَصريفه أحدهما بالآخَر". (١٣٥).

وقال الراغب الأصفهاني:

" الصَّرْفُ: ردّ الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، يقال: صَرَفْتُهُ فَانْصَرَفَ. قال تعالى: (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ) [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: (أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) (هود: ٨)، وقوله: (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) (التوبة: ١٢٧)، فيجوز أن يكون دعاء عليهم، وأن يكون ذلك إشارة إلى ما فعله بهم، وقوله تعالى: (فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا) (الفرقان: ١٩)، أي: لا يقدرون أن يَصْرِفُوا عن أنفسهم العذاب، أو أن يصرفوا أنفسهم عن النّار. وقيل: أن يصرفوا الأمر من حالة إلى حالة في التّغيير، ومنه قول العرب: (لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عدل)، وقوله: (وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِ) [الأحقاف: ٢٩]، أي: أقبلنا بهم إليك وإلى الاستماع منك، والتَّصْرِيفُ كالصّرف إلّا في التّكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر. وتَصْرِيفُ الرّياح هو صرفها من حال إلى حال. (١٣٦).

ويقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة:

" صرف الصاد والراء والفاء معظم بابه يدل على رجع الشيء، من ذلك صرفت القوم صرفًا وانصرفوا اذا رجعتهم فرجعوا". (١٣٧)

وقيل إن الصَّرْفة:

"هي كوكب نير، وسمي هذا الكوكب بالصرفة لانصراف الحر عند طلوعه مع الفجر من المشرق وانصراف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصرفة ناب الدهر لأنها تفتر عن فصل الزمانين". (١٣٨).

قال ابن قتيبة الدينوري: (ت: ٢٧٦هـ)

"وسميت الصَّرْفَة لانصراف البرد و إقبال الحر (١٣٩) وقد جعلها العرب في أسجاعهم، كقولهم: إذا طلعت الصَّرْفة بكرت الخُرْفة وكثرت الطُّرْفة وهانت للضيف

---

١٣٥ – الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، دار ومكتبة الهلال، (دط))، ت: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، (ج ٧ / ص ١٠٩).

١٣٦ – الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، المفردات، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت،(ط: الأولى – ١٤١٢ هـ)، ت: صفوان عدنان الداودي، (ج ١ / ص ٤٨٢).

١٣٧– معجم مقاييس اللغة: (٣/ ٣٤٢).

١٣٨ – القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر: دار الفكر – دمشق، (الطبعة الأولى، ١٩٨٧م) تحقيق: د. يوسف علي طويل (ج ٢، ص ١٧٧).

١٣٩ – ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، أدب الكتّاب، (ج ١، ص ٢٠).

شبكة الألوكة www.alukah.net

الكُلْفَة (١٤٠) وكقولهم أيضًا إذا طَلِعَت الصَّرْفَة احتَالَ كلُّ ذي حِرْفَة وقيل احْتَالَ كلُّ ذِي حُرْفَة وجَفَرَ كلُّ ذي نُظْفَة وامْتِيزَ عن المياه زُلْفَة (١٤١).

وَالْعَرَبُ تَقُولُ:

الصَّرْفَةُ نابُ الدَّهْرِ لأَنها تفْتَرُّ عَنِ الْبَرْدِ أَو عَنِ الحَرّ فِي الْحَالَتَيْنِ؛ قَالَ ابْنُ كُناسَةَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لانْصراف الْبَرْدِ وَإِقْبَالِ الْحَرِّ، وَقَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: صَوَابُهُ أَن يُقَالَ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لانْصراف الحرِّ وَإِقْبَالِ الْبَرْدِ. والصَّرْفَةُ: خرَزَةٌ من الخرَز التي تُذْكر فِي الأُخَذِ(١٤٢)، قَالَ ابْنُ سِيدَهْ(١٤٣): يُسْتَعْطَفُ بِهَا الرِّجَالُ يُصْرَفون بِهَا عَنْ مَذاهِبهم وَوُجُوهِهِمْ.

والخلاصة مما جاء أنفًا من معاني يعود إلى معنى التبدل والتحول وانتقال شيء إلى شيء، أو من حال إلى حال. (١٤٤).

ب- مفهوم الصَّرْفة في الاصطلاح

وبعد بيان مفهوم الصرفة في اللغة وبيان مدلولاتها، فمن المناسب كذلك بيان معناها في الاصطلاح ليكتمل معناها ويتضح فحواها ومبناها.

والصَّرْفة في الاصطلاح تعني:-

١- أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن، وسلب عقولهم عنها، وكانت في مقدورهم، لكن عاقهم عنها أمر خارجي، فصار معجزة كسائر المعجزات، ولو لم يصرفهم عن ذلك لجاءوا بمثله.) (١٤٥)

٢- وقيل تعني: صرف الهمم عن المعارضة (١٤٦).

٣ - وقيل تعني: صرف اللهِ همَ العرب عن معارضة القرآن (١٤٧).

١٤٠- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، (الطبعة الأولى، ١٩٩٨) تحقيق: فؤاد علي منصور، (ج ٢، ص ٤٤٦).

١٤١ - ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل إبراهم جفال، (ج ٢، ص ٣٦٩).

١٤٢ - ابن منظور، لسان العرب، (ج ٩، ص ١٨٩).

١٤٣ - ابن سيده، المخصص، (ج ١، ص ٣٧٥).

١٤٤- يُنظر: الصرفة ونشأتها بين مؤيد ومعارض لمحمد فقهاء، بحث عن موقع الألوكة: (ص: ١٠).

١٤٥- البرهان في علوم القرآن – لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت:٧٩٤) تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم – الطبعة الأولى – دار إحياء الكتب العربية ، مصر ٥١٣٧٦- ١٩٥٧م ، ج٢/ص٩٣ ... ، وانظر الاتقان في علوم القرآن – لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ للهجرة) تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم – دار التراث بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ....ج٢/ ص ١١٨.

١٤٦ - الرماني، علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط ٤،القاهرة (ص ١١٠).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وهي كلها بمعنى واحد ألا وهو أن الصَّرْفة تعني:

أن معارضة العرب للقرآن كانت ممكنة وهي بمقدورهم، غير إن الله تعالى صرف همم عنها بقدرته.

ولا شك أن القول **بالصَّرْفة** كلام فاسد وباطل كما أسلفنا، ويلزم منه أن القرآن الكريم ليس بمعجز في حد ذاته، وسيأتي معنا بيان ذلك في محل بحثه بشيء من زيادة التفصيل والإيضاح والبيان.

المطلب الثاني: ما هو المقصود بالصَّرْفة؟

بيان معنى الصَّرْفة عند القائلين بها

والصَّرْفة لها عند أصحابها معنيان:

المعنى الأول: أنَّ الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتِهم عليها فكانَ هذا الصرفُ خارِقًا للعادة.

المعنى الثاني: أن الله سلبهم العلوم التي يحتاجُ إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن". (١٤٨)

وفي نحو ذلك يقول ابن سنان الخفاجي الشيعي: (ت: ٤٦٦هـ)

" إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن: صرف العرب عن معارضته، بأن

سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة، وقت مرامهم ذلك". (١٤٩)

وبشيء من الإيضاح والبيان نبين المقصود **بالصَّرْفة** والتي تدور مادتها حول إثبات التحدي بالقرآن بالحيلولة بينه وبين العرب في أن يأتوا بمثله.

وفي بيان معنى هذا الوجه من بالصَّرْفة يقول الرّماني المعتزلي: (ت: ٣٨٤هـ)

"أمّا الصَّرْفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أَهل العلم في أنّ القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات الّتي دلّت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز الّتي يظهر منها للعقول... ". (١٥٠)

المقاصد الثلاثة للقائلين بالصَّرْفة بشيء من التفصيل

وقد اختلف القائلون **بالصَّرْفة** في بيان حقيقة ما يقصدونه بها، فقالوا: إن الله سبحانه لأجل اثبات التحدي، حال بين فصحاء العرب وبلغائهم، وبين الاتيان بمثل القرآن **بأحد الأمور الثلاثة التالية:**

المقصد الأول: صرف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة، فكلما هموا بها وجدوا في أنفسهم صارفًا ودافعًا يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة، ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم عن الانصداع لهذا الأمر، بل إن المقتضى فيهم

---

١٤٧ – الخطابي، حمد بن محمد أبو سليمان، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط ٤،القاهرة (ص ٢٣).

١٤٨– مباحث في علوم القرآن : مناع القطان ص٢٦١.

١٤٩– سر الفصاحة: (ص: ١٠٠).

١٥٠– النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: (ص: ١١٠).

شبكة الألوكة www.alukah.net

كان تامًا، غير أن الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الالتفات لهذا الأمر، بصرف الله قلوبهم عنه، ولولا ذلك لأتوا بمثله.

المقصد الثاني: إن الله سبحانه سلبهم العلوم التي كانت العرب مالكة لها ومتجهزة بها، وكانت كافية للإتيان بما يشاكل القرآن، ولولا هذا السلب لأتوا بمثله..

وممن تبنى هذا القول الشريف المرتضى الشيعي الرافضي(ت:٤٦٣هـ)

وهو المتهم بوضع كتاب(نهج البلاغة) المنسوب لأمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث يقول:

"اللهَ تعالى سلبهُمُ العلومَ التي يُحتاجُ إليها في مُعارضَةِ القرآنِ والإتيانِ بمثلِهِ" (١٥١).

وقد تابع الشريف المرتضي على هذا القول ابنُ سنان الخفاجي: (ت: ٤٦٦هـ)

وقد مر معنا آنفًا قوله في الصَّرْفة.

المقصد الثالث: إنهم كانوا قادرين على المعارضة، ومجهزين بالعلوم اللازمة لها، ولكن الله منعهم بالإلجاء على جهة القسر من المعارضة، مع كونهم قادرين، فتقهقروا في حلبة المعارضة، لغلبة القوة الإلهية على قواهم. (١٥٢)

المطلب الثالث: إثبات ذاتية الإعجاز للقرآن

وسنبين أن الصَّرْفة بكل صورها غير مقبولة، لأنها تسلب الاعجاز الذاتي للقرآن، وأنها وِهمٌ ذهب إليه خيال القائلين بها دون سند أو دليل.

وفي نحو ما سبق يجمل القرطبي القول فيقول رحمه الله:

" إن بعض أصحاب الصَّرْفة زعموا أن العرب صرفوا عن القدرة على القرآن ولو تعرضوا له لعجزوا عنه، وأن البعض الآخر زعموا أن العرب صرفوا عن التعرض للقرآن مع كونه في مقدورهم، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه، بمعنى أنهم لم يأتوا بمثله سابقًا، غير أنه لا يخرج عن حدود قدرتهم لولا أنه حيل بينهم وبين ممارسة ذلك الاقتدار". (١٥٣)

لما عرض رسول الله- صلى الله عليه وسلام- دعوته على قريش كذبوه ورموه بالبهتان وطالبوه بالبرهان على صدق نبوته ودعوته ورسالته، فأجابهم لما طلبوا وأبان لهم أن برهان ما يدعوا إليه ويصدقه على نبوته ورسالته ومعجزته الواضحة البينة التي تؤيد دعواه هي هذا القرآن، وفي ذلك يقول تعالى: (وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا

١٥١- المعجزة الكبرى القرآن : ص٧٩.

١٥٢- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – ليحيى بن حمزة الحسيني اليمني الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: ٧٤٥هـ)– طبع في مصر في ثلاثة أجزاء ، طبعة المتقطف عام ١٣٣٣ للهجرة . ج٣/ ص ٢٩١ .ويُنظر: إعجاز القرآن – للأستاذ علي العماري – سلسلة الثقافة الإسلامية – عدد ٤٤، حزيران ١٩٦٣م ، القاهرة . وانظر البيان في إعجاز القرآن – للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي – دار عمار – عمان – ص ٨٢-٨٣.

١٥٣- الجامع لأحكام القرآن: (٧٦/١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (العنكبوت: ٥٠- ٥١).

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ) في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به (أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ) وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته، وتحديهم إياه آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهرًا علانية، يتلى عليهم، **ويقال**: هو من عند الله، قد أظهره الرسول- صلى الله عليه وسلم-، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رءوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟! ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع. (١٥٤)

ويتجلّى دليل الإعجاز بالمظاهر التالية:

١- تحدي المشركين العرب أن يعارضوه.

لما طلب هؤلاء المعجزة، وجاءهم ذاك الجواب من رب العزة لم يذعنوا للحق الذي عرفوه: (وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) (الفرقان: ٥) ولم يكتفوا بذلك بل مالوا إلى العناد والمكابرة، غافلين عن العاقبة التي ستكشف حالهم، وقالوا: (قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (الأنفال: ٣٠).

وهنا حان الوقت لتحطيم هذا العناد وكشف هذه المواربة، فتحداهم الله بدعواهم نفسها بقوله سبحانه: (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ) (الطور: ٣٣- ٣٤) فوجهم هؤلاء أمام هذا التحدي الصارم الذي لم يتوقّعوه، وسقط في أيديهم.

وقد مر معنا في الفصل الأول مراحل التحدي ومستوياته الثلاث، وأنه كان في البداية تعريضًا، ثم تصريحًا، وقد مر ذكر ذلك بشيء من التفصيل فلتراجع هنالك. (١٥٥)

٢- عجزهم عن المعارضة واضطراب موقفهم:

كان هذا التحدي والعرب في ذروة مجدهم فصاحة وبلاغة، ومعرفة بفنون القول وأساليب الكلام، فكان مقتضى ذلك- وهم أكثر ما يكونون حرصًا على إطفاء نوره وإخفاء أمره- أن يهبوا لمعارضته، ويدفعوا بذلك خطره عنهم، ويمحوا الخزي الذي ألصقه بهم- لو كان ذلك في مقدورهم- كيف لا، وهم الذين قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا؟

١٥٤- تفسير ابن سعدي: (١٣٢٠/٦).

١٥٥- في المبحث الثالث من الفصل الأول.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن شيئًا من هذا لم يحصل، ولم ينقل عن واحد منهم أنه استجاب لتحدي القرآن في محاولة ما، أو حدّث نفسه بشيء من ذلك.

وإنما الذي حصل هو أنهم تعدوا هذا وعدلوا إلى مسالك شائكة، وانتهجوا أساليب ملتوية، فما أن قرع القرآن أسماعهم بهذا التحدي الصارخ حتى اضطربوا في قولهم، وحاروا في أمرهم، ولجؤوا إلى وصفه بالشعر تارة، وبالسحر أخرى، وبالكهانة مرة، وبالجنون حينًا، وغير ذلك مما اضطربوا فيه وتلجلجوا وقد وصف الله تعالى شأنهم في ذلك بقوله سبحانه: (بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) (الأنبياء: ٥). بقوله سبحانه: (وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ) (الزخرف: ٣٠). وقوله جل في علاه: (أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ) (الصافات: ٣٦) وقوله جل شأنه: (وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) (الحاقة: ٤١- ٤٣).

ولما كانت أباطيلهم هذه بادية العوار- كما فندها الله في القرآن- ظاهرة في إعلان ضعفهم وعجزهم عن مقارعة الحجة بالحجة، وهروبًا صريحًا من التحدي، لم يجدوا بدًا من سلوك الطريق الصعب، واللجوء إلى القوة، ولو كلفتهم الغالي والنفيس، وحكمت السيوف في أعناقهم، وأفقدتهم الأزواج والأولاد، وأباحت دماءهم وأموالهم. وكل هذا قد حصل، وآثروه- وهم أكثر الناس حمية وأنفة- على أن يتصدوا لمعارضة القرآن، وما ذلك إلا لأنهم علموا أنه ليس بمقدورهم الإتيان بمثله، وإلا لبادروا إليه ولكان أهون عليهم وأقل كلفة. وإذا ثبت أنه ليس في مقدورهم ثبت- من باب أولى- أنه ليس في مقدور غيرهم، وبالتالي ثبت أنه ليس من كلام البشر.

هذا ولقد استمرّ هذا التحدّي يقرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء- على اختلاف نحلهم ومذاهبهم- في كل عصر وقرن، واستمر هذا الوجوم أمام شموخ إعجاز القرآن، ولم يجرؤ أحد- ممن عنده أثارة من علم أو فهم- على أن يتصدى لهذا الشموخ، وهذا دليل مادي ملموس من أقوى دلائل الإعجاز في القرآن، وأنه إعجاز ذاتي، وما ورد من محاولات سخيفة في معارضته فإنما هو هذيان نجلّ المقام عن ذكره.

٣- سماعه حجة:

من دلائل الإعجاز في القرآن أن الله سبحانه وتعالى جعل سماعه حجّة، قال تعالى:(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ) (التوبة: ٦) فلولا أن سماعه حجة لما وقف أمنه على سماعه، ولا يكون حجة إلا إذا كان معجزة.

٤- تأثيره النفسي:

لعل من أقوى دلائل الإعجاز في القرآن هو ذاك التأثير الذي يبعثه في النفوس، فإنه لا يكاد يطرق السمع حتى يخلص إلى القلب، وتجد منه النفس لذة وحلاوة، لا تجدهما في غيره من الكلام، يستوي في ذلك أصحاب القلوب القاسية وذوو الأفئدة الخاشعة، فلقد أثَّرِ القرآن في نفوس العرب منذ اللحظة الأولى، فآمن منهم من شرح الله صدره للإسلام، وكفر منهم من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا أدل على هذا التأثير النفسي الذي يؤكد إعجاز القرآن من ذلك القول الذي كان يتواصى به المشركون، وذكره الله في قوله سبحانه: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (فصلت: ٢٦). ورغم ذلك فقد كانوا ينشدون بيتَ رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه– ليستمعوا لهذا القرآن الذي أخذ بمجامع قلوبهم وعقولهم، ولا غرابة وهو الكلام المنزل الذي يقول الله تعالى في شأنه: (لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) (الحشر: ٢١) وقال سبحانه: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتابًا مُتَشابِهًا مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ) (الزمر: ٢٣). والأمثلة على ذلك كثيرة وكثيرة جدًا، وليس غريبًا عنا

قول الوليد بن المغيرة فيه:

"والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة(١٥٦)، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى. (١٥٧)

وقول عتبة بن ربيعة:

إني سمعت قولًا، والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة. فقال له القوم: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم". (١٥٨)، وما إسلام عمر(١٥٩)– رضي الله عنه– وأمثاله عنك ببعيد". (١٦٠).

وتأمل خبر هذا الذي هدته آياتُ سورة الطور:

ألا وهو الصحابي الجليل: جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، أبو عدي(١٦١).

وقصة هدايته: أنه جاء المدينة وصادف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور، ففتح لها سمعه وقلبه، فجعل ينصت إلى القراءة بقلب عقول، وأنوار الهداية شرعت تتسلل إلى نفسه من مشكاة تلك الآيات الباهرة، وبذلك الصوت النبوي الندي، حتى وصل إلى البرهان العقلي الدامغ الذي لا يرفضه عاقل منصف حتى كاد قلبه أن يطير إلى الإسلام.

يقول جبير–رضي الله عنه–:

سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية:﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور:٣٥). كاد قلبي أن يطير"(١٦٢)، وقال أيضًا: "فكأنما صدع قلبي"(١٦٣).

---

١٥٦ – طلاوة وطلاوة: أي رونقًا وحسنًا وقبولًا. ابن منظور: لسان العرب، مادة طلى ١٥/١٠.

١٥٧– سبق تخريجه: (ص: ١٣) في مبحث "الإعجاز البياني" وهو: المطلب الأول من المبحث الثاني.

١٥٨– يُنظر: تفسير ابن كثير: (م١–٤ ج٤/٧٩). وأثر: عتبة بن ربيعة ضعيف وسبق تخريجه (ص: ٧٨).

١٥٩– وفي قصة إسلامه عمر–رضي الله عنه– خلاف معروف عند أهل السير. فلينتبه. الباحث.

١٦٠– الواضح في علوم القرآن: (ص:١٤٩)، مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب / دار العلوم الانسانية — دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: ١. بتصرف.

١٦١ – الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر (١/ ٤٦٢)، الأعلام للزركلي (٢/ ١١٢).

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولسائل أن يسأل: لماذا عند هذه الآيات ظهر الأثر جليًا على قلب أبي عدي-رضي الله عنه- وقد سمع قبلها آيات أول السورة الكريمة، فما معنى هذه الآيات التي طيرت قلبه وصدعته؟

قال ابن كثير:

"هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ **أي:** أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم، **أي:** لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا"(١٦٤).

كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه، وذلك من قوله تعالى :﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾

قيل: معناه: ليسوا أشد خلقًا من خلق السماوات والأرض؛ لأنهما خلقتا من غير شيء، **أي:** هل خلقوا باطلاً لا يؤمرون ولا ينهون؟ **وقيل: المعنى:** أم خلقوا من غير خالق؟ وذلك لا يجوز فلا بد لهم من خالق، وإذا أنكروا الخالق فهم الخالقون لأنفسهم، وذلك في الفساد والبطلان أشد؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق، وإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا. ثم قال: ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ **أي:** إن جاز لهم أن يدعوا خلق أنفسهم فليدعوا خلق السماوات والأرض، وذلك لا يمكنهم، فقامت الحجة. ثم قال: ﴿ بَل لا يُوقِنُونَ ﴾ فذكر العلة التي عاقتهم عن الإيمان وهو عدم اليقين الذي هو موهبة من الله ولا يحصل إلا بتوفيقه؛ فلهذا انزعج جبير حتى كاد قلبه يطير، ومال إلى الإسلام"(١٦٥).

لقد بقي جبير بن مطعم في صراع مع نفسه جراء تأثير هذه الآيات العظيمة فيه؛ فإنه لم يسلم حينها، بل تأخر إسلامه، فقيل: إنه أسلم عام خيبر، وقيل: بعد الحديبية، وقيل: عام الفتح(١٦٦).

قال ابن كثير:

" فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك"(١٦٧).

وإثبات ذاتية الإعجاز للقرآن ستتجلى بصورة أوضح في المباحث التالية لهذه المبحث بإذن الله تعالى.

---

١٦٢ – رواه البخاري (١/ ٢٦٥)، ومسلم (١/ ٣٣٨).

١٦٣ – المعجم الكبير، الطبراني (٢/ ١١٦)، شعب الإيمان، البيهقي (٢/ ٤٨٨)، مسند أبي يعلى (١٣/ ٣٣٢)، مسند أحمد بن حنبل (٤/ ٨٥).

١٦٤– تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٤).

١٦٥– فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤٣١).

١٦٦– الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر (١/ ٤٦٢)، أسد الغابة، ابن الأثير (ص: ١٧١)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر (١/ ٦٩).

١٦٧– تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٤).

شبكة الألوكة www.alukah.net

مصدر القول بالصَّرْفة المبحث الثاني:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المصدر الأول لفكرة القول بالصَّرْفة

لقد أجمعت الأمة سلفًا وخلفًا على أن القرآن معجز بذاته، وأن إعجازه بذاته، لا بسبب خارج عنه، وقد بذلوا مهجهم في بيان أوجه إعجازه.

ومن ذهب إلى القول بالصَّرْفة أراد بذلك أن " إعجاز القرآن أمرًا خارجًا عنه ".

ويعزى القول بالصَّرْفة عند الباحثين الى أنه من التيارات التي وفدت علينا من الخارج... وأن بعض فلاسفة المسلمين، وقفوا على أقوال البراهمة في كتابهم – الفيدا – (١٦٨)،(١٦٩) وهو يشتمل على مجموعة من الأشعار والآداب ليس في كلام الناس ما يماثلها – في زعمهم –، ويقول جمهور علمائهم:– إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله...، لأن – براهما– (١٧٠) صرفهم عن أن يأتوا بمثلها.....

وقد لاقى هذا الرأي انتقاضًا من أحد الباحثين. محتجًا بأن البراهمة لم يقولوا مثل أشعار الفيدا احترامًا لها، وليس بمقتضى التكوين، ثم إن كلام البراهمة في الفيدا كان محل سخرية العقل الإسلامي، فلا مستنصر لهذا الرأي. (١٧١)

وكل هذا لا ينكر وجود التأثر، فالتأثر برأي لا يوجب نقله كاملًا، كما أن السخرية بالبراهما قد تؤدي إلى تنزيل الصرف على القرآن، وإن كان من وجه مختلف لأنه الكتاب المعجز حقًا. (١٧٢)

وفي نحو ذلك يقول أبو الريحان البيروني (ت: ٤٣٠هـ) في كتابه – ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة – ما نصه:

" إن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعون عن ذلك احترامًا لها، ولم يبين – البيروني وجه المنع، أهو منع تكليفي يسبقه الإيمان بهذه الكتب، وتكون دلائل وجوب الإيمان من نواح أخرى..؟ أم هو منع تكويني.. بمعنى: أن – براهما– صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها...؟ وهذا الأخير هو الظاهر، لأنه هو الذي يتفق مع قول جمهور علمائهم، وما اشتهروا به من أن القول بالصرفة نبع في واديهم...

١٦٨–المعجزة الكبرى القرآن لمحمد أبو زهرة ص٧٦.

١٦٩– والفيدا: كتاب يشمل أربعة كتب مقدسة للهندوس، وقد كتب باللغة السنسكريتية – يُنظر كتاب : مشكلة الألوهية د. محمد غلاب – ص ٩٧ . ويُنظر: موسوعة المورد : للبعلبكي – ج ١٠/ ص ٨٢.

١٧٠– براهما: من آلهة الهندوس، وهو عندهم مرادف للمطلق الأعلى أو (الأثمان) – يُنظر: المرجع السابق ص ٩٨

١٧١– يُنظر: الإعجاز البياني : د .محمد أبو موسى ص٣٥٨.

١٧٢– عن مدونة: نورة الشريف: بتاريخ:١٣/٦/٢٠٠٨م.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الثاني: كيفية وفود فكرة القول بالصرفة إلينا، وبيان المصدر الثاني الذي تَلَقَّاهَا ورُوّج لها

ولقد وفدت إلينا هذه الفكرة عندما ترجمت الفلسفة الهندية في عهد – أبي جعفر المنصور: وهو الخليفة الثاني من خلفاء بني العباس (ت:١٥٦ هـ)، فتلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار، ويركنون إلى الاستغراب في أقوالهم، هذه الفكرة الغريبة الوافدة، واعتنقوا هذا القول وطبقوه على القرآن، وإن كان لا ينطبق،

فقال قائلهم:

إن العرب اذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه، ومعانيه، ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله... " (١٧٣)

فلا غرابة في انتقال قول – البراهمة – في كتابهم المقدس – الفيدا – إلى بعض المسلمين، عن طريق الذين يتلقفون كل وافد من الأفكار، وهي ليست أول وآخر فكرة انتقلت من الفكر البراهمي إلينا، يعرف ذلك كل من وقف على حقيقة ذلك الفكر.

إن رواج فكرة – الصَّرْفة – يؤدي الى أن القرآن الكريم ليس في درجة من الفصاحة والبلاغة تمنع محاكاته، وتعجز القدر البشرية عن أن تأتي بمثله، فالإعجاز القرآني عند القائلين – بالصَّرْفة – ليس من صفات القرآن الذاتية، وبالتالي ما دامت بلاغة القرآن لا تزيد على بلاغة سائر الناس، فمؤدى كلامهم: أن يكون القرآن من جنس ... كلام البشر (١٧٤)

وحول كيفية انتقال القول بالصرفة إلى رحاب المسلمين يوضح ويجلي ذلك

الرافعي حيث يقول–رحمه الله–: (١٧٥)

"لما نجَمَت آراء المعتزلة بعد أن أقبل جماعة من شياطينها على دراسة كتب الفلسفة مما وقع إليهم عن اليونان وغيرهم نبغت لهم شؤون أخرى من الكلام، فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظرًا صرفًا، وبين الدين على كونه

١٧٣– يُنظر: المعجزة الكبرى – القرآن : لمحمد أبي زهرة – ص ٦٩–٧١ ، طبع دار الفكر العربي بالقاهرة – (د– ت).

١٧٤ – إعجاز القرآن الكريم بقلم: سامي عطا الجيتاوي–عن موقع دنيا الوطن، بتاريخ: ٢٠٠٦/٦/١٥م. بتصرف.

١٧٥– مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨ – ١٣٥٦ هـ = ١٨٨١ – ١٩٣٧ م)

مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي:

عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. شعره نقي الديباجة، على جفاف في أكثره. ونثره من الطراز الأول. له عدد من الدواوين الشعرية و الأدبية، وغيرها من المصنفات.

يُنظر: المنتخب من أدب العرب ١: ٥٥ ومحمود بسيوني، في مجلة الرابطة العربية ١٨ ربيع الأول ١٣٥٧ والمقتطف ٧٣: ٣٥٢ وتراجم علماء طرابلس ٢١١ في آخر ترجمة عمه عبد الحميد بن سعيد الرافعي ومعجم المطبوعات ٩٢٦ والفهرس الخاص – خ وتعليقات عبيد. مع تصرف واختصار يسير من الباحث.

شبكة الألوكة www.alukah.net

يقينًا محضًا... فذهب شيطانُ المتكلمين أبو إسحاق إبراهيم النَّظام(١٧٦) إلى أن الإعجاز كان بالصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقًا للمادة (١٧٧).

وقد تكلم عدد من الباحثين حول قضية نشأة القول بالصرفة وذكروا أقوالًا مفادها أنه لا علاقة بالبراهمة بهذا القول، ولا يوجد أحد من القدامى أشار أو نبه على ذلك الأمر.

ومما ذكر في ذلك قول أحد الباحثين:

".... ويبدو الرأي الثاني – أي أن هذا القول من بيئة العرب قولًا خالصًا لا من غيرهم – في نظري هو الأقرب للصواب، نظرًا لعدم ورود أي إشارة من العلماء القدامى الذين تحدّثوا عن هذه القضية تشير لا من قريب ولا من بعيد إلى كون الفكرة مستقاة من البراهمة أو من غيرهم ". (١٧٨).

المطلب الثالث: ذكر أقوال المتقدمين القائلين بتأكيد تلقي النَّظام لفكرة القول بالصرفة من الفلاسفة

ويبدوا أن أصحاب هذا الرأي لم يقفوا على ما ذكره بعض المتقدمين، ونسوق بعض أقوالهم ليتبين ويتضح بالبرهان الساطع منشأ القول بالصرفة ومصدر تلقيه الأول كان من البراهمة، وأن أصحاب هذا الرأي قد أصابوا الحق فيه ومن هذه الأقوال

١– قول أبي منصور البغدادي التميمي(ت: ١٠٣٧هـ) **حيث يقول–رحمه الله– عن النَّظام:**

"وأعجب – أي النَّظام – بقول البراهمة بإبطال النبوات ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفًا من السيف فأنكر إعجاز القران في نظمه وأنكر ما روى في معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم". (١٧٩).

١٧٦– إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري أبو إسحاق النظّام، من أئمة المعتزلة، ذكروا أن له كتبًا كثيرة في الفلسفة والاعتزال، وقال عنه الجاحظ: في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن كان ذلك صحيحًا فأبي إسحاق من أولئك. (ت: ٢٣١هـ). الأعلام: (٤٣/١)، فوات الوفيات: (٢٣/١).، وقيل: (ت: ٢٢٤هـ).

١٧٧ – الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: (ص: ١٠١). دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م.

١٧٨ – التركي، إبراهيم بن منصور، القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم، بحث منشور على الشبكة بصيغة: بي دي إف، (ص: ٧).

١٧٩ – البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة – بيروت الطبعة الثانية، ١٩٧٧،

شبكة الألوكة www.alukah.net

٢- قول أبي المظفر الإسفراييني(١٨٠) حيث يقول-رحمه الله- عن النَّظام:

"كَانَ يصحب ملحدة الفلاسفة (١٨١) وقال عنه أيضًا: وَمن فضائحه – النَّظام – قَوْله فِي الْقُرْآن أَنه لَا معْجزَة فِي نظمه وَكَانَ يُنكر سَائِر المعجزات مثل انشقاق الْقَمَر وَأَن كَانَ قد نطق بِهِ الْقُرْآن(١٨٢) فِي قَوْله {اقْتَرَبت السَّاعَة وَانْشَقَّ الْقَمَر} (القمر: ١) وَكَذَلِكَ كَانَ يُنكر تَسْبِيح الْحَصَى فِي يَده ونبوع المَاء من بَين أَصَابِعه وَكَانَ فِي الْبَاطِن يمِيل إِلَى مَذْهَب البراهمة الَّذين يُنكرُونَ جَمِيع الْأَنْبِيَاء فَتكلم بِهَذَيْنِ المذهبين اللَّذين يبطل أَحدهمَا حدث الْعَالم وَالْآخر يبطل ثُبُوت النُّبُوَّة وَكَانَ لَا يقدر على إِظْهَار مَا كَانَ يضمره من الْإِلْحَاد(١٨٣).

٣- قول عضد الدين الإيجي (١٨٤) حيث يقول-رحمه الله- عن النَّظام:

"... النَّظام وهو من شياطين القدرية طالع كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة(١٨٥) وتابع عنه وعن أتباعه بتأثرهم في الفلاسفة وأنه مال في بعض المسائل إلى قول الطبيعيين، إلى أن قال: وقالوا نظم القرآن ليس بمعجز إنما المعجز إخباره بالغيب من الأمور السالفة والآتية، وصرف الله العرب عن الاهتمام بمعارضته حتى لو خلاهم لأمكنهم الإتيان بمثله بل بأفصح منه(١٨٦).

"وبعد هذه النقول يتبين لنا أصل موضوع الصرفة، ومن ثم يتبين لنا كذلك أول من قال بها ممن ينتسب للمسلمين وروجها، فمصدرها البراهمة وأخذها النَّظام، والقدماء نسبوها له بشكل مستفيض، وعلى زعم أن النَّظام لم يقل بهذا لم يرد ولو نص واحد ينسب للنَّظام لا له ولا لتلامذته ولا لمخالفيه يقول بعكس ما نسب إليه من القول

١٨٠- شَاهْفُوْرُ أَبُو المظَفَّرِ طَاهِرُ بنُ مُحَمَّدٍ الإِسْفَرَايِيْنِيُّ ، العَلاَّمَةُ، المُفْتِي، أَبُو المظَفَّرِ طَاهِرُ بنُ مُحَمَّدٍ الإِسفرَايِينِيّ، ثُمَّ الطُّوْسِيُّ، الشَّافِعِيُّ، صَاحِبُ (التَّفْسِيْرِ الكَبِيْرِ).

كَانَ أَحَدُ الأَعْلاَمِ. حَدَّثَ عَنِ: ابْنِ مَحمِش، وَأَصْحَاب الأَصَمّ .رَوَى عَنْهُ: زَاهِرٌ الشَّحَّامِيّ، وَغَيْرُهُ.

صَاهر الأُسْتَاذ أَبَا مَنْصُوْرٍ البَغْدَادِيّ .تُوُفِّيَ: بطُوسَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَة .سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٠١).

١٨١ – الإسفراييني، طاهر بن محمد أبو المظفر، ت ٤٧١ هـ، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، المحقق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، (ص ٧١).

١٨٢ – عبارة "نطق بِهِ الْقُرْآن" وما في نحوها لا تليق بالقرآن أبدًا، لأن الذي ينطق ويتكلم هو المخلوق، والقرآن الذي هو كلام الله "منزل غير مخلوق". الباحث.

١٨٣ – التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، ص ٧٤

١٨٤-عَضُد الدين الإيجي: (.....٧٦٥هـ-.....-١٣٥٥م)

عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عَضُد الدين الإيجي: عالم بالأصول والمعاني والعربية. من أهل إيج (بفارس) ولي القضاء، وأنجب تلاميذ عظامًا. وجرت له محنة مع صاحب كرمان، فحبسه بالقلعة، فمات مسجونًا.

يُنظر: بغية الوعاة ٢٩٦، ومفتاح السعادة ١: ١٦٩، والدرر الكامنة ٢: ٣٢٢ وطبقات السبكي ٦: ، والكتب خانة ٤: ١٤٥ ثم ٧: ١٦٠، ومعجم المطبوعات ١٣٣١

١٨٥ – الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، المواقف، دار الجيل – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧،تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، (ج ٣، ص ٦٦١).

١٨٦ – السابق، ص ٦٦٣

شبكة الألوكة www.alukah.net

بالصرفة، فلو وجد لسطر كما سطرت أقواله الأخرى، وكما ينقل عن الكثير من الأئمة أقوالهم، ولو كانت متعددة حتى ولو في المسألة الواحدة، فهناك الكثير من أراء ومسائل لعلماء نقلت إلينا آرائهم في المسألة الواحدة ربما أكثر من خمسة أراء، فإذا لم يوجد يبقى الرأي المنسوب إليه منصوب على قدميه، حتى يأتينا ما يخالفه أو يناقضه، أو ما يرده، وإلى ذلك الوقت سيبقى ما نسب إليه منسوب". (١٨٧)

المبحث الثالث: أبرز أقوال القائلين بالصرفة من المعتزلة وغيرهم

وفيه خمسة مطالب:

وبين يدي هذا المبحث الهام جدير بنا أن نعرف بالمعتزلة ومنهجهم في خطوات مختصرة جدًا على النحو التالي:

أولًا: التعريف بالمعتزلة

المعتزلة فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة مما أدى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنة والجماعة. وقد أطلق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية والعدلية وأهل العدل والتوحيد والمقتصدة والوعيدية. (١٨٨)

ثانيًا: منهجها

"وهي فرقة عقلانية كلامية فلسفية، تتكون من طوائف من أهل الكلام، الذين خلطوا بين الشرعيات والفلسفة والعقليات في كثير من مسائل العقيدة، وقد خرجت المعتزلة

عن السنة والجماعة في مصادر التلقي ومناهج الاستدلال ومنهج تقرير العقيدة وفي أصول الاعتقاد". (١٨٩)

ثالثًا: نشأتها

الواقع أن نشأة الاعتزال كانت ثمرة تطور تاريخي لمبادئ فكرية وعقدية وليدة النظر العقلي المجرد في النصوص الدينية، وقد نتج ذلك عن التأثر بالفلسفة اليونانية والهندية والعقائد اليهودية والنصرانية؛ فقبل بروز المعتزلة كفرقة فكرية على يد واصل بن عطاء كان هناك جدل ديني فكري بدأ بمقولات جدلية كانت هي الأسس الأولى للفكر المعتزلي، على أن هناك رواية ترجع الفكر المعتزلي في نفي الصفات إلى أصول يهودية فلسفية؛ فالجعد بن درهم أخذ فكره عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي (١٩٠).

١٨٧- يُنظر: الصرفة ونشأتها بين مؤيد ومعارض لمحمد فقهاء، بحث عن موقع الألوكة: (ص: ٢٠).

١٨٨- الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المؤلف: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة للنشر; عدد المجلدات: ٢; (ص: ٦٩).،المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية: (ص:٧٣).

١٨٩- ناصر العقل: الجهمية والمعتزلة ص١٢٧.

١٩٠- شيخ الإسلام ابن تيمية: مجموع الفتاوى: (٢٠/٥)

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقيل أيضًا: إن مناقشات الجهم بن صفوان مع فرقة السمنية(١٩١) قد أدت إلى تشكيكه في دينه، وابتداعه لنفي الصفات, كما أن فكر يوحنا الدمشقي وأقواله تُعدُّ موردًا من موارد الفكر الاعتزالي؛ إذ إنه كان يقول بالأصلح، ونفي الصفات(١٩٢) الأزلية وحرية الإرادة الإنسانية(١٩٣).

رابعًا: بروزها

وقد برزت المعتزلة بعد ذلك كفرقة فكرية على يد واصل بن عطاء الذي كان تلميذًا للحسن البصري، وذلك عندما دخل رجل على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا؟

فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء(١٩٤): أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا ولا كافر مطلقًا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد، يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل؛ فسمي هو وأصحابه معتزلة(١٩٥). ولأجل هذا سمَّاهم المسلمون معتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها(١٩٦).

وكان علماء التابعين في ذلك العصر مع أكثر الأمة يقولون: إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن؛ لما فيه من معرفته بالرسل والكتب المنزلة من الله تعالى، ولمعرفته بأن ما جاء من عند الله حق، ولكنه فاسق بكبيرته، وفسقه لا ينفي عنه اسم الإيمان والإسلام، وعلى هذا القول مضى سلف الأمة من الصحابة وأعلام التابعين. (١٩٧)

١٩١-السمنية: بعض فلاسفة الهند، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات. يُنظر: شيخ الإسلام ابن تيمية: مجموع الفتاوى: (٢٢/٥).

١٩٢-نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن ابن عبد البر قوله: "أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يَحُدُّون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبِّه وهم -عند من أقر بها- نافون للمعبود، والحق فيها ما قال القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهم أئمة الجماعة. يُنظر: شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٦٤/٣).

١٩٣- يُنظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: (ص:٦٤) وما بعدها.

١٩٤- واصل بن عطاء الغزَّال، البصري المتكلم، كبير المعتزلة، ولد سنة (٨٠هـ) ومات سنة (١٣١ هـ)، كان تلميذًا للحسن البصري فحصل خلاف بينه وبين شيخه الحسن البصري، فطرده من مجلسه.

١٩٥ - الشهرستاني: الملل والنحل ٦١/١، ٦٢.

١٩٦-البغدادي: الفرق بين الفرق: (ص١٠٥).

١٩٧-المرجع السابق نفسه: (ص١٠٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

.خامسًا: انتشارها

ولقد "انتشرت حركة الاعتزال في أنحاء الممالك الإسلامية واستقطبت شخصيات بارزة، أمثال: واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبي الهذيل العلاف، وإبراهيم النَّظام وغيرهم، وقد كان لهذه الشخصيات تأثير بعيد المدى في مختلف ميادين الحياة العقلية، فنظرية المعرفة عندهم كانت تستند على العقل، كونهم أطلقوا العنان للعقل في البحث في جميع المسائل من غير أن يحده أي حد، وجعلوا له الحق في أن يبحث في السماء، وفي الأرض، وفي ذات الله تعالى، وفي الإنسان، وفيما دق وجل. " (١٩٨)

سادسًا: انقسامها

لقد انقسمت المعتزلة إلى فرق شتى، تسمى كل منها باسم زعيمها، ومن أبرز تلك الفرق:

أ- الواصلية:(أصحاب واصل بن عطاء المخزومي- مولاهم-) (ت: ١٣١هـ)

ب- النَّظامية: (أصحاب إبراهيم بن سيّار النَّظام). (ت: ١٨٥هـ)

ج- الجاحظية: (أصحاب الجاحظ) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري (ت: ٢٥٥ هـ)

سابعًا: أصوله مذهبها

ورغم عن هذا الانقسام، إلا أن ثمة أصول خمسة ظلت تجمع فرق المعتزلة ألا وهي: التوحيد، العدل، الوعد، الوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي نحو ذلك يقول الخياط أحد كبرائهم في كتابه "الانتصار":

" ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت في الإنسان هذه الخصال الخمس، فهو معتزلي". (١٩٩)

ثامنًا: أبرز أسباب توسع أفكارها عن الأصول الخمسة

إن المعتزلة كغيرها من الفرق بدأت بأفكار ومعتقدات مختصرة ومحدودة ومحصورة في أصولهم الخمسة التي ذكرها الخياط آنفًا. ولكن تعمقهم وتوسعهم في بحثها والتنقيب عن شرح معانيها، فتفرع عن بحثهم وتنقيبهم هذا مسائل فرعية عدة منبثقة عن تلك الأصول الخمسة وعن غيرها أيضًا، وكان ذلك لأسباب عدة لعل من أبرزها.

١٩٨- ضحى الإسلام - أحمد أمين: (٣/ ٨٦). بتصرف.

والكاتب "أحمد أمين" -هذا- أحد رؤوس العصرانيين " العقلانيين " في عصرنا ، ممن عظموا العقل حتى ردوا به أحاديث المعصوم صلى الله عليه وسلم، وانتصروا للمعتزلة ضد أهل السنة – وطالع ما يقول عنه ولده جلال في مذكراته: (ص ٣٠٣-٣٠٤) يتبين لك أمر الرجل.

١٩٩- الانتصار: (ص:١٢٦).

شبكة الألوكة www.alukah.net

أ– أنهم لم يتقيدوا بنصوص وحيي التنزيل "الكتاب والسنة"، واعتمدوا على العقل وبالغوا في ذلك حتى قدموه على النقل، مما كان له أعظم وأبلغ الأثر في وقوع الخلاف والاحتدام فيما بينهم البعض.

ب– أنهم انفتحوا على مطالعة ومدارسة كتب الفلسفة اليونانية، فقد استمدوا أفكارها منها ومزجوها وخلطوها بالعقيدة الإسلام الصحيحة المنبثقة من الوحي المنزل، فتشعبت بهم الأهواء بسبب سوء المصدر الفلسفي اليوناني وعدم لزومهم وتقيدهم بنصوص الكتاب والسنة، فنتج عن ذلك اختلاف في الآراء، وزاد بينهم الجدل العقيم، واشتد بينهم الحوار والتنازع والانقسام إلى فرق شتى أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين فرقة، وأصبح لكل فرقة منها رؤساؤها وآراؤها وأفكارها الخاصة بها.

وهذا أمر لا غرابة فيه، فالسنة تجمع والبدعة تفرق، فأهل الحق سُمُّوا بـ "أهل السنة والجماعة" بسبب لزومهم السنة واجتماعهم عليها، وأهل الباطل سُمُّوا بـ " أهل البدعة والاختلاف" بسبب تفرقهم وتنازعهم.

نسأل الله تعالى الثبات على الإسلام والسنة والجماعة حتى نلقاه سبحانه، وحتى نرد حوض المعصوم صلى الله عليه وسلم ونشرب منه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا يوم يقول لأهل البدع سحقًا سحقًا، فقد ثبت في الصحيحين من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الساعدي رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا، لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي". (٢٠٠).

يقول الإمام الشاطبي(ت: ٧٩٠هـ) **رحمه الله:**

"**ولقوله:** (قد بدلوا بعدك)، ولو كان الكفر: لقال: " قد كفروا بعدك"، وأقرب ما يحمل عليه: تبديل السنة، وهو واقع على أهل البدع

ومن قال: إنه النفاق: فذلك غير خارج عن مقصودنا؛ لأن أهل النفاق إنما أخذوا الشريعة تقيةً، لا تعبدًا، فوضعوها غير مواضعها، وهو عين الابتداع ويجري هذا المجرى كل من اتخذ السنَّة والعمل بها حيلةً وذريعةً إلى نيل حطام الدنيا، لا على التعبد بها لله تعالى؛ لأنه تبديل لها، وإخراج لها عن وضعها الشرعي". (٢٠١)

قال النووي(ت: ٦٧٦هـ) **رحمه الله معلقًا على الحديث:**

"هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال:..... والثالث: أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام". (٢٠٢)

٢٠٠- رواه البخاري: (٦٢١٢)، ومسلم: (٢٢٩٠).

٢٠١- الاعتصام: (١ / ٩٦).

٢٠٢- شرح النووي على مسلم: (٣ / ١٣٦ ، ١٣٧).

شبكة الألوكة www.alukah.net

قال القرطبي (ت: ٦٧١هـ) **رحمه الله:**

"**قال علماؤنا–رحمة الله عليهم أجمعين–**: فكلُّ مَن ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله: فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طردًا: مَن خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدِّلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور، والظلم، وتطميس الحق، وقتل أهله، وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ، والأهواء والبدع". (٢٠٣)

المطلب الأول: أول من قال بالصَّرْفَةِ من المعتزلة

كان إبراهيم النَّظام الذي هو أحد رؤوس هؤلاء المعتزلة، هو أول من قال بالصَّرْفَةِ منهم وفي ذلك **يقول عنه محمد أبو زهرة:**

"فهو أول من جاهر به، وأعلنه ودعا إليه، ولاحى عنه، كأنه مسألة من مسائل علم الكلام، ونقول إنه أول من جهر به، ولا نقول إنه أول من فكر فيه، أو أول من ابتدأ القول به، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهي تتكون في خلاياها، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر، ويجاهر بها.

جاهر بها، وكان ذا فصح وبيان وحجة وبرهان، وإن لم يكن مستقيم الفكر، بل إنه يظن الظن فيحسبه يقينًا، ثم يبني عليه ويقايس، ويصحح القياس والتنظير بين الأشياء، بينما الأصل ذاته يحتاج إلى قياس صحيح". (٢٠٤).

يقول عنه تلميذهُ الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ):

"وَإنما كان عيبُهُ الذي لا يفارقه سوءَ ظنِّهِ وجَودةَ قياسِهِ عَلَى العارض والخاطر،

... كان يظنُّ ثمَّ يقيس عليه وينسى أنَّ بدءَ أمرِهِ كان ظَنًّا فإذا أتقنَ ذلك وأيقنَ جَزَم عليهِ". (٢٠٥)

"ولم يكن رد الجاحظ على شيخه رد المجادل المحاور، ولكنه كان بالعمل، فقد كان أول من كتب في إعجاز القرآن من الناحية البيانية؛ ليكون الرد على الصرفة ببيان الإعجاز الذاتي". (٢٠٦)

وليتجلى الأمر بصورة أوضح

فقد "كان النَّظام – ابراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري من الموالي، وإليه تنتسب الفرقة النظامية(٢٠٧) –أول من اقترن اسم الصَّرْفَةِ باسمه، واشتهر أنه أول المنادين بها، وقيل له – النَّظام – لأنه كان ينظم الخرز في سوق

٢٠٣– التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة: (ص ٣٥٢)

٢٠٤ – يُنظر: أبو زهرة، المعجزة الكبرى للقرآن، ص : ٥٩، الشاملة الحديثة.

٢٠٥– الحيوان للجاحظ: (٢/٢٢٩–٢٣٠) .

٢٠٦– يُنظر: أبو زهرة، المعجزة الكبرى للقرآن، (ص : ٥٩)، الشاملة الحديثة.

٢٠٧–النظامية أصحاب إبراهيم بن سيار بن هانئ النظّام طالع كثيرًا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة. يُنظر: الملل والنحل–الشهرستاني: (١/ ٦١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

البصرة، تتلمذ على خاله أبي الهذيل العلاف في الاعتزال، ثم انفرد عنه وكون مذهبًا خاصًا به، مات في ريعان شبابه (سنة ٢٣١ للهجرة)عن ست وثلاثين عامًا، وكان أستاذ – الجاحظ – ([٢٠٨])، ترجم له أبو منصور البغدادي – في كتابه – الفرق بين الفرق – عند ذكره الفرقة النظامية فقال:– (عاشر النَّظام في شبابه قومًا من الثنوية ([٢٠٩]) وقومًا من السمنية ([٢١٠]) القائلين بتكافؤ الأدلة، وخالط قومًا من ملاحدة الفلاسفة، ثم دون مذاهب الثنوية، وبدع الفلاسفة، وشبه الملاحدة في دين الإسلام، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفًا من السيف، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه، وأنكر ما روي في معجزات نبينا – صلى الله عليه وسلم – من انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في يده، ونبع الماء من بين أصابعه، ليتوصل بإنكار معجزات نبينا – عليه السلام – الى إنكار نبوته، ثم أنه استثقل أحكام شريعة الإسلام في فروعها، ولم يجسر على إظهار رفعها، فأبطل الطرق الدالة عليها، فأنكر لأجل ذلك حجية الإجماع، وحجية القياس في الفروع الشرعية، وأنكر الحجة من الأخبار التي توجب العلم الضروري ثم إنه ذكر الصحابة بما يقرؤها غدًا في صحيفة مخازيه، وطعن في فتاوى أعلام الصحابة – رضي الله عنهم – ثم قال: – والفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه – أي النَّظام –: أن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته، ليست بمعجزة للنبي – عليه الصلاة والسلام –، ولا دالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه، ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فان العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف" ([٢١١]).

وقد تبنت الفرقة – النَّظامية – بالإضافة الى ما تقدم من مخالفات لجماعة المسلمين، آراء شاذة في العقائد منها: أن الله لا يقدر أن يفعل بعباده في الدنيا ما لا صلاح فيه، ولا أن يزيد وينقص من عقاب وثواب، والتواتر يحتمل الكذب، وأوجبوا النص على الإمام، وثبوت الإمامة لعلي –رضي الله عنه –لكن عمر– رضي الله عنه – كتمه... ([٢١٢]).

٢٠٨–المعتزلة – زهدي حسن جار الله – منشورات النادي العربي في يافا – ١٩٤٧م – ص ١٢٠–١٢٩.

٢٠٩– الثنوية: قوم يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، يُنظر: الملل والنحل : للشهرستاني: الإمام أبي الفتح بعد الكريم (ت: ٥٨٤ هـ) ج ١ / ص ٨٠ بهامش الفصل . دار صادر – بيروت.

٢١٠– السمنية: فرقة هندية قالت بقدم العالم وبتناسخ الأرواح –يُنظر: الفرق بين الفرق – للبغدادي الفصل الثاني عشر ص ٢٧٠.

٢١١– الفرق بين الفرق: لعبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) ص ١٢٨–١٥٠، تحقيق – لجنة إحياء التراث العربي – بيروت – ١٩٨٧م.

٢١٢– مباحث في إعجاز القرآن – د. مصطفى مسلم ، الطبعة الثانية – دار المسلم بالرياض – سنة ١٩٩٦م، نقلا عن لوامع الأنوار لمحمد بن أحمد السفاريني – ج١ / ص ٧٨.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ) **في الملل والنحل:**

"والنظَّامية: أصحاب ابراهيم بن سيار بن هانئ النظَّام.، وإبراهيم النظَّام قد طالع كثيرًا من كتب الفلاسفة، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، وانفرد عن أصحابه بمسائل منها: قوله في إعجاز القرآن أنه من حيث إخباره عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبرًا وتعجيزًا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغة، وفصاحة، ونظمًا.... " (٢١٣)

ففي رأي – النَّظام – إذن: أن الله قد صرف أوهام العرب عن معارضة القرآن، فانصرفوا عن ذلك، وتعذرت عليهم المعارضة، لا لأن القرآن في حد ذاته خارج عن طوق البشر، أو خارقًا لمقدرتهم، ومألوف عادتهم، فهو في ذلك لا يتفوق على البليغ الفصيح من كلام العرب، ولا تكاد تكون له مزية أو فضل في ذلك، ولو ترك لهم المجال، وأفسح أمامهم الطريق، لأتوا بمثل القرآن فصاحة، وبلاغة، وحسن نظم، وتأليف.... (٢١٤)

نعوذ بالله من الخذلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المطلب الثاني: القائلون بالصرفة من المعتزلة غير النظّام

ليس القول بالصرفة مقصورًا على النظّام كما يظنه البعض بل لقد سلك هذا الطريق أقوام كُثُر سواء من المعتزلة أو من غيرهم كذلك.

وإن كان النظّام أبرز من قال بالصرفة من المعتزلة، فقد تابعه عليه كذلك أقوام وكان من أبرز هؤلاء كل من:

١- عيسى بن صبح المكنى بأبي موسى المُزدار (ت: ٢٢٦هـ): كان معروفًا بالناسك وقد تلمذ لبشر بن المعتمر وأخذ العلم عنه وتزهد ويسمى راهب المعتزلة. (٢١٥)، وقد تلمذ له أيضًا الجعفران،

والجعفران هما:

أ- جعفر بن حرب الثقفي المعتزلي العابد أبو الفضل: (ت: ٢٣٤هـ) من نساك القوم وله تصانيف.

ب- وجعفر بن مبشر الهمداني المعتزلي البغدادي أبو محمد: (ت: ٢٣٦هـ) الفقيه البليغ كان مع بدعته يوصف بزهد وتأله وعفة.

وكان الجعفران سيدا معتزلة بغداد في عصرهما، ومضربا المثل في العلم والعمل عندهم.

كما تلمذ له أيضًا أبو زفر وهو من مصنفي المعتزلة، ومحمد بن سويد المعتزلي.

... وصحبه (أبو جعفر) محمد بن عبد الله الإسكافي وعيسى بن الهيثم وجعفر بن حرب الأشج. وحكى الكعبي عن الجعفرين أنهما قالا: إن الله تعالى خلق القرآن(٢١٦) في اللوح المحفوظ ولا يجوز أن ينقل إذ يستحيل أن يكون

٢١٣-الملل والنحل – للشهرستاني : ج١ / ص ٦٧ بهامش الفصل.

٢١٤- إعجاز القرآن الكريم(مرجع سابق) بقلم: سامي عطا الجيتاوي-عن موقع دنيا الوطن، بتاريخ: ٢٠٠٦/٦/١٥م. بتصرف.

٢١٥-الملل والنحل للشهرستاني: (١ / ٦٨). بتصرف يسير.

٢١٦- وذلك لأن المعتزلة يقولون بخلق القرآن، وأما أهل السنة فيقولون بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق. الباحث.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الشيء الواحد في مكانين في حالة واحدة وما نقرؤه فهو حكاية عن المكتوب الأول في اللوح المحفوظ وذلك فعلنا وخلقنا. (٢١٧).

وقد تولى المزدار رئاسة المعتزلة ببغداد (٢١٨).

وقال في القرآن: إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظمًا وبلاغة،

وهو الذي بالغ في القول بخلق القرآن وكفر من قال بقدمه. (٢١٩)

وهو الذي نُسِبَ إليه القول بأن: (الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن وبما هو أفصح منه). (٢٢٠)

٢–عباد بن سليمان الصخري: معتزلي من أهل البصرة من تلامذة هشام بن عمرو القوطي. (٢٢١)

٣– القاضي هشام بن عمرو القوطي: بصري، عدّه القاضي في نهاية الطبقة السادسة من المعتزلة كان يحظى باحترام المأمون. (٢٢٢)

٤– أبو إسحاق النصيبي: من الطبقة الحادية عشرة من المعتزلة وكان يشك في النبوات كلّها. (٢٢٣)

٥– "الجاحظ" أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي (٢٢٤).

ولقد فنَّد (**الجاحظُ**) دعوى أستاذه (**النظّام**) في كتابٍ مفقودٍ سماهُ "الاحتجاج لنظم القرآن".

قال في مقدمته:

"فلم أدع فيه مسألةً لرافضي ولا لحديثي، ولا لحشوي ولا لكافر مباد، ولا لمنافق

مقموع، ولا لأصحاب النظّام، ولمن نجم بعد النظّام ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل، وليس ببرهان ولا دلالة". (٢٢٥)

ورجّح (الرافعي) أن الجاحظ تابع طائفته المعتزلة في القول **بالصَّرْفة**، وإن كان له رأيٌ في أن القرآن في الدرجة العليا من الفصاحة. يقول عنه: "لم يسلم... من القول **بالصَّرْفة**، وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها من عُرض". واستدل

٢١٧– المرجع السابق: (١ / ٦٩).

٢١٨–طبقات المعتزلة ص٧٠ الفرق بين الفرق ص١٥٤ د, عمر السلامي؛ الإعجاز الفني في القرآن ص ٥٢ . ٦٥

٢١٩–الملل والنحل للشهرستاني: (١ / ٦٨).

٢٢٠ –الفرق بين الفرق — ص ١٥٤.

٢٢١ – ابن النديم ؛ الفهرست ٢٦٩ ـ ٢٨٠

٢٢٢– طبقات المعتزلة ٦٩

٢٢٣–أبو حيان التوحيدي الإمتاع والمؤانسة: (١٤١/١).

٢٢٤– العلامة المتبحر، ذو الفنون، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي، صاحب التصانيف . أخذ عن النظام . وروى عن : أبي يوسف القاضي، وثمامة بن أشرس. قال ثعلب : ما هو بثقة . قلت : كان ماجنًا قليل الدين ، له نوادر مات سنة خمسين ومائتين . وقال الصولي : مات سنة خمس وخمسين ومائتين. . سير أعلام النبلاء: (٥٢٧/١١). بتصرف.

٢٢٥– نقلاً عن الإعجاز البياني: (ص: ٣٦٠).

شبكة الألوكة www.alukah.net

بقوله في كتاب "الحيوان": "ومثل ذلك ما رفع من أوهام العَرب وصرف نفوسهم عن المعارَضَةِ للقرآن بَعْدَ أنْ تحدَّاهم الرَّسولُ بنظْمه". (٢٢٦)

وقال العلامة محمود محمد شاكر:

"إن الجاحظ يقول **بالصَّرْفة** مثل شيخه (**النظّام**)، وأنه هو الذي أظهر هذا القول وأشاعه، لكنه أضاف إليها الإعجاز بالنظم. ولما رأى الجاحظ التناقض بين قوليه كاد أن يتراجع". (٢٢٧).

وقد نفى أحد الباحثين المعاصرين عن الجاحظ هذا الانتساب لمذهب الصرفة بتفريقه بين مراد الجاحظ ومراد شيخه. (٢٢٨)

والحقيقة: لقد وقع الجاحظ في التناقض والاضطراب لقوله بالصرفة – وإن اختلف مفهومه لها عن مفهوم أستاذه النظّام.

قال مصطفى صادق الرافعي:–

" أما الجاحظ فان رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها، غير أن الرجل كثير الاضطراب، فان هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا في منخل، ولذلك لم يسلم هو أيضًا من القول **بالصَّرْفة**..... ثم قال(**الرافعي**) مبررًا قول الجاحظ بالصرفة: وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما في نفسه من أمر أستاذه النظّام، وهو شيء ينزل على حكم الملابسة، ويعتري أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبه عليه، أو يكون هو ناقلًا ولا يدري... ". (٢٢٩)

وما قاله الرافعي عن الجاحظ هو القول العدل فيه الذي يشهد له كلام الجاحظ نفسه.

٦– "الرماني" علي بن عيسى أبو الحسن الرماني المعتزلي. (٢٣٠)

و**الصَّرْفة** عنده تشبه **الصَّرْفة** عند الجاحظ، فهي لا تقدح في بلاغة القرآن وحسن تأليفه، وإن كان الجاحظ فيه ما فيه من التناقض والاضطراب.

وقد ذكر الرماني أن القرآن في أعلى مراتب البيان، ولا يدانيه شيء من كلام فصحاء العرب وبلاغييهم، و**صَّرْفة** الرماني – كما هو الشأن عند الجاحظ – من فعل الله بالقوم، فهي إذن شيء خارج عن إرادتهم، ووقع عليهم بقدرة الله وتدبيره... .....

٢٢٦–إعجاز القرآن للرافعي: (ص: ١٠٢)

٢٢٧– محمود شاكر: مداخل إعجاز القرآن، (ص: ٥٦–٦٨)

٢٢٨– الإعجاز البلاغي للدكتور. محمد أبو موسى ، (ص: ٣٧٠)، ويُنظر مدونة: نورة الشريف–بتاريخ:٢٠٠٨/٦/١٣م.

٢٢٩– إعجاز القرآن — مصطفى صادق الرافعي — طبع المقتطف سنة ١٩٢٨م — ص ١٦٥.

٢٣٠– أبو الحسن الرماني (٢٩٦ – ٣٨٤ هـ = ٩٠٨ – ٩٩٤ م).

باحث معتزلي مفسر. من كبار النحاة. أصله من سامراء، ومولده ووفاته ببغداد. يُنظر: بغية الوعاة ٣٤٤ ووفيات الأعيان ١: ٣٣١ وسير النبلاء – خ. الطبقة الحادية والعشرون. وتاريخ بغداد ١٢: ١٦ ونزهة الألباب ٣٨٩ ومفتاح السعادة ١: ١٤٢ وإنباه الرواة ٢: ٢٩٤.

شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول الرماني:

"وأما **الصَّرْفة** فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الاعجاز.. " (٢٣١)

وقول الرماني لا يحتاج إلى زيادة بيان، إذ إنه يقول **بالصَّرْفة** ويرى أنها أحد وجوه الإعجاز عند المعتزلة.

٧- القاضي عبد الجبار

القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبدالله

(٢٣٢). الأسد آبادي المعتزلي

وبسبب المعتقدات الفاسدة التي يعتقدها النظّام ويتبناها ويقول بها فقد كفره جمع من العلماء هو وفرقته، حتى إن بعض المعتزلة أنفسهم قد كفره كذلك.

موقف القاضي عبد الجبار وقوله في الصَّرْفة

القاضي عبد الجبار: " قد خالف جميع من تقدموه ممن تحدثوا عنها، ولم يرض عن تفسيراتهم، وأعطى القضية بعدًا أعمق، وفهما أنضج فقد أبعد مفهوم الجبرية الذي ساد في حديث - النظّام - والجاحظ- والرماني - عنها، لأنها كانت عندهم جميعا شيئًا خارجًا عن إرادة القوم، مجبورين عليه جبرًا". (٢٣٣)

وقدم بين يدي ذلك أدلة منها:-

أولًا: لو كانوا ممنوعين من الإتيان بكلام فصيح، أو قول بليغ، لكان ذلك لا يختص بكلام دون كلام، وأنه لو حصل ذلك في ألسنتهم، لما أمكنهم الكلام المعتاد، ولكن القوم ظلوا يتكلمون ويأتون بالقول الفني الممتاز، ولم ينحدر مستوى بيانهم أو يهبط، ولكنه كان - على علوه - لا يرقى الى مستوى القرآن.

ثانيًا: ولو ثبت هذا المنع لكان في حد ذاته هو المعجز وليس القرآن، فان من سلك هذا المسلك في القرآن، يلزمه أن لا يجعل له مزية ألبتة.

٢٣١- النكت في إعجاز القرآن – علي بن عيسى الرماني – (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر – ص ١١٠ تحقيق محمد خلف الله أحمد وزميله.

٢٣٢- القاضِي عبد الجبار (٠٠٠ - ٤١٥ هـ = ٠٠٠ - ١٠٢٥ م).

عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين المعتزلي:

العلامة المتكلم ، شيخ المعتزلة، أبو الحسن الهمذاني صاحب التصانيف ، من كبار فقهاء الشافعية ولي قضاء القضاة بالري، وتصانيفه كثيرة تخرج به خلق في الرأي الممقوت . مات في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة من أبناء التسعين.

سير أعلام النبلاء، الطبقة الثانية والعشرون، القاضي عبد الجبار (١٧/٢٥٤).

٢٣٣-التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة – د. وليد قصاب – الدوحة – دار الثقافة – ط أولى سنة ١٩٨٥م – ص ٣٢٠.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثالثًا: ولو ثبت هذا المنع بأية صورة من صوره لبطل بعض القرآن، ولما كان صحيحًا قوله تعالى:- (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) (الإسراء: ٨٨)

رابعًا: القول **بالصَّرْفة** يتعارض مع الآية السابقة، لأنه لا يقال في الجماعة إذا امتنع عليها الشيء: إن بعضها يكون ظهيرًا لبعض، لأن المعاونة والمظاهرة، انما تمكن مع القدرة، ولا تصح مع العجز والمنع)[٢٣٤].

وبعد أن قدم – القاضي عبد الجبار– هذه الأدلة التي نقض بها مفهوم من تقدموه عن – **الصَّرْفة** –، توصل القاضي الى مفهوم جديد **للصَّرْفة**، وهو في هذه المرة يرتبط بالقوم أنفسه، وليس شيئًا خارجًا عنهم، أو مفروضًا عليهم فرضًا، وهذا المفهوم: هو

إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم بأنها غير ممكنة على ما دللنا عليه، ولولا علمهم بذلك لم تكن لتنصرف دواعيهم، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعًا لمعرفتهم بأنها متعذرة عليهم.. [٢٣٥].

فهي **صَّرْفة** تشبه اليأس الذي يعتري الانسان من أمر ما حاوله عدة مرات، وكان يمنى كل مرة بالإخفاق الذريع، فإذا بعزيمته تتثبط، وهمته تنهار، وذلك كان شأن القوم مع القرآن، فلم يكن تركهم للمعارضة لأمر خارجي، وانما لإحساسهم باليأس، وتيقنهم من العجز عن الاتيان بمثل القرآن

يقول القاضي عبد الجبار:

" واعلم أن الخلاف في هذا الباب أنا نقول: إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم أنها غير ممكنة، ولولا علمهم بذلك لم تكن لتنصرف دواعيهم، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعًا لمعرفتهم بأنها متعذرة، وهم يقولون: ان دواعيهم انصرفت مع التأتي، ولأجل انصراف دواعيهم، لم يأتوا بالمعارضة مع كونها ممكنة، فهذا موضع الخلاف.. " [٢٣٦].

ثم يُنهي – القاضي عبد الجبار – حديثه عن مفهومه للصرفة فيقول:–

" فالصحيح ما قلناه، من أنهم علموا بالعادات تعذر مثله، فصار علمهم صرفًا عن المعارضة.. " [٢٣٧].

فالصَّرْفة بهذا المفهوم الجديد عند القاضي عبد الجبار، ليست تلك **الصَّرْفة** التي عند – النظّام – أو – الجاحظ، والتي تعني: القهر والجبر، وإنما هي **صَّرْفة** ذاتية، فهم أدركوا بالفطرة أن أسلوب القرآن في علوه وسموه، وروعة نظمه

---

٢٣٤ – المغني في أبواب التوحيد والعدل – ج ١٦ – للقاضي عبد الجبار – تحقيق: أمين الخولي – وزارة الثقافة والإرشاد القومي – بمصر ج١٦/ ص ٣٢٣.

٢٣٥–المرجع السابق ج١٦/ص ٣٢٤.

٢٣٦ – المرجع السابق نفسه ، ونفس الجزء والصفحة.

٢٣٧– المرجع السابق ج١٦ / ص ٣٢٥.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وبيانه، لا يمكن مجاراته ومعارضته، فانصرفوا ذاتيًا بلا قهر أو جبر من قوة خارجية عن المعارضة، اقتناعًا منهم ويقينًا بالعجز، فالأمر في الحقيقة: انصراف.. وليس **صَّرْفة**.. (٢٣٨).

وبذلك يكون القاضي عبد الجبار أقل القوم وأضعفهم تعسفًا في قضية القول **بالصَّرْفة**.

المطلب الثالث: القائلون بالصَّرْفة من غير المعتزلة، من الأشاعرة وغيرهم.

أما الأشاعرة: فَجُلّهم إنّما يقبل بنظرية **الصَّرْفة** إمّا كوجه ثانوي من أوجه الإعجاز فهو عندهم تابع للوجه الأوّل، والأهمّ وهو إعجاز القرآن بنظمه وذاته، وإمّا يقولون بها من باب المجادلة والمنافحة عن الحق لا غير.

ثانيًا: ما ينسب إلى أبي الحسن الأشعري(ت: ٣٢٤هـ)

يقول الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (ت:٥٤٨هـ) أثناء حديثه عن أبي الحسن الأشعري:-

"والقرآن عنده معجز من حيث البلاغة، والنظم، والفصاحة، إذ خير العرب بين السيف وبين المعارضة، فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة، ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي، وهو المنع من المعتاد". (٢٣٩)

ثالثًا: ما يُنسب للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت: ٥٤٤ هـ)

قال محمد بن أحمد السفاريني: (ت: ١١٨٩هـ): -

"وفي شفاء أبي الفضل القاضي عياض بعض ميل للقول **بالصَّرْفة**، فإنه قال: وذهب الشيخ أبو الحسن (الأشعري –) إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا، ولا يكون، فمنعهم الله هذا، وعجزهم عنه ". (٢٤٠). ولاشك في وضوح قول القاضي عياض **بالصَّرْفة**، فالمنع والتعجيز بمعنى أنه سبحانه صرفهم عنه بمنعهم وتعجيزهم عن الإتيان بمثله.

رابعًا: الفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)

أطلق القول **بالصَّرْفة** في بعض مواضع تفسيره كقوله عند تعرضه لآية التحدي في سورة البقرة: **حيث يقول:**

الطريق الثاني، أن نقول: " القرآن لا يخلو إما **أن يقال:** إنه كان بالغًا في الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول: ثبت أنه معجز، **وإن كان الثاني:** كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع كون المعارضة ممكنة، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها، أمر خارق للعادة، فكان ذلك معجزًا، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب".

٢٣٨- إعجاز القرآن الكريم(مرجع سابق) بقلم: سامي عطا الجيتاوي-عن موقع دنيا الوطن، بتاريخ: ٢٠٠٦/٦/١٥م. بتصرف يسير.

٢٣٩- الشهرستاني: الملل والنحل, بهامش الفصل: (:١٣٥ . ١٣٦) وجل هذه الأقوال نقلًا من بحث الصَّرْفة للدكتور/سامي عطا حسن. بتصرف.

٢٤٠ – محمد بن أحمد السفاريني : لوامع الأنوار البهية: (١/١٧٥).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي مواضع أخرى قيدها بالسور القصار حيث يقول:

" فإن قيل: قوله (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر، وسورة(قل يا أيها الكافرون)، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله، أو بما يقرب منه ممكن، فإن قلتم: إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر، كان ذلك مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين، قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، فقد حصل المقصود، وإن لم يكن الأمر كذلك، كان امتناعهم عن المعارضة – مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره –معجزًا، فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز. (٢٤١)

خامسًا: الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت:٧٧٤هـ)

أقرّها على سبيل المجادلة والمنافحة على الحق لا غير حيث يقول:

"وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة، وقول المعتزلة في **الصَّرْفة**، فقال: إن كان القرآن معجزًا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله، ولم يفعلوا مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلًا على أنه من عند الله، لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة – وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا – إلا أنها تصلح على سبيل التنزل، والمجادلة، والمنافحة عن الحق، وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار، كالعصر، وإنا أعطيناك الكوثر". (٢٤٢)

فابن كثير هنا يقرر أن القرآن معجز بذاته، وفي ذلك رد **للصَّرْفة**، وهو بذلك يقررها فقط على سبيل التنزل والمجادل عن الحق والمنافحة عنه كما قرر رحمه الله آنفًا، **وفي نحو ذلك يقول عند تفسيره لآية التحدي في سورة الإسراء:**

ف " لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له ولا مثال له، ولا عديل له؟!". (٢٤٣)

٢٤١- الرازي: مفاتيح الغيب ١١٦\١ ـ ١١٧، ومحسن عبد الحميد: الرازي مفسرًا (ص: ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

٢٤٢- ابن كثير : تفسير القرآن العظيم: (٦٠/١).

٢٤٣- تفسير ابن كثير: (١١٧/٥).

شبكة الألوكة www.alukah.net

سادسًا: أبو إسحاق الإسفراييني (ت: ٤١٨هـ)

فقد عدّها وجهًا من أوجه الإعجاز حيث قال في شرحه للمواقف:

"وقيل: إعجازه بالصَّرْفة، على معنى أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة، لكن الله صرفهم عن معارضته، واختلف في كيفية الصرف، (فقال الأستاذ) أبو إسحاق منا، (والنظّام) من المعتزلة، (صرفهم الله عنها مع قدرتهم) عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها، مع كونهم مجبولين عليها، خصوصًا عند توفر الأسباب الداعية في حقهم، كالتقريع بالعجز، والاستنزال عن الرياسات، والتكليف بالانقياد، فهذا الصرف خارق للعادة، فيكون معجزًا ". (٢٤٤)

سابعًا: الراغب الأصبهاني (ت: ٤٢٥هـ) حيث يقول:

"اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين:

أحدهما: إعجاز يتعلق بنفسه.

والثاني: بصرف الناس عن معارضته" ثم يتبع ذلك بقوله: " فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة، الذين يهيمون في كل واد من المعاني – بسلاطة لسانهم – إلى معارضة القرآن، وعجزوا عن الإتيان بمثله، ولم يقصدوا لمعارضته، فلم يخف على ذوي البلاغة أن صارفًا إلهيًّا صرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزوا في الظاهر عن معارضة مصروفة في الباطن عنها". (٢٤٥)

ثامنًا: أبو الحسن الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) قال في أعلام النبوة:

"**الوجه العشرون من أوجه إعجازه: الصَّرْفة** عن معارضته، واختلف من قال بها: هل صرفوا عن القدرة على معارضته مع دخوله في مقدورهم..؟ على قولين:

أحدهما:– إنهم صرفوا عن القدرة، ولو قدروا لعارضوا.

والقول الثاني:– إنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم.

والصرفة إعجاز على القولين معًا.... ".

ثم يقول:

" فإذا ثبت إعجاز القرآن من هذه الوجوه كلها، صح أن يكون كل واحد منها معجزًا، فإذا جمع القرآن سائرها كان إعجازه أقهر، وحجاجه أظهر، وصار كفلق البحر، واحياء الموتى، لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله" (٢٤٦) **ومثل ذلك يقوله في تفسيره النكت والعيون:**

٢٤٤– القاضي عضد الدين الإيجي: شرح المواقف ٨\٦٤٦

٢٤٥– مقدمة جامع التفاسير: (ص:١٠٤)، السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن: (١/٦٥).

٢٤٦– الماوردي: أعلام النبوة: (ص: ٨٥ . ٨٦).

شبكة الألوكة www.alukah.net

" فأما إعجاز القرآن الذي عجزت به العرب عن الإتيان بمثله، فقد اختلف العلماء فيه على ثمانية أوجه، إلى أن يقول: والثامن: أن إعجازه هو **الصَّرْفة**، وهو أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته، مع تحديهم أن يأتوا بسورة من مثله، فلم تحركهم أنفة التحدي، فصبروا على نقص العجز، فلم يعارضوه، وهم فصحاء العرب، مع توفر دواعيهم على إبطاله، وبذل نفوسهم في قتاله، فصار بذلك معجزًا لخروجه عن العادة كخروج سائر المعجزات عنها.

واختلف من قال بهذه الصَّرْفة على وجهين:

أحدهما: أنهم صرفوا عن القدرة عليه، ولو تعرضوا لعجزوا عنه.

والثاني: – أنهم صرفوا عن التعرض له، مع كونه في قدرتهم، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه فهذه ثمانية أوجه، يصح أن يكون كل واحد منها إعجازًا، فإذا جمعها القرآن، وليس اختصاص أحدها بأن يكون معجزًا بأولى من غيره، صار إعجازه من الأوجه الثمانية، فكان أبلغ في الإعجاز، وأبدع في الفصاحة والإيجاز". (٢٤٧)

تاسعًا: أبو المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين (ت: ٤٧٨هـ) يقول في العقيدة النظامية:

"وقد أكثر الناس في وجه إعجاز القرآن، وتقطعوا فيه أيادي سبأ، وصار معظم الناس إلى أن القرآن تميز على صنوف الكلام بمزية البلاغة والجزالة، خارج عن المعتاد في ذلك، ثم زعم زاعمون: أن إعجازه في شرف جزالته، وذهب آخرون: إلى أن إعجازه في الجزالة الفائقة، وأسلوبه الخارج عن أساليب النظم والنثر، والخطب، والأراجيز، ثم يقول: – من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه في جزالته خارق للعادات، مجاوز لفصاحة اللدد البلغاء، واللسن الفصحاء، فقد حاد عن مدرك الحق، ثم يقرر ويقول: فتبين قطعًا أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدورهم، وذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها، ومن هدي إلى هذا المسلك فقد رشد إلى الحق المنير، وانعكس كل مطعن ذكره الطاعنون عضدًا وتأييدًا.

إلى أن يقول: فإذا لم تجر المعارضة، لم يبق لامتناعها، مع توفر الدواعي عليها محمل إلا صرف الله الخلق، فكيف يهتدي إلى إعجاز القرآن، من يحاول أن يثبت خروجه عن العادة في الجزالة، وشفاء الصدور في الحكم؟ فإن مثله من مقدورات الخلق، ولكنهم مصدودون ممنوعون بصرف الله إياهم ". (٢٤٨)

عاشرًا: أبو حامد الغزالي (ت:٥٠٥هـ) والذي يقول في باب المحاجاة:

"فإن قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن، ولو قصدت لقدرت عليه، أو منعتها العوائق عن الاشتغال به، والجواب: – إن ما ذكروه هوس، فإن دفع تحدي المتحدي بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف، مهما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبي، وشن الغارات، ثم ما ذكروه غير دافع

٢٤٧– الماوردي: تفسير النكت والعيون: (١/٣٠ . ٣١).

٢٤٨– الجويني: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية: (ص: ٧٢ . ٧٣).

شبكة الألوكة www.alukah.net

غرضنا، فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالى، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات ". ([٢٤٩])

حادي عشر: ابن حزم الأندلسي الظاهري: (ت: ٤٥٦هـ)

وممن قال **بالصَّرْفة** أيضًا الفقيه ابن حزم الأندلسي الظاهري، وكلامه في **الصَّرْفة** مضطرب، فهو تارة يقول بها، وتارة يقول بغيرها فهو مضطرب في تلك المسألة، وتمشيًا مع القاعدة الأصولية "المثبت مقدم على النافي" فننقل كلام ابن حزم في القول **بالصَّرْفة** حيث إنه يرى أن القرآنَ ليس مُعْجِزًا في ذاتِهِ، بل لِأَنَّ اللهَ صرفَ العربَ عن الإتيانِ بمثلِهِ، ويقول بعد إيرادِهِ عدةَ آياتٍ من كتابِ الله عز وجل:

"..... فكان هذا كله إذ قاله غير الله عز وجل غير معجز بلا خلاف إذ لم يقل أحد من أهل الإسلام أن كلام غير الله تعالى معجز لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلامًا له أصاره معجزًا ومنع من مماثلته وهذا برهان كافٍ لا يحتاجُ إلى غيره". ([٢٥٠]).

وبمطالعة أقوال بعض الباحثين في عدد من المصادر وجدت أكثرها أو جلها على هذا الرأي في ابن حزم رحمه الله، بأنه مضطرب ولم يحسم رأيه وقوله في المسألة، لأنه تارة يقول بها وتارة يقول بغيرها، ولكن كما قال ربنا: (وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) (يوسف: ٨١).

المطلب الرابع: القائلون بالصرفة من الشيعة الإمامية

والشيعة الإمامية هم حملة لواء القول بالصَّرْفة في العصور المتأخرة خاصة وأنهم ورثة الفكر الاعتزالي. وممن قال بها منهم:

أ- الشيخ المفيد: (ت: ٣٣٩هـ) في كتابه أوائل المقالات، وإن حكى عنه غيره.

ب- الشريف المرتضى: (ت: ٣٥٥هـ) في رسالة خاصة تحت عنوان: (الموضح من جهة إعجاز القرآن).

ج- الطوسي: نصر الدين محمد بن محمد بن الحسن(ت: ٣٨٥هـ) في شرحه لكتاب (جمل العلم والعمل) للشريف المرتضى ولكنه تراجع عن القول بها صراحة في كتاب (الاقتصاد).

د- ابن سنان الخفاجي: (ت: ٤٦٦هـ) في كتابه سرّ الفصاحة.

هذا قول من قال بالصَّرْفة من الشيعة الإمامية إجمالًا **ونسوق أقوالهم بشيء من التفصيل على النحو التالي:**

أ- الشيخ المفيد، أبوعبد الله، محمد بن محمد بن النعمان، البغدادي العكبري، رئيس المذهب الشيعي الإمامي في وقته: (ت: ٣٣٨هـ) قال في جهة إعجاز القرآن:

" إنّ جهة ذلك هو **الصَّرْف** من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- بمثله في النظّام عند تحدّيه لهم، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله . وإن كان في مقدورهم دليلاً على نبوته. واللُّطف

٢٤٩- الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد: (ص: ١٢٩ ـ ١٣٠).

٢٥٠ - الفصل في الملل: (١٢/٣).

شبكة الألوكة www.alukah.net

من الله تعالى مستمر في الصرف عنه إلى آخر الزمان. وهذا أوضح برهان في الإعجاز، وأعجب بيان. وهو مذهب النظّام، وخالف فيه جمهور أهل الاعتزال... ". (٢٥١)

ب- علي بن الحسين المعروف بالشريف المرتضى(على بن الحسين بن موسى بن محمد) (ت: ٣٥٥هـ) نقل عنه الطوسي(نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن) (ت: ٣٨٥: هـ) قوله: " إن الله سلب العرب العلوم التي كانت تتأتى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن، متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتى منهم ". (٢٥٢)

ج- نصير الدين الطوسي (ت: ٣٨٥: هـ)

قال **بالصَّرْفة** في كتابه (تمهيد الأصول في علم الكلام) وهو شرح لكتاب (جمل العلم والعمل) للشريف المرتضى ولكنه تراجع عن القول بها صراحة في كتاب (الاقتصاد).

فقال: " وأقوى الأقوال عندي قول من قال إنما كان معجزًا خارقًا للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها، ودون النظم بانفراده، ودون **الصَّرْفة**، وإن كنت نصرت في شرح الجمل القول **بالصَّرْفة** على ما كان يذهب إليه المرتضى من حيث شرحت كتابه، فلم يحسن خلاف مذهبه". (٢٥٣).

د-ابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ) عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي الشاعر الأديب الشيعي في كتابه الشهير- سر الفصاحة- وهو من الكتب المعدودة في البلاغة، ألفه على طريقة الأدباء، حيث يقول:

" إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن: صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة، وقت مرامهم ذلك...،

ويقول أيضًا:

إن الصحيح أن إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وإن فصاحته كانت في مقدورهم لولا الصرف...

ويقول في موضع آخر:

متى رجع الانسان إلى نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه ...!! ". (٢٥٤) (٢٥٥).

---

٢٥١ - جعفر السبحاني: الإلهيات ص٣٤١ نقلا عن أوائل المقالات للشيخ المفيد: (ص: ٣١).

٢٥٢- الإلهيات للسبحاني نسخة إلكترونية ويُنظر: الاقتصاد للطوسي: (ص: ١٧٢).

٢٥٣- الإلهيات جعفر السبحاني- منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية- إيران: (ص: ٣٤١) نقلًا عن أوائل المقالات- للمفيد: (ص:٣١)، نقلًا عن بحار الأنوار للمجلسيي: (١٣٧/٩٢)، نقلًا عن الاقتصاد للطوسي: (ص: ١٧٢).

٢٥٤- ابن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة: (ص: ٨٩ . ٢١٧).

٢٥٥- يُنظر: الصَّرْفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها د .سامي عطا الجيتاوي: (ص: ١٩) وما بعدها، من مبحث القائلين بالصَّرْفة من أهل السنة، وقصده بأهل السنة كل الفرق المخالفة للشيعة كما هو مقرر معلوم عندهم.

شبكة الألوكة www.alukah.net

نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله تعالى الثبات على الحق، (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (آل عمران: ٨).

ومما سبق يتبين لنا أن الصَّرْفَةِ وإن كانت نشأت في بيئة المعتزلة على يد النَّظام ومن تابعه إلا أننا وجدنا طائفة من علماء أهل السنة، وبعض الظاهرية، والشيعة الإمامية، قالوا بها كذلك، وإن لم يوافقوا النَّظام على ما ذهب إليه.

المطلب الخامس: خلاصة القول بالصَّرْفَةِ

يمكننا أن نتعرف من أقوال القائلين بالصَّرْفَةِ على أنهم مذهبين:

المذهب الأول– مذهب النَّظام ومن تبعه، فقد ذهبوا إلى أن العرب صُرِفوا عن المعارضة أصلًا، ولم يتوجهوا إليها، ولو توجهوا لاستطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن.

المذهب الثاني– وقال به الشريف المرتضى، وابن سنان الخفاجي، ومن تبعهما، فقد ذهبوا إلى أن الله سلب العرب علومهم التي يحتاجون إليها في معارضة القرآن، والإتيان بمثله، ولو توجهوا لمعارضته لما استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن.

ولا شك في أن كل القولين مردود.. ولا يقوم على قدم، ولا يستوى على ساق، وسنسوق بين يديك مصداقًا من البرهان التفصيلي على انتقاض بنيان هذه القضية بأدلة منها:

١–إجماع الأمة قبل ظهور القول **بالصَّرْفة** على أن إعجاز القرآن ذاتي... وقد حكى القرطبي الإجماع في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، فقال بعد أن ذكر قول القائلين بالصَّرْفَةِ: " وهذا فاسد، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف: أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: أن المنع و **الصَّرْفة** هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزًا، وذلك خلاف الإجماع، وإن كان كذلك، علم أن نفس القرآن هو المعجز، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفًا معتادًا منهم، دل على أن المنع والصَّرْفة لم يكن معجزًا ". ([٢٥٦])

٢– أن الله تعالى وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لاتصل إليها معجزات أخرى، فكانت هذه توجب أن إعجازه ذاتيًا، ولقد قال تعالى: (ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعًا) (الرعد: ٣١).

ويقول تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) (الزمر: ٣٢).

٢٥٦– الجامع لحكام القرآن–لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: (ت: ٦٧١هـ) دار الكتب العلمية–بيروت١٩٩٣م–المجلد الأول١–٢/ص:٥٤

شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا كان القرآن بهذه الأوصاف التي وصفه الله بها منزله- سبحانه وتعالى- أفيقال بعد ذلك أن الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله؟ اللهم إن هذا بهتان عظيم. (٢٥٧)..

المبحث الرابع: ردُّ شُبهةِ القولِ بالصَّرْفَةِ وبيان بطلانها

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: الرد على القائلين بالصَّرْفَةِ وبيان دلائل بطلانها

إذا رجعنا إلى المصدر الأصلي الذي أثبت إعجاز القرآن، وهو القرآن نفسه، واحتكمنا إليه في هذا؛ فإنا نجده يثبت الإعجاز لذات القرآن، لا للصرف عنه **وذلك من أوجه كثيرة نذكر منها:**

أولًا: أن الله قد تحداهم أن يأتوا بمثله، كما في قوله: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا) (الإسراء: ٨٨)

ومما ورد في سبب نزولها ما أخرجه ابْن إِسْحَاق وَابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا قَالَ: أَتَى رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم مَحْمُود بن سيحان ونعيمان بن أُصَي ومجزئ بن عمر وَسَلام بن مشْكم فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد هَذَا الَّذِي جِئْت بِهِ حق من عِنْد الله فإنا لَا نرَاهُ متناسقًا كَمَا تتناسق التَّوْرَاة فَقَالَ لَهُم: أما وَالله إِنَّكُم لتعرفون أَنه من عِنْد الله. (٢٥٨)

"فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقًا لأتوا بمثله". (٢٥٩)

ف " لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله ، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له ولا مثال له، ولا عديل له؟!". (٢٦٠)

والاجتماع المذكور هنا في آية الإسراء إنما هو:

"اجتماع تظافر على عمل واحد ومقصد واحد، وهذه الآية مفحمة للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن". (٢٦١)

فإن الله تعالى ذكر أن الإنسان والجن لو اجتمعوا ليعارضوه لم ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله. فلو كان الإعجاز بالصَّرْفَةِ لقيل: " لو اجتمعوا لما انعقدت لهم عزيمة على الإتيان بمثله أو لو اجتمعوا لما اتجهت هممهم ولا همة واحد

٢٥٧- المعجزة الكبرى-القرآن- لمحمد أبي زهرة- دار الفكر العربي بالقاهرة: (ص: ٧٤).

٢٥٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (٤٤٢/٩)

٢٥٩-تفسير البغوي: (١٢٧/٥).

٢٦٠-تفسير ابن كثير: (١١٧/٥).

٢٦١-التحرير والتنوير :(٣٠٢/١٦).

شبكة الألوكة www.alukah.net

منهم إلى هذا الأمر. ولم يرد مثل هذا بحال. وإنما نص القرآن على أنهم لا يأتون بمثله ولو تضافرت جهودهم وتآزرت مساعيهم، فدل على أن التحدي إنما وقع بنفس القرآن وأن الإعجاز قائم في ذاته.

قال السيوطي رحمه الله تعالى بعد ذكره آية التحدي في الإسراء:

"فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزًا وليس فيه صفة إعجاز بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله". (٢٦٢)

ونظير ذلك قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) (البقرة: ٢٣-٢٤).

قال ابن كثير – رحمه الله–:

"ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطبًا للكافرين: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) [البقرة: ٢٣] يعني محمدًا

فأتوا بسورة من مثل ما جاء به:، إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك، وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) [القصص: ٤٩] وقال في سورة سبحان: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا) [الإسراء: ٨٨] وقال في سورة هود: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) [هود: ١٣] وقال في سورة يونس: (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) [يونس: ٣٧، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية، ثم تحداهم بذلك أيضًا في المدينة فقال في هذه الآية: (وإن كنتم في ريب) أي شك (مما نزلنا على عبدنا) يعني محمدًا–صلى الله عليه وسلم – (فأتوا بسورة من مثله) يعني من مثل القرآن،فتحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا أعجزوا عن ذلك". (٢٦٣)

٢٦٢- الإتقان: (١٠٠٦/٢).

٢٦٣- تفسير القرآن العظيم (٥٩/١-٦٠) بتصرف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

فدلت هذه الآية ونظائرها على أن القرآن معجز بنفسه لمزايا وخصائص استقرت فيه، تقصر طاقة البشر وقدرتهم عن مضاهاتها، لذلك ورد التحدي بالقرآن ذاته.

ثانيًا: لو كان العجز **بالصَّرْفَةِ** لكان مقتضى الحكمة إنزال القرآن في مستوى بلاغي قريب المتناول- لا في الدرجة القصوى من البلاغة والفصاحة – لتظهر عظمة المعجزة في المنع من مثله والصرف عنه. وهذا يخالف ما ورد في القرآن من أوصاف له تشيد بعظمة بيانه وسموه، فهو الكتاب المبين؛ والقرآن المجيد؛ وفيه الآيات البينات، وهو النور، والنور المبين؛ والكتاب المنير؛ وفيه الهدى والنور وشفاء لما في الصدور....

ثالثًا: ومن الدلائل التي تثبت إعجاز أسلوب القرآن ما ورد في القرآن نفسه من الآيات الدالة على قوة تأثيره في النفوس. وقد بلغ من تأثيره في نفوس الكافرين ما حملهم على التواصي على الإعراض عنه، كما ذكره الله عنهم (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) (فصلت: ٢٦).

فقد نفذ صبرهم عن الصمود لاستماعه لمبلغ تأثيره فيهم وخشيتهم منه على أتباعهم وأنفسهم. ووصف الله تأثيره في نفوس المؤمنين فقال سبحانه: (الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد)(الزمر: ٢٣).

قال أحد زعماء المشركين وهو الوليد بن المغيرة:" فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا. ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته ". (٢٦٤)

وهذه دلالة واضحة على أن الإعجاز في القرآن نابع من نظمه وذاته من اعتراف بلغاء المشركين والفضل ما شهدت به الأعداء.

ومثل الوليد بن المغيرة فعل نده من المشركين عتبة بن ربيعة إذ قال لقومه: " إني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ.... ". (٢٦٥)

ولو لم يكن الإعجاز نابعًا من ذات القرآن وجهته، وليس من حائل خارجي يمسكهم عن القول إمساكًا ملزمًا، لما استعظموا القرآن هذا الاستعظام ووصفوه بما وصفوه، غير أنهم أحسوا أن القرآن فوق ما سمعوا وما يستطيعونه من الكلام روعة وجلالًا وجمالًا في ألفاظه ومعانيه.

٢٦٤- سبق تخريجه: (ص: ١٣) في مبحث "الإعجاز البياني" وهو: المطلب الأول من المبحث الثاني.

٢٦٥- الأثر: ضعيف، وسبق تخريج: (ص: ٧٨) .

شبكة الألوكة www.alukah.net

دلائل أخرى تنفي القول بالصَّرْفَةِ:

أولاً: يلزم من قولهم إن العرب قد صرفوا عن هذا المستوى فحيل بينهم وبينه بحيث لم يحاولوه قط؛ أن حالهم في البلاغة والبيان وجودة النظم وشرف اللفظ قد تراجعت، فنقصت قرائحهم وأذهانهم وعدموا كثيرا مما كانوا يستطيعونه. وبالتالي فإنه يلزم منه أيضًا أن أشعارهم التي قالوها وخطبهم التي قاموا بها وكل تعابيرهم بعد الوحي جاءت قاصرة عما سمع منهم من قبل، فضاق عليهم مجال كان متسعًا، ونضبت مواردهم التي كانت غزيرة، وخذلتهم قوى كانوا بها يصولون. وبناء عليه فلا بد أن تخرج أشعار شعراء النبي التي امتدحوه بها ونددوا بالمشركين ناقصة متقاصرة عن شعرهم الجاهلي!؟

وبالتالي فإن التساؤل يدخل على هؤلاء القوم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت (اهجهم – أو هاجهم – وجبريل معك)[٢٦٦] فكيف يكون مؤيدًا بعون الله في حين أن الله يعدمه كثيرًا من المواهب والقدرة التي كان يتمتع بها قبل!؟

وينبني على قولهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تقاصرت بلاغته أيضًا والذي يحكم به علماء اللغة والأدب – وهو حقيقة لا مرية فيها – أن آداب العرب زمن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن قاصرة عن آداب الجاهلية بحال. بل إن الأمر أكثر من هذا فقد نزل القرآن بلغة فيها من قوة البيان والبلاغة والفصاحة، ما أشرقت بها للعرب بيانهم، وارتقت بها بلاغتهم، وأثمرت ثمارًا طيبة لم يكن للعرب قبل الإسلام بها عهد.

ثانيًا: إن إجماع المسلمين قد انعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، قبل خلاف المخالفين، فهذا دال على إجماعهم على أن الإعجاز نابع من ذات القرآن لا من أمر خارج عنه.

ثالثًا: أنه خابت محاولات بعض الأدعياء لمعارضة القرآن، كالذي فعله مسيلمة الكذاب وسُجَاح[٢٦٧]. وإذا كان كلامهم الذي أتوا به عُرَّةً في جبينهم أبد الدهر وخزيًا لهم؛ فإنه ينفي **الصَّرْفَةِ**، لأنها تعني أنهم صرفت هممهم عن معارضة القرآن! وفي الواقع أن محاولة المعارضة قد حصلت!! فلو كان ثمة صرفة لما أظهر هؤلاء من الكلام ما زعموا أنه معارض للقرآن.

رابعًا: أنهم يوردون علينا استدلالًا على **الصَّرْفَةِ**: أن العرب بلغاء فصحاء، وكان بعضهم يتقن نظم كلمتين بديعتين في جملة كلامية تبلغان طبقة من البلاغة جد عالية فلو أن الواحد منهم ضم ما جادت به القريحة ثانيًا إلى الأول وهكذا.. يتكامل له بعد حين، قدر سورة من القرآن.

٢٦٦- رواه الشيخان : البخاري ، كتاب الأدب، باب هجاء المشركين، (٧ / ١٠٧) وصحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، (٤ /١٩٣٣)، وغيرهما...

٢٦٧- سُجَاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان امرأة نجدية من بني تميم. ادعت النبوة في الردة وتبعها قوم ثم صالحت مسيلمة وتزوجته ثم بعد قتله عادت إلى الإسلام فأسلمت وعاشت إلى خلافة معاوية ذكر ذلك صاحب التاريخ المظفري: (٨/ ١٩٨) . ويُنظر: الإصابة في تمييز الصحابة: رقم:(١١٣٦١) (ص:١٠٢).

شبكة الألوكة www.alukah.net

والجواب: أن من قدر على الكلام البليغ العالي ليس لازمًا أن يقدر على معارضة أبلغ كلام على الإطلاق.. فإن الأمر يحتاج إلى ملكة في هذا المستوى العالي قادرة على السبك المبدع والتنسيق الفائق بحيث تبلغ المستوى القرآني، وهذا ما يتجاوز وسع المخلوقات. ثم إن التلفيق بين جمل متناثرة، جادة بها القرائح في موضوعات ودواعي مختلفة؛ لا يقدم أسلوبًا أدبيًا متماسكًا محكمًا يرضى عنه الأدباء، فكيف يسوغ الزعم بأنه معارض للقرآن!؟.

خامسًا: وإذا كان القول **بالصَّرْفَةِ** قد عزي للنَّظام من المعتزلة، فليس من شك أن من أبلغ الردود لمذهب الصَّرْفَةِ ما ورد على لسان علم من مشاهير المعتزلة. وهو جواب القاضي عبد الجبار لمن زعم: أن الله قد منع العرب من هذا القدر من الفصاحة والبلاغة حين أنزل القرآن؛ قال:

"فقد كان يجب أن يكون قدر القرآن في الفصاحة قدر ما جرت به العادة من قبل، وإنما منعوا من مثله في المستقبل، ولو كان كذلك لم يكن المعجز هو القرآن، لكونه مساويًا لكلامهم، ولتمكنهم من قبل من فعل مثله في قدر الفصاحة. وإنما كان يكون المعجز ما حدث منهم من المنع. فكان التحدي يجب أن يقع بذلك المنع لا بالقرآن، حتى لو لم ينزل الله تعالى القرآن، ولم يظهر أصلًا، وجعل دليل نبوته امتناع الكلام عليهم على الوجه الذي اعتادوه، لكان وجه الإعجاز لا يختلف. وهذا مما نعلم بطلانه باضطرار، لأنه-صلى الله عليه وسلم- تحدى بالقرآن وجعله العمدة في هذا الباب، على أن ذلك لو صح لم يقدح في صحة نبوته، لأنه كان يكون بمنزلة أن يقول-صلى الله عليه وسلم-: " دلالة نبوتي أني أريد المشي في جهة فيتأتى لي على العادة وتريدون المشي فيتعذر عليكم.

فإذا وجد الأمر كذلك دل على نبوته، لكون هذا المنع على هذا الوجه ناقضًا للعادة".

سادسًا: على أنهم لو صُرفوا، كما زعم القائلون،فإن من كان قبلهم من أهل الجاهلية لم يخاطبوا بالتحدي ولم يصرفوا عما يعدل القرآن فصاحة وبلاغة وحسن نظم وروائع وصف، فهلا جاءونا بشيء من أقوالهم يساويه في ذلك؟ فإذا عجزوا عن استخراج ذلك لعدم وجوده أصلًا، فقد انكشف أن قولهم بالصَّرْفَةِ فاضح البطلان. (٢٦٨)

سابعًا: ومن أهم الأدلة على بطلان القول **بالصَّرْفَةِ** أن أهل الصنعة البلاغية إذا سمعوا كلامًا يطمعون في مجاراته لم يخف عليهم ولم يشتبه لديهم، فلا بد أن يحاولوا مباراته! كيف وقد تضافرت عليهم دوافع عديدة من سب آلهتهم وتسفيه عقول آبائهم ومطالبتهم بالإتباع مما يذهب بزعامتهم ومصالحهم..!؟

وكيف يلزمون الصمت مع القدرة على المباراة؟ وقد تحداهم عشرين سنة بشيء من صناعتهم التي فاقوا بها وافتخروا، مع تقريعهم بالعجز مرارًا وتكرارًا، وهم مضرب المثل في الحمية والأنفة وإباء الضيم. لو أنهم أحسوا بالحيلولة والحجز لدرأوا عن أنفسهم وصمة العجز، فإنه ليس معتادًا في بني الإنسان قاطبة – فضلًا

٢٦٨- حكى القرطبي أن بعض أصحاب الصرفة زعموا أن العرب صرفوا عن القدرة على القرآن ولو تعرضوا له لعجزوا عنه، وأن البعض الآخر زعموا أن العرب صرفوا عن التعرض للقرآن مع كونه في مقدورهم، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه، بمعنى أنهم لم يأتوا بمثله سابقا، غير أنه لا يخرج عن حدود قدرتهم لولا أنه حيل بينهم وبين ممارسة ذلك الاقتدار . يُنظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧٦/١

شبكة الألوكة www.alukah.net

عمن ذكرنا أوصافهم من العرب – أن يذعن الواحد لخصمه فيستكين له ويلقي بيديه ويسكت عن التقريع بالعجز أمدًا بعيدًا. فلما لم يؤثر عنهم مثل ذلك التشكي والتضجر دل ذلك على أنه لا أصل لما انصرف إليه أصحاب الصرفة واهمين.

قال الجرجاني:([٢٦٩])

" ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغي له إن كانت العرب منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها؛ أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت. ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك من أنفسهم كما قدمت. ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك. ولكانوا قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به. ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه. فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفي. وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم. ويشكوه البعض إلى البعض ويقولوا مالنا قد نقصنا من قرائحنا وقد حدث كلول في أذهاننا.. فبقي أن لم يُرْوَ ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى لا ما قلَّ ولا ما كثر، دليل أنه قول فاسد ورأي ليس من آراء ذوي التحصيل". ([٢٧٠])

فهذا كله يجعل القول بالصَّرْفة باطلًا داحضًا يستوجب الانصراف عنه.

ثم يقول في موضع آخر رحمه الله:

".... لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثله، لأنه معجِز فى نفسه إلا أن أدخل عليهم العجز عنه، وصرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم حال من أُعدم العلم بشيء قد كان يعلمه، وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له، لكان ينبغي أن لا يتعاظَمَهم؛ ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره، وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، وعظم كل العِظَم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتعجب للذي دخل من العجز عليهم، ورأوه من تغير حالهم، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلاً، وأن سُدَّ دونهم باب كان لهم مفتوحًا، أرأيت لو أن نبيًا قال لقومه: (إن آيتي أن أضع يدي على رأسي هذه الساعة، وتمنعون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم)، وكان الأمر كما قال، ممَّ يكون تعجب القوم، أمِن وضعه يده على رأسه، أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم؟). " ([٢٧١])

٢٦٩- قال الإمام الذهبي: كان شافعيًّا، عالمًا، أشعريًّا، ذا نسُكٍ ودين. سير أعلام النبلاء – (٣٥ / ص ٤٠٤).

٢٧٠- الرسالة الشافية: (ص: ١٣٥).

٢٧١-دلائل الإعجاز في علم المعاني: (ص:٣٩٠).

شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول الباقلاني:

"وأخيرًا فإن **الصَّرْفَةِ** تصور القرآن معجزة حسية معقدة خفية. فلو كان المراد الإعجاز الحسي لما كان ثمة داع لجعله مصحوبًا بتلك الصورة الكلامية مع التحدي بها. فذلك نمط مُرْبِكٌ عسير الإدراك، يُستغنى عنه بأهون شيء يقطع ما بين النبي صلى الله عليه وسلم وقومه من جدل ومعاناة ". (٢٧٢)

المطلب الثاني: أشهر أقوال من قال ببطلان القول الصَّرْفَةِ من العلماء

١- شيخ الإسلام بن تيمية:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"ومن أضعف الأقوالِ - أي في إعجاز القرآن - قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها، أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبًا عامًا، مثل قوله تعالى لزكريا: (... آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويًا) (مريم: ١٠) وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله، فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادات بمنزلة من يقول: إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم، وأضربهم جميعهم، وأجوعهم، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله، أو إلى ولي الأمر، وليس فيهم - مع ذلك - من يشتكي، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة. ولو قدر أن واحدًا صنف كتابًا يقدر أمثاله على تصنيف مثله، أو قال شعرًا، يقدر أمثاله أن يقولوا مثله، وتحداهم كلهم، فقال: عارضوني، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار، مأواكم النار، ودماؤكم لي حلال، امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد. فإذا لم يعارضوه كان هذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة.

والذي جاء بالقرآن قال للخلق كلهم: أنا رسول الله إليكم جميعًا، ومن آمن بي دخل الجنة، ومن لم يؤمن بي دخل النار، وقد أبيح لي قتل رجالهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، ووجب عليهم كلهم طاعتي، ومن لم يطعني كان من أشقى الخلق، ومن آياتي هذا القرآن، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله، وأنا أخبركم أن أحدًا لا يأتي بمثله. **فيقال:** لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين.

فإن كانوا قادرين، ولم يعارضوه، بل صرف الله دواعي قلوبهم، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه، فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل:

معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد - فهذا من أبلغ الخوارق.

٢٧٢- إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٩- ٣٠ وبيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٠- ٢١ . ويُنظر: إعجاز القرآن للرافعي: (ص: ١٦٢).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وإن كانوا عاجزين، ثبت أنه خارق للعادة، فثبت كونه خارقًا على تقدير النقيضين: النفي والإثبات. فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر". (٢٧٣)

وكلام **شيخ الإسلام** ابن تيمية آنفًا يدل على أنه يرد القول **بالصَّرْفَةِ** ولا يقبله، بل ويعتبره من أضعف ما قيل في بيان أوجه الإعجاز، وهو في ضوء كلامه آنفًا لا يقبله إلا على سبيل التنزل مع المخالف.

ولذا قال في محض كلامه: (فهذا غاية التنزل، وإلا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد صلى الله عليه وسلم نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وسائر كلامه لكل من له أدنى تدبر...). (٢٧٤)

٢- الباقلاني:

قال الباقلاني:

"وما يبطل القول **بالصَّرْفَةِ** أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزًا، وإنما يكون المنع معجزًا فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه، وقال أيضًا: وليس هذا بأعجب من قول فريق منهم أن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به ولا بأعجب من قول آخرين، أن العجز وقع منهم، وأما من بعدهم ففي قدرته الإتيان بمثله، وكل هذا لا يعتد به". (٢٧٥).

وقال أيضًا:

"فإن قيل: فلم زعمتم أنّ البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرُّفهم في أجناس الفصاحات، وهلَّا قلتم: إنَّ من قدر على جميع هذه الوجوه بوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادرًا، وإنما يصرفه عنه ضرب من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرب من المنع، أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله تعالى من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة؛ لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما، وإذا قدر على ذلك على ضمّ الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة.

ونرى من هذا أنَّ القائلين بهذا القول يشككون في مرتبة القرآن وكونه من عند الله تعالى من غير أن يقدموا دليلًا، بل إنَّ القصد الذي يبدو من لحن القول والدعوى هو التشكيك المجرَّد في علوِّ البلاغة القرآنية، ومن وراء ذلك التشكيك ما يريدون من توهين ثم دعاوي بأنه من صنع محمد صلى الله عليه وسلم، وهكذا يسير الخط من الاحتمالات تنافي الواقع إلى توهين لأمر القرآن، إلى ادِّعاء أنه ليس من عند الله". (٢٧٦)

---

٢٧٣ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (٤٢٩/٥).

٢٧٤- المرجع السابق نفسه: (٥/ ٤٣١)

٢٧٥- إعجاز القرآن للباقلاني: (ص: ٢٤).

٢٧٦- المرجع السابق: (ص: ٢٥).

شبكة الألوكة www.alukah.net

٣- الخطابي:

أما الخطابي فقد رد القول بالصَّرْفة بعد أن بين معناها ووضح مفهومها ومقصدها عند من قال بها، ثم عقب ذلك بقوله:

".... لأن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله سبحانه {قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ عَلى أَنْ يأْتُوا بمِثْلِ القُرآنِ لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلوْ كانَ بَعْضُهمْ لبعضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء، ٨٨]، فأشار في ذلك إلى أمر طريقة التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في **الصَّرْفَةِ** التي وصفوها لا يلاءم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها والله أعلم (٢٧٧).

والخطابي هنا يرد الصَّرْفة ويرد على القائلين بها بحجية آية التحدي في الإسراء، ومع ذلك فإن القائلين بها استدلوا بنفس الآية مع إنها حجة عليهم لا لهم، والخطابي حينما يستدل بآية الإسراء التي هي عمدة الاستدلال كأنه يشير إلى أن الآية واضحة الدلالة وواضحة المعاني لا تحتاج لزيادة تأويل.

٤-الإيجي:

يقول الإيجي: "لو سلبوا القدرة – أي العرب – كما قال به – الشريف الرضي – لعلموا ذلك من أنفسهم ولتناطقوا به عادة ولتواتر عنهم ذلك التناطق لجريان العادة بالتحدث بخوارق العادات لكنه لم يتواتر قطعًا". (٢٧٨).

٥- الزركشي

أما الزركشي فيقول في " البرهان " في محض كلامه عن إبطال **الصَّرْفَةِ** والرد على النَّظام ما يلي:

"إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا} (الإسراء: ٨٨) فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن فكيف يكون معجزًا غيره وليس فيه صفة إعجاز بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم عن الإتيان بمثله وأيضا يلزم من القول بالصَّرْفة فساد آخر وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي وخلو القرآن من الإعجاز وفي ذلك خرق لإجماع الأمة فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ولا معجزة له باقية سوى القرآن وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة". (٢٧٩)

---

٢٧٧ – الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص ٢٣.

٢٧٨ – الإيجي، عبد الرحمن بن أحمد، المواقف، دار الجيل – بيروت، (ط / ١، ١٩٩٧) تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، (ج ٣، ص ٣٩٧).

٢٧٩ – الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ج ٢، ص ٩٤).

شبكة الألوكة www.alukah.net

٦- الرافعي:

وعلى الجملة فإن القول **بالصَّرْفة** لا يختلف عن قول العرب فيه" **يقول الرافعي:**

(إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) (المدثر:٢٤)، وهذا زعم رده الله على أهله, وأكذَبهم فيه, وجعل القول به ضربًا من العمى.. (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) (الطور: ١٥)

فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد ". (٢٨٠)

وهذا القول:(يعني القول **بالصَّرْفة**) باطل من وجوه:

أولاً: إنه لو صح لكان الإعجاز في الصرفة لا في القرآن ذاته، وهو باطل بالإجماع

ثانيًا: إنه لو صح لكان تعجيزًا لا إعجازًا؛ لأنه يكون بمثابة ما لو قطعنا لسان إنسان وكلفناه بالكلام، فهو من باب التعجيز وليس من باب العجز.

ثالثًا: قوله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء:٨٨)

، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سُلِبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم فإنه يصبح بمنزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بالأمر الكبير الذي يُحتفل بذكره". (٢٨١)

رابعًا: وإنَّ رواج تلك الفكرة يؤدي إلى أمرين:

الأمر الأول: إنَّ القرآن الكريم ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته، وتعجز القدرة البشرية عن أن تأتي بمثله، فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية.

والأمر الثاني: الحكم بأنه ككلام الناس لا يزيد عليه شيء في بلاغته، أو في معانيه. (٢٨٢).

٧- الجرجاني:

و الجرجاني ممن قال ببطلان الصَّرْفة في " الشافية"

و يرد على من حصر التحدي في إعجاز القرآن في النظم واللفظ والمعنى فحسب فيقول:

".... فإن قلت: فكيف الكلام عليهم، إذا ذهبوا في " **الصَّرْفة** " إلى الوجه الآخر، فزعموا أن التحدي كان أن يأتوا في أنفس معاني القرآن بمثل نظمه ولفظه؟ وما الذي دل على فساده؟ فإن على فساد ذلك أدلة منها قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} [هود: ١٣]، وذاك أنا نعلم أن المعنى: فأتوا بعشر سور تفترونها أنتم وإذا كان المعنى على ذلك، فبنا أن ننظر في الافتراء إذا وصف المعنى، وإذا لم يرجع إلا إلى المعنى وجب أن يكون المراد: إن كنتم تزعمون أني قد وضعت القرآن وافتريته، وجئت به من عند نفسي، ثم زعمت أنه

٢٨٠- إعجاز القرآن للرافعي: (ص: ١٠٣).

٢٨١- يُنظر: محاضرات في علوم القرآن: (ص:١٦٩) لـ: أ.د. صلاح الصاوي ود. محمد سالم

٢٨٢-المعجزة الكبرى القرآن: (ص: ٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وحي من الله، فعضوا(٢٨٣) أنتم أيضًا عشر سور وافتروا معانيها كما زعمتم أني افتريت معاني القرآن(٢٨٤)، **وفي موضع آخر يقول في رده على الشريف الرضي الشيعي بقوله:**

"... أنه كان ينبغي لهم لو أن العرب كانت منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها أن يعرفوا ذلك من أنفسهم، كما قدمت، ولو عرفوا لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك، ولكانوا قد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا، واحتلت في شيء حال بيننا وبينه"، فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور، كما لا يخفى، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويشكوه البعض إلى البعض، ويقولوا: "ما لنا قد نقصنا في قرائحنا، وقد حدث كلول في أذهاننا" ففي أن لم يرو ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، دليل [على] أنه قول فاسد، ورأى ليس من آراء ذوى التحصيل(٢٨٥).

وفي موضع آخر من "الشافية" في محض دفاعه عن إعجاز القرآن والرد على القائلين بالصَّرْفَةِ بما جاء عن العرب في شأن القرآن من أخبار فيقول أيضًا:

"ومنها الأخبار التي جاءت عن العرب في تعظيم شأن القرآن وفي وصفه بما وصفوه به من نحو: "إن عليه لطلاوة، وإن له لحلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر" (٢٨٦)، وذاك أن محالًا أن يعظموه، وأن يبهتوا عند سماعه، ويستكينوا له، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه، ويعلمون أنه لم يتعذر عليهم لأنهم لا يستطيعون مثله(٢٨٧).

ويقول في موضع آخر من "الشافية" في نهاية قوله بإبطال الصَّرْفَةِ والرد على قائليها أيضًا:

".... ينبغي أن يقال: ما هذا الذي أخذتم به أنفسكم؟ وما هذا التأويل منكم في عجز العرب عن معارضة القرآن؟ وما دعاكم إليه؟ وما أردتم منه؟ أأن يكون لكم قول يحكى، وتكونوا أمة على حدة، أم قد أتاكم في هذا الباب علم لم يأت الناس؟

فإن قالوا: أتانا فيه علم.

قيل: أفمن نظر ذلك العلم أم خبر؟

فإن قالوا: من نظر.

٢٨٣-"عضوا" من الاستعاضة- اِستِعاضة(اسم) مصدر اِسْتَعاضَ- يجب الاِسْتِعاضَةُ عَنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ آخَرَ: أَنْ تَجْعَلَ فِي مَكانِهِ شَيْئاً آخَر. يُنظر: معجم المعاني الجامع: مادة استعاضة.

٢٨٤ - الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في أعجاز القرآن، دار المعارف- مصر، (ط: ٣، ١٩٧٦ م) (ت: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام ، ص ١٥٠).

٢٨٥ - السابق، ص ١٤٨ – ص ١٤٩.

٢٨٦- سبق تخريجه: (ص: ١٣) في مبحث "الإعجاز البياني" وهو: المطلب الأول من المبحث الثاني.

٢٨٧ - السابق، ص ١٥٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net

قيل لهم: فكأنكم تعنون أنكم نظرتم في نظم القرآن ونظم كلام العرب ووازنتم فوجدتموه لا يزيد إلا بالقدر الذي لو خلوا والاجتهاد وإعمال الفكر، ولم تفرق عنهم خواطرهم عند القصد إليه، والمقصد له لأتوا بمثله؟

فإن قالوا: كذلك نقول.

قيل لهم: فأنتم تدعون الآن أن نظركم في الفصاحة نظر لا يغيب عنه شيء من أمرها، وأنكم قد أحطتم علمًا بأسرارها، وأصبحتم ولكم فيها فهم وعلم لم يكن للناس قبلكم.

وإن قالوا: عرفنا ذلك بخبر.

قيل: فهاتوا عرفونا ذلك، وأني لهم تعريف ما لم يكن، وتثبيت ما لم يوجد!

ولو كان الناس إذا عن لهم القول نظروا في موداه، وتبينوا عاقبته، وتذكروا وصية الحكماء حين نهوا عن الورود حتى يعرف الصدر، وحذروا أن تجيء أعجاز الأمور بغير ما أوهمت الصدور إذا لكفوا البلاء، ولعدم هذا وأشباهه من فاسد الآراء، ولكن يأتي الذي في طباع الإنسان من التسرع، ثم من حسن الظن بنفسه، والشغف بأن يكون متبوعًا في رأيه، إلا أن يخدعه وينسبه أنه موصى بذلك، ومدعو إليه، ومحذر من سوء المغبة إذا هو تركه وقصر فيه. وهي الآفة لا يسلم منها ومن جنايتها إلا من عصم الله. وإليه عز اسمه الرغبة في أن يوفق للتي هي أهدى، ويعصم من كل ما يوتع الدين، ويثلم اليقين، إنه ولي ذلك والقادر عليه(٢٨٨).

وقال أيضًا:

"إنه لا يتصور الإعجاز **بالصَّرْفة**، وذلك لأنهم كانوا حينئذ يعارضونه بما اعتيد منهم من مثل القرآن الصادر عنهم قبل التحدي به، بل قبل نزوله، فإنهم لم يتحدوا بإنشاء مثله بل بالإتيان به فلهم بعد **الصَّرْفة** الواقعة بعد التحدي، أن يعارضوا القرآن بكلام مثله صادر عنهم قبل **الصَّرْفة**)(٢٨٩).

٨- السيوطي

يقول السيوطي مستدلا بآية التحدي في الإسراء:

"... فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة، لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره،... ". (٢٩٠)

٩- الإجماع

ومن أقوى الأقوال والردود والحجج الواردة في إبطال القول **بالصَّرْفة** الإجماع الذي حكاه القرطبي وقد مر معنا في طيات البحث ولا حرج من إعادة ذكره هنا لمسيس الحاجة إليه، والأمة لا تجتمع على ضلالة أبدًا كما صح الخبر بذلك عن خير البشر في قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة) (٢٩١)

---

٢٨٨ - الجرجاني، الرسالة الشافية، ص ١٥٥

٢٨٩-شرح المواقف: (٢٤٩/٨)

٢٩٠- الإتقان: (١/ ٦ ٠ ٧).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وإجماع الأمة إنما كان قبل ظهور القول بالصَّرْفة على أن إعجاز القرآن ذاتي... وقد حكى القرطبي الإجماع في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، فقال بعد أن ذكر قول القائلين بالصَّرْفَةِ:

" وهذا فاسد، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف: أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: أن المنع و الصَّرْفة هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزًا، وذلك خلاف الإجماع، وإن كان كذلك، علم أن نفس القرآن هو المعجز، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفًا معتادًا منهم، دل على أن المنع والصَّرْفة لم يكن معجزًا ". (٢٩٢).

وممن قال بالإجماع واستدل به على بطلان الصرفة كذلك علي بن محمد الجرجاني (ت:٨١٢هـ) في شرح المواقف(٢٩٣) والألوسي في روح المعاني(٢٩٤).

وفي الجملة فإن الرد على القائلين **بالصَّرْفَةِ** يُعد من الأقوال كذلك، فلا يُظن أن أقوال العلماء منفردة في القول ببطلان **الصَّرْفة** فحسب، بل إن رودوهم تعد من أقوى أقوالهم كذلك، وهي وإن كانت كثيرة غير أنا تخيرنا أبرزها وأبينها على الدلالة ببطلان القول **بالصَّرْفة**.

المطلب الثالث: أهم النتائج المستخلصة من مدارسة ومناقشة مبحث "القول بالصَّرْفة".

١- إن القول **بالصَّرْفة** زعم لا دليل عليه من العقل أو النقل.

٢- لقد انكشف نقض القول **بالصَّرْفة** وبطلانه بأدلة من القرآن والحديث والإجماع وبأدلة أخرى قوية حاسمة.

٣- إن القول **بالصَّرْفة** دحضه الواقع وكذبه، فقد عرف تاريخ الدعوة الإسلامية أناسًا كذابين من العرب لم تنصرف هممهم عن محاولة معارضة القرآن بل بذلوا في ذلك كل همتهم وغاية اهتمامهم. فكانت معارضتهم وصمة عار أبدية في جباههم، وازدادت البصائر إكبارًا للقرآن المجيد وخصائص إعجازه الذاتية. (٢٩٥)

ولعل فيما مضى معتبر لأهل البحث والنظر، ولا اعتبار لمن نظره وعقله عن وصوله الحق قصر.. (٢٩٦)

وبهذا ينتهي الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين.

٢٩١- حسن بمجموع طرقه، السلسلة الصحيحة: (٣/٣١٩).

٢٩٢- الجامع لحكام القرآن-لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: (ت: ٦٧١هـ) دار الكتب العلمية-بيروت١٩٩٣م-المجلد الأول١-٢/ص:٥٤

٢٩٣- شرح المواقف: (٨/٢٤٩)

٢٩٤- روح المعاني: (١/٢٧).

٢٩٥- يُنظر: القول بالصَّرْفة - مقال عن موقع جامعة أم القرى. بتصرف يسير.

٢٩٦- هذا الفصل مستقى من: بحثي: جَنَى الخُرْفَة في إبطال القولَ بالصَّرْفة، الذهب الإبريز في خصائص الكتاب العزيز، وكليهما للباحث.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الثالث

منهج الإعجاز البياني وخصائصه في القران

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالأسلوب وخصائصه في القران الكريم

وفيه أحد عشر مطلبًا:

المطلب الأول: الإعجاز البياني في القرآن مبحث متعلق بالعقيدة

إن القرآن الكريم هو أعظم أنيس وخير جليس، لا يُملّ حديثه ولا تنفد عجائبه، وترداده يزداد فيه تجمّلاً، وحيث الفتى يرتاع في ظلماته، من القبر يلقاه سنًا متهللًا، هنالك يهنيه مقيلاً وروضة، ومن أجله في ذروةِ العز يُجتلى، (٢٩٧).

وإنّ من أسرار القرآن العظيم وروعة بيانه أنّك كلّما أبحرت فيه ازددت تعمّقًا وشوقًا وكلما نهلت من فيضه ومعينه الصّافي ازددت به تعلّقًا وتشبثًا، وما يبعد عنه إلّا من جفا قلبه وغلظ كبده.

وهذا كتابه الله – تعالى – الذي شغل العالم منذ نزوله إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو مصباح الظّلام، ففيه الهدى والنور، وهو منهل البيان الذي وقف فحول العرب وفصحاؤهم أمامه عاجزين مشدوهين، وهم الذين طالما خاضوا معارك البلاغة والبيان، وتباروا في فنون القول وأسراره حتى أسروا القلوب والأذهان بسحر بيانهم وتبيينهم، وهاهم أولاء يقفون أمام البيان الأعظم مأسورين مشدوهين عاجزين!!.

وقد جاء أسلوب القرآن الكريم في الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة، وخرج عن جميع وجوه النظم المتعارف عليها في كلام العرب فتوافر العلماء على البحث في أسراره واستخراج دُرره، فصنّف فيه الزملكاني والفراء وأبو عبيدة معمر بن المثنى وابن قتيبة والرازي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم، (والواقع أن المصنفات الأولى في الإعجاز على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحث بلاغية مما قدروا أن إعجاز القرآن يُعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين في وجوه الإعجاز، فرسائل الخطّابي السنى(٢٩٨)، والرّمّاني المعتزلي، والباقلّاني الأشعري، تأخذ مكانها في المكتبة البلاغيّة وبعد أن استقلّت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وُجّهت إلى خدمة الإعجاز

٢٩٧- اقتباس تلك الكلمات من الأبيات من صدر متن الشاطبية، المعروفة بـ" حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع"، للقاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني، أبو محمد الشاطبي المتوفى: (٥٩٠هـ)

والتي يقول في أوائل أبيتها:

وإن كتاب الله أوثق شافع *** وأغنى غناء واهبًا ومتفضلا

وخير جليس لا يُملُّ حديثه *** وترداده يزداد فيه تجملا

وحيث الفتى يرتاع في ظلماته *** من القبر يلقاه سنا متهللا

هنالك يهنيه مقيلا وروضة *** ومن أجله في ذروةِ العز يُجتلى.

٢٩٨- الخطابي في جانب الصفات تارة يثبتها وتارة يؤلها على منهج أهل التأويل كما سيأتي بيان ذلك بشيء من البيان والتفصيل.

شبكة الألوكة www.alukah.net

البلاغي.. الجرجاني يضع كتابه في النظم والبلاغة ويقدّمه باسم (دلائل الإعجاز)، وأبو هلال العسكريّ المعتزلي يضع علم الفصاحة والبلاغة تاليًا لعلم التّوحيد، والزمخشري وهو من المعتزلة يقرّر أنه لابدّ من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ([٢٩٩])

نظرة أكثر توسعًا في كتب الإعجاز:

قد يمر معنا في طيات البحث في غير ما موضع ذكر بعض المصنفات في إعجاز القرآن، وقد تكون الحاجة ماسة لذكر هذه المصنفات أو ذكر بعضًا منها في بعض المباحث لغرض لا يحسن تأجيله أو العزو إليه في مواضع أخر.

وهنا الحاجة ماسة لذكر أبرز تلك المصنفات لأن الأمر يتعلق بالمنهج العقدي، ولا سيما وأن أغلب مؤلفيها من أهل الكلام على ما سنوجزه فيما يلي:

أولًا: الجاحظ المعتزلي في القرن الثالث:

على الرغم من كون الجاحظ ([٣٠٠]) معتزليًا وتلميذًا لإبراهيم النَّظَّام فقد آمن بفكرة الإعجاز، ووضع كتابًا حول الإعجاز الأسلوبي للقرآن أسماه: "نظم القرآن"، لم يصل إلينا، ولكن الجاحظ على طريقته في الإشارة إلى بعض كتبه في بعضها الآخر، أورد بعض الفقرات من هذا الكتاب في كتابيه: "الحيوان" و"البيان والتبيين" الموجودين حاليًا، ويتلخص رأي الجاحظ في تبنيه للقول بالصرفة إلى جانب إيمانه بأنَّ العرب عجزوا عجزًا حقيقيًا . مع محاولاتهم . عن الإتيان بمثل القرآن، بسبب طريقة نظم القرآن أي أسلوبه، ويعتبر كتاب الجاحظ المفقود هذا أول كتاب في إعجاز القرآن كما يقول الباقلاني: (ت ٣٠٦هـ)، وقد أشار إليه الرافعي وقال: "إنه سبق به عبد القاهر الجرجاني".

ثانيًا الرماني المعتزلي في القرن الرابع: (ت: ٣٨٤هـ)

نجد رسالة للرماني في إعجاز القرآن، أشار الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن" إلى أنها تعتبر المرحلة الثالثة . بعد الجاحظ والواسطي . من مراحل القول بأنَّ الإعجاز أسلوبي بياني. وقد أشار ابن سنان الخفاجي المعتزلي في "سر الفصاحة" والسيوطي في "الإتقان"([٣٠١]) إلى رسالة الرماني هذه. وهي تتميز بأنها نقلت مباحث الإعجاز خطوة إلى الأمام بتلخيص الرماني لكل ما قيل قبله من آراء في رسالته هذه.

٢٩٩- يُنظر: الإعجاز البلاغي في التقديم والتأخير، د. محمد السيد عبد الرازق موسى، عن موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن، بتاريخ: ٢٠١٠/٢١م.

٣٠٠- هو: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي، أبو عثمان الشهير بالجاحظ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة).(١٩٥- ٢٥٥هـ)، له تصانيف كثيرة منها: "الحيوان"، و"البيان والتبيين"، و"سحر البيان" وغيرها. انظر ترجمته في: إرشاد الأريب، ٨٠/٦، والوفيات، ٣٨٨/١، وأمراء البيان، ٣١١، ولسان الميزان، ٣٥٥/٤، وتاريخ بغداد ٢١٢/١٢.

٣٠١- يُنظر: الإتقان للسيوطي، ٣٢٦/٢ وما بعدها.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثالثًا الخطابي في القرن الرابع أيضًا: ([٣٠٢])

٣٠٢- لقد تناول الخطابي مسائل العقيدة في العديد من كتبه، **واختُلِفَ في عقيدته**، فقد نسبه البعض إلى **المذهب السلفي** ونسبه البعض الآخر إلى **المذهب الأشعري**.

ومما استدل به القائلون بأن الخطابي كان سلفيًا ما يلي:

بأنه أثبت صفة العلو حيث قال": فدل ما تلوناه من الآي على أن الله سبحانه في السماء مستوٍ على العرش، ولو كان بكل مكان لم يكن لهذا التخصيص معنى ولا فيه فائدة، وقد جرت عادة المسلمين خاصتهم وعامتهم بأن يدعوا ربهم عند الابتهال والرغبة إليه ويرفعوا أيديهم إلى السماء، وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن ربهم المدعو في السماء سبحانه "،

وقال: "زعم بعضهم أن معنى الاستواء هاهنا الاستيلاء، ونزع فيه إلى بيت مجهول، لم يقله شاعر معروف يصح الاحتجاج بقوله"، واستدلوا أيضًا بإمراره الصفات كما جاءت في قوله" فأما ما سألت عنه من الصفات، وما جاء منها الكتاب والسنة فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها".، ونقل عنه ذلك ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى .كما أن الخطابي كان ينتقد علم الكلام، وألف في ذلك كتاب الغنية عن الكلام وأهله، والذي أورد ابن تيمية مقدمته في كتابه بيان تلبيس الجهمية.

واستدل القائلون بأنه كان أشعريًا بأقوال له:

منها: قوله عند تفسير قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ "أي قدرته على طيها، وسهولة الأمر في جمعها". كما استدلوا بتفسيره لقوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ :أنه يبرز من أمر يوم القيامة أمر عظيم وشدتها ما يرتفع معه سواتر الامتحان، فيتميز عند ذلك أصحاب اليقين والإخلاص، فيُؤذن لهم بالسجود، وينكشف الغطاء عن أهل النفاق، فتعود ظهورهم طبقًا لا يستطيعون السجود."

وللرجوع لعقيدة الخطابي ينظر ما يلي:

١- مقال بعنوان: عقيدة السلف في الصفات: معنى قولهم "أمروها كما جاءت"، موقع عقيدة السلف الصالح.

٢- حاشية ابن القيم على سنن أبي داود، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤١٥، جـ ١٣، صـ ٢٦، ومختصر الصواعق جـ ٢، صـ ٣٨١، نقلاً عن كتاب شعار الدين للخطابي

٣- مجلة البحوث الإسلامية، العدد السابع والستون - الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢٣هـ، البحوث، صفة الاستواء لله عز وجل، الفصل الثالث، المبحث الثاني الرد على المخالفين، موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء

٤- مجلة البحوث الإسلامية، العدد الثاني عشر - الإصدار: من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٥هـ، بحوث في العقيدة، بيان في إثبات علو الله تعالى ومباينته لخلقه، فصل في تعلق المردود عليه بجمل من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب، قول ابن القيم في مختصر الصواعق، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء.

٥- كتاب الغنية عن الكلام وأهله، على الموسوعة الشاملة.

٦- بيان تلبيس الجهمية جـ:١، صـ: ٢٥١ — ٢٥٤.

٧- المسائل المتعلقة بالأسماء الحسنى عند الأشاعرة، موقع الدرر السنية.

٨- أعلام الحديث جـ ٣، صـ ١٩٠١.

٩- معجم الأدباء:(٢٥٠/٤)، سير أعلام النبلاء: (٢٧/١٧)، تذكرة الحفاظ :(١٠٢٠/٣).

١٠- كتاب الإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة، لأبي عبد الرحمن الحسن بن عبد الرحمن العلوي ص ٢٩، طبعة دار الوطن، الطبعة الأولى. انتهى.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وممن ساروا على هذا الطريق أيضًا الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، في كتاب له عن إعجاز القرآن من جهة بلاغته، وقد اجتهد في تفصيل وجوه الإعجاز من جهة البلاغة، وخرج به عن دائرة النظم إلى دوائر أخرى من المعاني كالإخبار بما يحدث في المستقبل، وبهذا يكون البحث في الإعجاز قد بدأ ينتقل إلى طور جديد.

رابعًا: القرن الخامس

وابتداء من القرن الخامس الهجري، ومع اتساع مجالات علم الكلام، وتفشّي بعض مظاهر الزندقة والإلحاد(٣٠٣) بدأت البحوث في الإعجاز القرآني تتخذ مسارات أكثر تطورًا، وساعد على هذا التطور الازدهار المشهود الذي اتسمت به البحوث اللُّغوية والفنون الأدبية، ويُعَدُّ كتاب الباقلاني من أفضل نتاج هذا القرن في مجال الإعجاز، إلى جانب إنجازات عبد القاهر الجرجاني الذي وضع نظرية النظم وضعًا متكاملاً، وإليها يرجع الفضل في تطور علوم البلاغة بعد ذلك، بل إننا لا نغالي إذا قلنا: إنَّ ما جاءت به بعض المدارس اللُّغوية المعاصرة التي اهتمت بالأسلوب والتحليل البنائي للتراكيب اللُّغوية لم تضف كثيرًا إلى ما نادى به عبد القاهر .كما سيتضح ذلك بعد قليل ..

أما كتاب الباقلاني فقد تلا ذلك من عصور، هو المنوال الذي نسج عليه المؤلفون في الإعجاز بعد عصر الباقلاني، وفيه ناقش مسألة في غاية الأهمية، وهي أنَّ القرآن لم يكن معجزًا للكفار في عصر النبي – صلى الله عليه وسلم – فقط– بل إنَّ إعجازه يشمل كل العصور التالية، والدليل على ذلك . في رأيه . أنَّ أسلوب القرآن سيظل أرقى من كل الأساليب مهما تطورت.

كما فرَّق الباقلاني بين إعجاز القرآن وإعجاز غيره من الكتب السماوية، فأوضح أنَّ إعجاز تلك الكتب مقصور على الإخبار بالغيب فقط، والقرآن إعجازه متعدد الجوانب(٣٠٤).

أما عبد القاهر فقد بنى نظريته في النظم على أساس لغوي نحوي بحت، فهو في كتابه: "دلائل الإعجاز" يوضح جوانب نظريته تلك توضيحًا كافيًا ويرد على مخالفيها. وملخص ما ذهب إليه أنَّ البلاغة التقليدية تقوم على حسن اختيار الألفاظ، فيتقوى المعنى بما يبذله المنشئ للأدب من جهد في التقديم والتأخير والاستعارة. وإعجاز القرآن يقوم بالأساس على فكرة أداء المعنى المراد بصورة جمالية مؤثرة في النفس من خلال العلاقات اللُّغوية (صوتيًا بين الحروف، ونحويًا بين الكلمات، وصرفيًا باختيار بناء صرفي محدد) وهذه العلاقات الثلاث تسهم في وضعية الدلالة وتأثيرها.

٣٠٣–الزنديق: المشهور على ألسنة الناس أنَّ الزنديق هو الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر، والعرب تُعبِّر عن هذا بقولهم: ملحد أي طاعن في الأديان، وفي "التهذيب": وزندقة الزنديق أنه لا يؤمن بالآخرة ولا بوحدانية الخالق. يُنظر: المصباح المنير، ٩٨.

٣٠٤– بحث الإعجاز القرآني نظرة تاريخية، د. مصطفى رجب، مجلة المنهل، العدد ٤٩١، أكتوبر ٩١، ص ٣٨.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وهكذا بدأت بحوث الإعجاز تتميز عن بحوث البلاغة وعلم الكلام، وفتح عبد القاهر والباقلاني باب تلك البحوث لمن جاء بعدهما. ففي القرن التالي لهما، وهو القرن السادس.

خامسًا: القرن السادس

وفي القرن السادس نجد الاهتمام بالبحث في الإعجاز يتسع ليشمل متكلِّمين كأبي حامد الغزالي (شافعي المذهب)، والقاضي عياض (مالكي المذهب)، ومفسرين كالزمخشري المعتزلي(٣٠٥) وابن عطية الأندلسي(٣٠٦).

سادسًا: القرن السابع

وفي القرن السابع نجد فخر الدين الرازي، وهو مفسر مشهور ويأخذ تفسيره المسَمَّى "مفاتيح الغيب" طابعًا خاصًا يهتم بالرد على فرق كثيرة من الزنادقة وينتمي تفسيره لمدرسة التفسير بـ "الرأي المحمود"، هذا مع ما على من تفسيره من مآخذ عظام. (٣٠٧)

ونجد السكاكي البلاغي في كتابه: "مفتاح العلوم" الذي يعدّه كثير من الباحثين خاتمة كتب البلاغة القديمة في صورتها الإبداعية، ويعدّون مؤلفات البلاغة بعد السكاكي مجرد شروح وحواش وتلخيصات واجترار لما قاله السابقون.

كما نجد اهتمامًا بالبحث في الإعجاز في هذا القرن أيضًا عند ابن العربي الآمدي، علي بن أبي علي (ت: ٦٣١هـ)، وحازم القرطاجني: (ت ٦٨٤هـ)، ثم البيضاوي المفسر(٣٠٨).

سابعًا: القرن الثامن

وفي القرن الثامن نجد آراء قيمة للزملكاني (ت: ٧٢٧هـ) في كتابه: "التبيان في إعجاز القرآن"، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) في كتابه: "جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن"، والخطيب الذي لخص كتاب: "مفتاح العلوم" للسكاكي، ويحيى بن حمزة العلوي صاحب كتاب: "الطراز" (ت ٧٤٩هـ)، والإمام ابن القيم (ت٧٥١هـ) صاحب كتاب "الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان"، الذي يتناول فيه بإسهاب قضية الإعجاز القرآني وما سبقه من آراء فيها. كما نجد إشارات للإعجاز في تفسير ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) (٣٠٩)

٣٠٥- يُنظر: الكشاف للزمخشري، ٢٩٥/٤.

٣٠٦-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تفسير سورة البقرة.

٣٠٧- يُنظر: تفسير الفخر الرازي، ٢٢/١٤.، كشف الظنون، مادة (تفسير)، ٤٣١.

٣٠٨-يُنظر: تفسير البيضاوي، ٢٠٤/٥.

٣٠٩-يُنظر: تفسير ابن كثير، تحقيق سامي محمد السلامة، ٤٧/١.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثامنًا: القرن التاسع

وتتابعت الكتابات في الإعجاز القرآني بعد ذلك، حيث نجد في القرن التاسع آراء لابن خلدون والفيروز آبادي والمراكشي.

تاسعًا: القرن العاشر

وفي القرن العاشر يظهر السيوطي بكتابيه: "الإتقان في علوم القرآن" و"معترك الأقران في إعجاز القرآن"، وكتابه الثاني جامع ومفيد يقع في ثلاثة مجلدات، وهو في رأي بعض الباحثين أثمن كثيرًا من الإتقان وأشمل، ويغفل عنه كثير من الباحثين على الرغم من قيمته العظيمة، وقد رتّبه السيوطي على خمسة وثلاثين وجهًا من وجوه الإعجاز، ويقدم لكل وجه بمن ألَّف فيه قبله، وهو يُعَدُّ سجلاً للمؤلفين والكُتَّاب في هذا الفن. (٣١٠)

كما نجد في هذا القرن أيضًا تفسير أبي السعود العمادي(٣١١) وبعض الإشارات عند طاش كبرى زاده (٣١٢).

عاشرًا: القرن الحادي عشر

وفي القرن الحادي عشر نجد الشهاب الخفاجي.

حادي عشر: القرن الثاني عشر

وفي القرن الثاني عشر نجد الضرير المالكي الإسكندري، الذي تفرَّد بين علماء التفسير بوضعه تفسيرًا منظومًا كاملاً للقرآن الكريم، كما نجد الجمل الذي وضع حاشية على تفسير الجلالين.

ثاني عشر: القرن الثالث عشر

وفي القرن الثالث عشر يتميَّز الشوكاني بتفسيره: "فتح القدير"(٣١٣)

والألوسي بـ: "روح المعاني"(٣١٤). وقد تحدث كل منهما في ثنايا تفسيره عن البلاغة القرآنية وجوانبها المختلفة.

وخير ما نجده في هذا العصر كتاب "البرهان في علوم القرآن" لبدر الدين الزركشي، وفيه مبحث جيد في إعجاز القرآن، والكتاب مطبوع حاليًا في أربعة مجلدات ومتداول.

---

٣١٠ -يُنظر: د. إسماعيل أحمد الطحان: دراسات حول القرآن الكريم، ص ٩٧.

٣١١- يُنظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود، ٣٩٠/٥.

٣١٢- طاشْ كُبْري زَادَهْ: (٩٩١-٩٦٨ هـ / ١٤٩٥ - ١٥٦١ م) هو مؤرخ تركي.

هو أحمد بن مصطفى بن خليل: أبو الخير، عصام الدين طاش كبري زاده. ولد في بروسة، ونشأ في أنقرة .وولي القضاء باستانبول سنة ٩٥٨ هـ. .الزركلي، خير الدين (١٩٨٠)" .طاشْ كُبْري زَادَهْ ."موسوعة الأعلام .موسوعة شبكة المعرفة الريفية .اطلع عليه بتاريخ ٢١ تشرين الأول ٢٠١١.

٣١٣- يُنظر: فتح القدير للشوكاني، مؤسسة الريان، بيروت، ط/١، ١٤١٨هـ، ٦٩/١. ومحاسن التأويل للقاسمي، ٧٢/١، وتفسير النسفي، ٣١٣٣٨١/٤ -.

٣١٤- يُنظر: روح المعاني للألوسي، ٢٥٦/٣٠.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الكتب الجيدة أيضًا التي تناولت الإعجاز بتفصيل دقيق "مناهل العرفان في علوم القرآن" للشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقاني حيث عرَّف إعجاز القرآن بقوله: "أصل الإعجاز في اللُّغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به.

والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله – تعالى – عن الإتيان بما تحداهم به. ولكن التعجيز المذكور ليس مقصودًا لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أنَّ هذا الكتاب حق، وأنَّ الرسول الذي جاء به رسول صدق، وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن للازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله – تعالى –، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات، إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر، لحكمة عالية، وهي إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة"(٣١٥).

ولقد تناول في المبحث السابع عشر إعجاز القرآن وما يتعلق به بالتفصيل، فارجع إلى ذلك هناك(٣١٦).

ولم يعدم القرن الأخير كُتَّابًا شغلهم إعجاز القرآن فألَّفوا فيه كالرافعي في كتابيه: "آداب العرب" و"إعجاز القرآن"، والدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه: "النبأ العظيم" في بعض مباحثه (٣١٧).

وما زال في الساحة كثير ممن لا أحصيهم عددًا، وفي ضمير الغيب كثير ممن سَيُقَيَّضُونَ لهذا العمل الجليل، ويورثون علم هذا الكتاب العزيز حتى آخر الزمان. (٣١٨)

وعلم إعجاز القرآن يتعلق بالإعجاز البلاغي، وقد كتب فيه أقوام أغلبهم من المتكلمين، فاحتيج لمصنفات تُكتب بأقلام أهل السنة والجماعة وتجري على منهجهم العقدي.

وذلك لأن للإسلاميين مناهج متباينة في تقرير العقائد نذكر أهمها وأظهرها على النحو التالي:

١- منهج الخوارج المنبني على التشدد والغلو في الدين

٢-ومنهج الرافضة المنبني على الغلو في أهل البيت وتنقص السلف ومخالفة المسلمين

٣- ومنهج المرجئة المنبني على التساهل

٤- ومنهج المتكلمين المنبني على تقديم العقل على النقل ونفي الصفات أو تأويلها

٥- ومنهج الفلاسفة المنبني على الإلحاد والتعطيل

٦- ومنهج الصوفية المنبني على الغلو في الأشخاص والرهبانية المبتدعة

٧- ومنهج أهل السنة والجماعة بين تلك المناهج المضطربة، وهو: المنهج المنبني على الاعتصام بالكتاب والسنة وما اتفق عليه السلف والتابعون فمن قال بالكتاب والسنة وإجماع السلف كان من أهل السنة والجماعة وتوسط

٣١٥-يُراجع: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، ٣٣١/٢.

٣١٦ -يُراجع: مناهل العرفان للوقف على تفصيل أكثر، ٥٦/١-٨٤.

٣١٧- د. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص ٨٠-١٠٩.

٣١٨- يُنظر: الإعجاز العلمي، عمر يوسف حمزة، عن موقع مداد، بتاريخ: ١٤٢٨/١٠/٢٧هـ.

شبكة الألوكة www.alukah.net

بين الغالين والمقصرين. ولقد اختلف اللغويون قبل القرن الرابع الهجري في تعاملهم مع اللغة العربية لتقرير العقائد تبعًا لاختلاف مناهجهم العقيدة فتوزعوا في خمسة مناهج رئيسة هي:

الأول: منهج أهل السنة والجماعة

الثاني: منهج المعتزلة

الثالث: منهج الأشاعرة ومن شابههم

الرابع: منهج الشيعة والرافضة

الخامس: منهج الخوارج.

ولمنهج أهل السنة والجماعة في تعامله مع اللغة العربية في تقرير العقائد قواعد وأسس منها:

أ– اعتبار العربية أصلًا من أصول الدين والتثبت من روايتها ورواتها

ب– الاحتكام إلى قوانين العربية وقواعدها والأخذ بالقياس والظاهر وبما تفهمه العرب من خطابها دون الشاذ والغريب والبعيد إلا بقرينة

ج– الابتعاد عن المصطلحات الكلامية المستحدثة

د– مراعاة دلالة السياق وأحوال المتكلم والمخاطب والقرائن في الألفاظ اللغوية والشرعية

هـ – تقديم المدلولات الشرعية على اللغوية والاعتماد في تفسير ألفاظ الكتاب والسنة والآثار واللغة على الكتاب والسنة وأقاويل السلف لا على اللغة المجردة.

وكذلك فإن للمنهج الاعتزالي في تعامله مع اللغة العربية لتقرير العقائد سمات منها:

أ– الاعتماد على العقل أو اللغة المجردة أو الأشعار في تفسير المفردات اللغوية الشرعية

ب– تجريد الألفاظ العربية من المعاني التي تدل عليها وحملها على ما يتلاءم مع عقائدهم من غير مراعاة للسياق

ج– التصرف في معاني الألفاظ الشرعية بالوجوه الإعرابية والقراءات الشاذة

د– تحريف مدلولات الصيغ الفعلية والأدوات والحروف حتى تنسجم مع مبادئهم

هـ – التحكم في سياقات اللغة العربية بالتأويل والتقدير وادعاء أن هناك محذوفًا يجب تقديره

و– رد دلالات الألفاظ الشرعية بالأساليب البلاغية المستحدثة وعدم الأخذ بتفسير السلف للغة العربية ورده وعدم قبوله.

وكذلك فإن للمنهج الأشعري في تعامله مع اللغة العربية في تقرير العقائد سمات منها:

أ– الاعتماد على المنهج الاعتزالي مع اللغة العربية السالف الذكر

ب– تفسير المصطلحات العقدية باللغة المجردة أو الأشعار

ج– تطويع اللغة العربية لمتطلبات المذهب

شبكة الألوكة www.alukah.net

د– صرف اللفظ عن ظاهره مع عدم بيان المراد منه وهو ما يعرف عندهم بالتفويض غير أنهم يخالفون المعتزلة فيما إذا كان تخريجهم للغة مخالفًا لعقائدهم

هـ– يتقبلون ألفاظ النصوص المتعلقة بالغيبيات بناء على إثباتهم للسمعيات.

وللمنهج الشيعي الرافضي أيضا خصائص في تعامله مع اللغة العربية لتقرير العقائد منها:

أ– الكذب على اللغة وتحريف الكلم عن مواضعه والتصرف في الحروف والوجوه الإعرابية النحوية لدعم المذهب

ب–اختيار الأوجه الغريبة والشاذة للاحتجاج بها

ج– توظيف فقه اللغة لخدمة معتقداتهم وأسمائهم

د– رد تفاسير السلف للغة العربية جملة وتفصيلًا.

منهج الخوارج:

أما منهج الخوارج فليس له سمات واضحة في تعامله مع العربية لتقرير العقائد لأنه كان قليل الحظ لدى اللغويين غير أن قدماءهم كانوا نصيين يغالون في فهم ظاهر ألفاظ الكتاب والسنة ولا يلتفتون إلى الأدلة الأخرى الواردة في المعنى نفسه فأوقعهم ذلك في التكذيب لما يخالف ظنهم من الآيات والأحاديث والتكفير على الكبائر وتوابعه، أما متأخروهم فقد تأثروا بالمعتزلة وأخذوا بمناهجهم مع اللغة العربية لتقرير العقائد.

وأخيرًا فإن للإنسانية كذلك مناهج مختلفة في تقرير العقائد عموما منها:

أ– المنهج المادي

ب– والمنهج العقلاني

ج– والمنهج التجريبي

وأما المنهج الإسلامي فهو بين تلك المناهج المختلفة، إذ هو المنهج: المنبني في تقرير عقيدته على الوحي بقسميه: الكتاب والسنة الصحيحة من غير تمييز بينهما، مع فهمهما بفهم سلف الأمة. (٣١٩)

لذا يقرر الباحث ويقول:

إنه لابد من إجراء دراسات عن إعجاز القرآن لغوية "بلاغية بيانية" جادة تعتني بإبراز هذا الجانب في ضوء منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة، ويتبنى توجيهها والإشراف عليها الجهات المعنية، من المجامع العلمية المتخصصة، وأقسام الدراسات العليا في الجامعات، وممن هو في حكمها، لتقديم أطروحات علمية متميزة.

وقد وقف الباحث على أطروحة علمية تحت عنوان " جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم: ابن القيم أنموذجًا" للباحث: العيد محمد الصغير حِذّيق. – من الجزائر. وأصل هذا الكتاب أطروحة

٣١٩– يُنظر: خاتمة كتاب مناهج اللغويين في تقرير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور محمد الشيخ عليو محمد، عن موقع الدرر السنية.

شبكة الألوكة www.alukah.net

علمية نال بها الباحث درجة التخصص-(الماجستير)، في تخصص اللغة العربية والدراسات القرآنية. من كليَّة العلوم الإسلاميَّة بجامعة الجزائر عام ١٤٣٢ هـ.

وموضوع هذه الأطروحة يدور حول قضيتين رئيستين:

أمَّا القضية الأولى: فهي ندرة مؤلفات المنتسبين لأهل السنة والجماعة في إعجاز القرآن الكريم، وقد حاول الباحث تلمُّس أسباب لهذه الظاهرة؛ وأوضح أن لها أسبابًا موضوعيَّةً؛ تاريخيَّةً ومعرفيَّةً وغيرها.

وأمَّا القضية الأخرى: فهي إيضاحُ أن للمنتسبين لأهل السنة والجماعة جهودًا في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن – وإن قَلَّت في الجُملة مُقارنةً بغيرهم من المعتزلة والأشاعرة –، ومثَّلنا لها بجهودِ عَلَمٍ من أعلامهم، هو: ابن القيِّم- رحمه الله-، لما له من المكانة والمنزلة بينهم. وهذا مما يثلج الصدر لكنه نادر وقليل.

يتابع الباحث ما بدأ هنا فيقول:

وكذلك على أصحاب الأقلام الحرة من أهل التخصص الغيورين عبء ومسؤولية كبرى على حسب القدرة والطاقة، ولابد كذلك من تأسيس قواعد معلوماتية ومرجعية لجمع تلك الدراسات وتسجيل ما تم إنجازه ولتكون مرجع للباحثين، كما هو معمول به اليوم في بعض الجامعات الكبرى (٣٢٠)

المطلب الثاني: أركان الإعجاز البياني للقرآن الكريم

أولاً: أركان الإعجاز البياني للقرآن الكريم التي لا يتحقق إلا بها ثلاثة أركان.

أما الركن الأول: فهو التحدي:

والتحدي لغةً: بمعنى المباراة والمبارزة والمعارضة.

جاء في لسان العرب لابن منظور:

" تحديت فلانًا إذا بارَيْتَه في فعل ونازَعْتَه الغلبة"،.... وهي الحديّا "(٣٢١)

قال عمرو بن كلثوم في معلقته متحديًا الناس جميعًا بمجد قومه وشرفهم:

حُدَيّا الناسِ كلِّهِمِ جَميعا *** مُقارَعَةً بَنِيهِمْ عن بَنِينا. (٣٢٢)

والتحدي اصطلاحًا:

التحدي اصطلاحًا يتصل اتصالًا وثيقًا بالمعنى اللغوي فهو طلب الإتيان بالمثل على سبيل المنازعة والغلبة ويتحدد المثل تبعًا لما يتحدى به.

فالتحدي بالقرآن طلب الإتيان بمثله. (٣٢٣)

٣٢٠- وهو ما يسمى: بال" سيمنار"، "seminar"

٣٢١- ابن منظور-لسان العرب، مادة حدا- (١٦٨).

٣٢٢- شرح المعلقات السبع- الزوزني- ص: ١٧٧- نقلاً عن: التحدي بالقرآن الكريم-د. محسن الخالدي- ص: ٣

٣٢٣- المرجع السابق-ص: ٣

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد بعث الله تعالى نبيه ورسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم وأيده بآية وبرهان على صدقه نبوته ورسالته، ألا وهي: القرآن الكريم(٣٢٤).

قال الباقلاني:

"وإنما احتيج في باب القرآن إلى التحدي لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزًا، فإنما يعرف أولا إعجازه بطريق؛ لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزًا، فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه، فيجب أن يعرف هذا، حتى يمكنه أن يستدل به، ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدي إليه والتقريع به والتمكين منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصى ثعبانًا تتلقف ما يأفكون... "(٣٢٥)

ويمكن القول بأن هذا التحدي كان أول مواجهة لتحدي ثقافي في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – فزعم المشركون أن باستطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم وزعموا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد اختلقه فتحداهم الله أن يأتوا بمثله، وقرَّعهم بالعجز عن الإتيان– مع ما هم عليه من الأنفة والحمية– بما فيه من الآيات التي تبين أنه بلغتهم ومن جنس كلامهم فطالبهم أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة ...وتمر عليهم السنوات وتزداد الآيات وهم على عجزهم دائمون(٣٢٦).

وقد مر معنا في الفصل الأول الكلام حول قضية مستويات التحدي بالقرآن بالتفصيل فلتراجع هنالك. (٣٢٧)

وأما الركن الثاني: فوجود المقتضي الدافع للمواجهة والمنازلة عند المتحدي

أما وجود المقتضي فإن الله أرسل إليهم رسوله محمدًا–صلى الله عليه وسلم– ليدعوهم إلى توحيده وعبادته، فعاب آلهتهم وسفه أحلامهم وأفعالهم، فكان لهم أن يردوا هذا التحدي ويبطلوه، إن كان عندهم برهان وقدره وهم أهل الفصاحة والبيان، فلو كان لهم قدرة لأبرزوها وبينوها ولأتوا بما يبطل هذا التحدي وينفضه، ولكنه حادوا الله ورسوله وصدوا عن سبيله وكذبوه وحاربوه وعادوه، وكان لهم أن يكفوا أنفسهم مؤنة محاربته وقتاله وإخراجهم عن أوطانهم وسبي نسائهم وذراريهم، لكنهم أظهروا بذلك عجزهم وأعلنوا إفلاسهم، لأنهم لم تقع منهم أي معارضة، فأثبتوا بذلك أنهم عاجزون عنها.

وحول وجود المقتضي الدافع للمواجهة والمنازلة عند المتحدي يقول علم الدين السخاوي: (ت: ٦٤٣هـ)

٣٢٤– هناك معجزات أُخَر للنبي صلى الله عليه وسلم غير القرآن الكريم تسمى بالمعجزات الحسية، وهي كثيرة جدًا، فمنها على سبيل المثال لا الحصر: انشقاق القمر، وحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وكلام الذراع وإخباره بأنه مسمومة، وتكثير الطعام القليل بين يديه.

٣٢٥–إعجاز القرآن–الباقلاني–ص: ١٩٠.

٣٢٦– التحدي بالقرآن الكريم– د. محسن الخالدي–ص: ١٥ (بتصرف)، وينظر: منهج القرآن الكريم في مواجهة التحديات الثقافية، مقال لـ "وليد صقر المطيري" عن موقع: هيئة علماء المسلمين بالعراق، بتاريخ:٢٠١٥/٨/١٠م

٣٢٧– وذلك في المطلب الثالث من المبحث الثالث في الفصل الأول .

شبكة الألوكة www.alukah.net

"لا ريب في عجز البلغاء وقصور الفصحاء عن معارضة القرآن العظيم، وذلك ظاهر مكشوف ومتيقن معروف، لاسيما القوم الذين تحداهم رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، فإنّهم كانوا ذوي حرص على تكذيبه والردّ عليه.... ".

ثمّ أعقب ذلك بالاستدلال على حرصهم على تكذيبه والردّ عليه بأمور منها:

الأمر الأول:

حالة البغض والكراهية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- المصحوبة بـ "معاداته وإظهار بغضه وأذاه، وقذفه بالجنون والشعر والسحر، فكيف يترك من هذه حاله معارضته، وهو قادر عليها ومماثلته وهو واصل إليها"(٣٢٨).

الأمر الثاني:

ما ورد في القرآن الكريم من التقريع الشديد والانتقاد المتتابع والتهديد والوعيد لكفار قريش ولما كانوا عليه من فساد الاعتقاد وسفاهة العقول.

وفي نحو ذلك يقول السخاوي أيضًا:

"هذا والله يتحداهم في القرآن بقوله :(قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا) (الإسراء: ٨٨) مع ما فيه من سبّهم وسبّ آبائهم، ووصفهم بالجهل والعجز، وإيعادهم بالعذاب والنكال وسوء المنقلب، ورميهم بالكذب والافتراء، وتقبيح الأفعال، وتهجين ما هم عليه من الأحكام الفاسدة، وإطالة القول في ذلك، وفي شرح أحوالهم واستقباح أعمالهم، وفيما أعدّ لهم من الهوان والنكال في الدنيا والمآل" ثمّ يستنتج بعد ذلك: "أليس هذا وشبهه ممّا يحملهم على المعارضة لو كانوا قادرين عليها؟.. "

الأمر الثالث:

عادتهم في الذبّ والذود عن أعراضهم بكل ما يملكون، وقد جاوزوا الحد في ذلك، حتى كان من عاداتهم وأد البنات مخافة لحوق العار بهم من أجلهنَّ.

وفي نحو ذلك يقول السخاوي أيضًا:

"وحالهم في الجدال معلومة، وأمورهم في تفاخرهم وطلبهم الترفّع مفهومة، وقد كانوا يجعلون أموالهم دون أعراضهم، ويَهون عليهم كلّ مستصعب في بلوغ أغراضهم، فإذا هجاهم شاعر جدّوا في معارضته وإجابته، واستعانوا على ذلك بمن يحسنه ويظهر عليه في مقاولته ومحاورته... "

وإن عدم معارضة العرب للقرآن وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان معناه أنهم عجزوا عن التحدي، وأن عدم معارضتهم ومنازلتهم وعجزهم أما قوة بيانه وحسن نظمه ورصفه له مما يستدل به أيضًا على إعجاز القرآن من جهة، وعلى أنه كلام الله تعالى من جهة أخرى كذلك.

٣٢٨- جمال القراء وكمال الإقراء، لعلم الدين السخاوي: (ص: ٨٠).

شبكة الألوكة www.alukah.net

يؤكد السخاوي هذ المعنى فيقول:

" فلا ريب إذًا في أنّهم راموا ذلك فما أطاقوه، وحاولوه فما استطاعوه، وأنّهم رأوا نظما عجيبًا خارجًا عن أساليب كلامهم، ورصفًا بديعًا مباينًا لقوانين بلاغتهم ونظامهم، فأيقنوا بالقصور عن معارضته، واستشعروا العجز عن مقابلته. " (٣٢٩)

فهل ذهبت مع التحدي نخوتهم وأنفتهم العربية ونفوسهم الأبية، وهل ذهبت معه حميتهم الجاهلية أدراج الرياح..

وإلى هذا المعنى يشير الباقلاني فيقول:

"ألا ترى أنهم قد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضًا؟ ولهم في ذلك مواقف معروفة، وأخبار مشهورة، وآثار منقولة مذكورة. وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة، ويتبجحون بذلك، ويتفاخرون بينهم. فلن يجوز – والحال هذه – أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها، تحداهم أو لم يتحدهم إليها"(٣٣٠).

يقول الرافعي عند داعيًا للتأمل في آية من آيات التحدي: (٣٣١)

((تأمل نظم الآية تجد عجبًا، فقد بالغ في اهتياجهم واستفزازهم ليثبت أن القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميت على أعمال الحياة لن تكون ولن تقع، فقال لهم: ((ولن تفعلوا)). أي هذا منكم فوق القدرة وفوق الحيلة وفوق الاستعانة وفوق الزمن، ثم جعلهم وقودًا ثم قرنهم إلى الحجارة ثم سماهم كافرين، فلو أن فيهم قوة بعد ذلك لانفجرت ولكن الرماد غير النار)) (٣٣٢)

وأما الركن الثالث: فانتفاء وجود المانع عند المتحدي من قبول المنازلة والتحدي.

وذلك من ثلاث جوانب

فالمانع الذي يمنع من المعارضة غير موجود وذلك متضح في جوانب ثلاث:

الجانب الأول: الجانب اللغوي.

أما الجانب اللغوي فالعرب كانوا قادة الفصاحة والبيان بشهرهم ونثرهم وكان القرآن بلسانهم، أي أنه نزله بلغتهم.

وما ورثوه من الشعر والنثر والخطب والأمثال خير شاهد على فصاحتهم وقوة بيانهم وتمكنهم من اللسان العربي

وحول معنى تمكنهم من اللغة يقول الرافعي:

".... العرب أصحاب الفطرة اللغوية والحسن البياني الذين صرفوا اللغة وشققوا أبنيتها وهذبوا حواشيها وجمعوا أطرافها واستنبطوا محاسنها". (٣٣٣).

٣٢٩- نفس المرجع السابق.

٣٣٠- إعجاز القرآن للباقلاني: (١/١٦).

٣٣١- وهي: قوله تعالى: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا...} (البقرة: ٢٣- ٢٤).

٣٣٢- إعجاز القرآن للرافعي: (ص:١٢) نقلًا عن هامش رقم: (٢).

٣٣٣- الرافعي، إعجاز القرآن ص٢٢٨، وانظر عبدالله بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق : سيد أحمد صقر (القاهرة، دار إحياء الكتب العربية) ص١٠- ١١.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الجانب الثاني: الجانب المعنوي

فكانوا على بصر وخبرة وتجارب وذكاء، كما تشير إلى ذلك أشعارهم وخطبهم ومنا فارتهم آثارهم.

وقد كانوا على مستوى من الذكاء والحنكة ورجاحة العقل وبعد النظر، بحيث تؤهلهم هذه المقومات الفطرية الجبلية مع ما اكتسبوه من التجارب، كانت كفيلة بأن ينزلوا إلى ميدان التحدي ويأتوا بمثل القرآن ويحاكوه ويماثلوه، هذا لوكان القرآن من كلام البشر، فلم عجزوا تبين أنه ليس بكلام البشر، ولكنه كلام رب البشر.

هذا.... وقد بين الله في كتابه أن كل من صد عن سبيله سبحانه بوقوفه ضد دعوة التوحيد عنادًا وكفرًا واستكبارًا في الأرض بأنه أضل من الأنعام كما في قوله سبحانه: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} (الأعراف: ١٧٩) كما وصفهم بأنهم من شر الدواب. كما في قوله جل في علاه: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ}(الأنفال: ٥٥) وكما شبه سبحانه المنسلخ من دين الله وشرعه بعد أن آتاه آياته بـ"بالكلب" كما في قوله سبحانه: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}(الأعراف: ١٧٥- ١٧٦).

ومن هنا كانت حاجتهم ملحة للغاية على إبطال هذا التحدي ليدفعوا عن أنفسهم ويلات الحروب، فيكذبوه ويدحضوا ما جاء به ويدرأوا عن أنفسهم ما وُصِفوا به في كتاب الله من تلك الأوصاف الذميمة والمشينة والمعيبة وأنهم كالأنعام والدواب والكلاب والحمير وغيرها من الأوصاف، لكن شيئًا من ذلك لم يكن.

الجانب الثالث: الجانب الزمني

فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، بل نزل خلال ثلاث وعشرين سنة، ليتسع مجال المعارضة. ([٣٣٤]) فنزول القرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة أعطى فسحة زمنية طويلة الأمد، وبقي التحدي طوال هذه السنين قائمًا. ولو نزل القرآن جملة واحدة لتحججوا واحتجوا بضيق الوقت وقلة زمن الإمهال ليأخذوا أهبتهم ويعدوا عدتهم وينزلوا إلى ميدان التحدي ومعترك المنازلة، فكان تنجيم القرآن على سنين طوال حجة دامغة ومسكتة ومخرسة مقترنة بالعجز التام.

٣٣٤-عبدالوهاب خلاف: علم أصول الفقه (ص:٢٥-٢٧)، محاضرات في أصول الفقه، بدر الدين المتولي: (١/١٢٩).

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الثالث: الإعجاز البياني المتعلِّق بالأسلوب ونظمه البديع

إن الإعجاز البياني المتعلِّق بأسلوب القرآن ونظمه البديع يمثل أعلى درجات البلاغة والبيان في التعبير عن الإفادة المعرفية القرآنية المقرونة بالتحدي.

ومعنى أنه بديع في نظمه أي في طريقة تكوين حروفه وألفاظه وجمله، وما يكون بينها من تناسق وسبك وإحكام وما تتضمنه من فصاحة، وبراعة استهلال، وحسن نظم، وروعة بلاغة وبيان، وقوة وسلامة إعراب، وصحة إغراب، وما يدل عليه من معاني بأبلغ عبارة وأعذبها، وأحسن نظم وأجمل سياق. والعرب الذين هم أرباب البيان وفرسان البلاغة وأساطين اللغة وأئمتها قد اندهشوا وانبهروا أمام روعة بيانه ووقفوا أما بلاغته وحسن نظمه وسبك ألفاظه عاجزين عن محاكاته، قد أسرتهم عباراته وتناسقه وحسن إتقانه وقوة تأثير أسلوبه في النفوس فأخرستهم بلاغته وأبكمتهم روعته فعجزوا عن معارضته ومشاكلته.

والقرآن لا يشابه شيئًا من نظم الشعر وسجع قوافيه، ولا يشابه شيئًا من كلام العرب وأسلوبهم في النثر والخطابة، فأسلوبه بديع في نسقه خارج عن العادة وعما ألفته العرب في أسلوبها، إذ أنهم ليس في كلامهم كلام يشابه فصاحة القرآن وتصرفه البديع، ومعانيه اللطيفة، وتناسب بلاغته وأسلوبه، فلا يمكن لأحد مجاراته ومحاكاته أبدًا لأنه خرج عن العادة، وخرج عن وسع وطاقة البشر.

فكلام البشر مهما كان فصيحًا وبليغًا إلا أنه إذا امتد وطال وقع فيه من التفاوت والتباين على ما ينصرف إليه من الوجوه، وأما كلام الله تعالى الذي يشتمل على وجوه عديدة من صفات الله تعالى وأوامره ونواهيه ووعده ووعيد وتخويفه وتهديده وثوابه وعقابه، وكذلك ما حواه من الحكم والأحكام وأخبار الماضين واللاحقين وقصصهم، وما حواه من عبر وعظات وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها مما لا يتسع المجال لوصفه، كل ذلك مع بلوغه الغاية في الحكمة وفصل الخطاب، ومع ذلك كله لا تجد في كلام الله من التفاوت والتباين مع طوله وتنجمه في ثلاث وعشرين سنة.

وفي نحو ذلك يقول الباقلاني:

الناظر في القرآن يجد فيه القصص والمواعظ والاحتجاج والحكم والأحكام والوعد والوعيد والتبشير والتخويف ومع ذلك فهو غاية في الفصاحة وبديع النظم بخلاف كلام البشر من نثر أو شعر، فقد يجيد أحد الشعراء في المدح دون الهجاء أو التأبين دون التقريظ أو الوصف دون الغزل، أو عكس ذلك، لكنك لا ترى شاعرًا ولا ناثرًا يجيد كل ما سبق من الأساليب بنفس القوة. ولذلك ضرب العرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب(٣٣٥).

٣٣٥- الباقلاني، إعجاز القرآن ص٣٦- ٣٧.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقول في موضع آخر:

يمتاز القرآن باتساق عباراته وبلاغتها وبديع نظمه على كثرة سوره وطولها وقصرها، من غير أن تختل هذه المزية فيه بخلاف كلام العرب، فإنك لا تجد لحكيم ولا لشاعر أو فصيح كلامًا بطول القرآن وعلو شأنه، بل قد يبدع أحدهم في بعض قوله ويخفق في آخر، بل قد يناقض نفسه، أما القرآن فهو كما وصفه الله: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} (النساء: ٨٢) (٣٣٦).

ذلك لأن الله قد أنزلَ كتابَه المجيدَ على أحسنِ أسلوب، وبهرَ بحسنِ أساليبِه وبلاغةِ تركيبِه القلوب، نزَّله آياتٍ بيّناتٍ، وفصَّله سورًا وآياتٍ، ورتَّبَه بحكمتِه البالغةِ أحسنَ ترتيب، نظَمَه أعظمَ نظامٍ بأفصحِ لفظٍ وأبلغِ تركيبٍ (٣٣٧)

وقد بلغت متانة نظمه الغاية التي ليس وراءها مطلع، فلا يمكنك وأنت العارف بقوانين البيان، الناظر في منشآت البلغاء بإمعان، أن تشير إلى جملة من جمله وتقول: ليتها جاءت على غير هذا الوضع، أو تشير إلى كلمة من كلمها وتقول: لو استبدل بها كلمة أخرى لكانت الجملة أشد انسجامًا، وأصفى ديباجة. يصل الكلمة بما يلائمها، ويعطف الجملة على ما يناسبها، ويضع الجملة معترضة بين الكلمتين المتلائمتين، أو الجملتين المتناسبتين، فترى الكلمتين أو الجملتين مع الجملة المعترضة بينهما كالبناء المحكم المتلائم الأجزاء، فلا يكاد الفكر يشعر بأنه انقطع بالجملة المعترضة عن الكلمة الأولى أو الجملة، ثم عاد إلى كلمة أو جملة مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا. (٣٣٨)

يقول السخاوي عن حال العرب مع نظم القرآن:

لا ريب في عجز البلغاء وقصور الفصحاء عن معارضة القرآن العظيم وعن الإتيان بسورة من مثله..... فلا ريب إذًا في أنّهم راموا ذلك فما أطاقوه، وحاولوه فما استطاعوه، وأنّهم رأوا نظمًا عجيبًا خارجًا عن أساليب كلامهم، ورصفًا بديعًا مباينًا لقوانين بلاغتهم ونظامهم، فأيقنوا بالقصور عن معارضته، واستشعروا العجز عن مقابلته. " إذًا فهو النظم العجيب والرصف البديع....

ثم يتابع ويبين أن القرآن له أسلوبه المتميز فلا هو بالشعر ولا هو بالنثر ولا الخطب ولا هو السجع فيقول:

ولكن إعجاز القرآن من قبل أنه خارج في بديع نظمه وغريب أساليبه عن المعهود من كلام البشر، مختص بنمط غريب لا يشبه شيئًا من الرصف والترتيب، فلا هو من الشعر، ولا هو من ضروب الخطب والسجع، يعلم من تأمله أنه خارج عن المألوف، مباين للمعروف متناسب في البلاغة متناسب البراعة بريء من التكلف متنزه عن التصنع والتعسف.....

٣٣٦- المرجع السابق: ص٣٥.

٣٣٧- تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي: (ص: ٣٥). بتصرف يسير.

٣٣٨- بلاغة القرآن لـ محمد الخضر حسين (٦/٢). بتصرف في بعض الألفاظ .

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم هو يتابع ويؤكد على أن بلاغته وفصاحته مستوعبة للقرآن كله ولجميع موضوعاته وأغراضه، فيقول:

... وكلام البشر – وإن كان من فصيح بليغ – يظهر فيه – إذا طال – تفاوت واختلاف وإخلال. والقرآن العزيز على ذوق واحد، إنْ بَشَّرَ أو أنْذرَ أو وَعَظَ أو حَذّرَ أو قصَّ أو أخبرَ، أو نهى أو أمرَ، وليس ذلك لرؤساء الكلام وفحول النظام، فقد يجيد بعضهم المدح ويقصّر في ضدّه، وفي وصف الخيل وسير الليل دون وصف الحرب والجود والمطر والسيل. ". (٣٣٩)

المطلب الرابع: العجز عن مجاراته ومحاكاته

لابد أن يُعلم أنه لا يستطيع أحد مهما أوتي من فصاحة وبلاغة أن يجاري ويحاكي أسلوب القرآن في نظمه البديع، وذلك لكون القرآن له نسقه الخاص في أسلوبه فلا يمكن لبشر أن يجاريه أو يحاكيه أبدًا.

ذلك لأن الأسلوب القرآني تميز ببديع نظمه وحسن نسقه وتفوق أسلوبه وجمال تعبيره

على أحسن وأجود كلام العرب الفصحاء البلغاء، ففاق بحسنه وبهائه أعذب شعرهم وأجمل وأجزل عباراتهم، **فهو كما قال الرماني:**

" أتى بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة " (٣٤٠).

فهو خارج عن المألوف من نظام جميع كلام العرب، فله أسلوب يختص به ويميزه عن سائر الكلام. فلا هو بالشعر ولا بالنثر. لكنك لو قرأت بعض آياته شعرت بالنسق العجيب بينها، وكذا بين الكلمات، وحتى بين الحروف فتجد تناسقًا عجيبًا بين الرخو والشديد والمجهور والمهموس والانفتاح والإطباق... (٣٤١) بحيث إذا قرأت القرآن شعرت بتأثير شديد في نفسك (٣٤٢). استمع إلى قوله تعالى: {يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ}(الحج: ١-٢) (٣٤٣)

٣٣٩- جمال القراء وكمال الإقراء: (ص: ٨١-٨٢).

٣٤٠- يُنظر: النكت، للرماني، ص: ١٠٢.

٣٤١-هذه صفات بعض الحروف، وكل حرف في لغة العرب يمتاز بخمس صفات متضادة على الأقل كالفاء، وبعضها يمتاز بست صفات، خمس متضادة وواحدة غير متضادة كالباء . وهناك حرف وحيد له سبع صفات، خمس متضادة وصفتان غير متضادتين وهو حرف الراء . ومجموع صفات الحروف كما اختاره ابن الجزري سبع عشرة صفة . خمس لها ضد فتكون عشر صفات . وسبع لا ضد لها. انظر الكلام مفصلاً في هذه المسألة في ، الملخص المفيد في علم التجويد، لمحمد معبد ص٨٥- ٩٥.

٣٤٢-الباقلاني، إعجاز القرآن ص٣٥، ص١٣٢ سيد الحكيم، إعجاز القرآن ص٧٢، ويُنظر: الإعجَازُ البَيَاني لِلقُرآن الكريم أركَانه وَمَظَاهره، د. حسين مطاوع الترتوري، (ص: ٦)

٣٤٣- يُنظر: الإعجَازُ البَيَاني لِلقُرآن الكريم أركَانه وَمَظَاهره، د. حسين مطاوع الترتوري

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الخامس: ترابط وتناسق أجزائه

فالكلام لن يكون بديعًا حتى تترابط وتتناسق أجزاؤه وهكذا القرآن، وهذا من بديع نظمه. فمن أبرز خصائص أسلوب القرآن أنك ترى الترابط المتين والتناسق القوي وجودة السبك والتماسك النصي بين حروفه وكلماته وجمله وموضوعاته، وكأنه سبيكة واحدة منتظمة ومتلاحمة ومترابطة الأجزاء في عقد واحد متلألأ متتابع الحلقات، تأخذ بالأبصار، وتذهل العقول وتدهش من جمال سبكها وحسن ترابطها، مما يدلل دال على جودة سبكها وجودة إحكامها وكمال انسجام أجزائها.

فأجزاء القرآن تتماسك ويشد بعضها بعضًا؛ لتتآخى وتنسجم بحيث لا يمكن وضع كلمة مكان أخرى، ولو فُعِلَ ذلك لاختل المعنى واضطرب، لأن كل لفظة وضعت في موضع لهدف وغاية بحيث لا يمكن لغيرها أن يقوم مقامها ولا يمكن للمعنى أن يتم وينسجم وكأنه نسيج واحد إلا بها.

فالتناسق والتآخي والانسجام أكثر ما يشد ويجذب في أسلوب القرآن، وبه فاق كل أسلوب؛ لأن الكلمة عند الفصحاء في شعرهم ونثرهم وخطبهم قد تكون حسنة متألقة في موضع؛ ولا تكون كذلك في غيره، بل تبدو في غيره شوهاء مشينة في موطنها.

وقد تجد لفظة واحدة مشتركة قد أتت في آية من القرآن؛ ونفس الكلمة أتت في بيت من الشعر؛ لكنها أتت في القرآن جزلة متينة على درجة عالية من الحسن والبهاء والجمال في موضع، بحيث لا يمكن تقديم أو تأخير موضعها، وفي البيت الشعري أتت في موضع ليس لها من الجزالة والمتانة والحسن والبهاء بل أتت ركيكة هزيلة في موضعها وموقعها من الكلام، حتى يمكنك أن تقول لو كانت هذه الكلمة في غير هذا الموضع لكان أحسن وأليق.

ذلك لأن الكلمة في القرآن وردة بصيغة مقصودة و مُحكمة ومحبوكة في موضعها وتكوين حروفها؛ لتؤدي معنها في موضعا، ولا يتم المعنى ولا يكتمل إلا بها وفي موضعها، وهذه خصيصة من خصائص بلاغة القرآن وحسن نسقه وجمال نظمه.

والقرآن كله على هذا النمط من التماسك النصي بين المفردات والجمل، وهذا النمط يبرز مدى التماسك والانسجام والتناسب الذي يحدثه الوصل، بين مفردات اللغة وجملها، **ونسوق ثلاثة أمثلة على ذلك التناسب والانسجام على النحو التالي:**

المثال الأول: العطف بين الأسماء

ونسوق لذلك المثال ثلاث مواضع من القرآن الكريم

الموضع الأول: قوله تعالى:{قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين}(الأنعام: ١٦٢).

و الموضع الثاني: قوله تعالى{ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله} (البقرة: ٢٨٥).

شبكة الألوكة www.alukah.net

والموضع الثالث: قوله تعالى:{ زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث} (آل عمران: ١٤).

يلاحظ مدى التناسب والانسجام، الذي أحدثه الوصل بين الأسماء، في الآيات السابقة. حيث جاءت منسجمة، متناسبة، مرتبة حسب درجتها وأهميتها. سواء في الآية الأولى بين: الصلاة والنسك، والمحيا والممات. أو في الآية الثانية بين: الله والملائكة والكتب والرسل. أو في الآية الثالثة بين: حب النساء، والبنين، والمال، والخيل، والأنعام، والحرث. **وهذا عطف بين الأسماء.** (٣٤٤)

المثال الثاني: العطف بين الصفات

والعطف بين الصفات له أحوال: نذكر منها ما يلي:

الحالة الأولى:– إما أن يكون بشكل عام –

فإنه في هذه الحالة لا يعطف بينها إلا إذا كان بينها تضاد ومثال ذلك: قوله تعالى:

{هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}(الحديد: ٣) فصفات: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، عطفت على بعضها؛ لأنها صفات متضادة.

والجمع بين الأسماء أو الصفات، والترتيب بينها، وتقديم بعضها على بعض لا يكون كذلك إلا ومن ورائه حكمة أو علة ما، ولا يكون ذلك إلا وفق منهج دقيق، **والحالات التالية مما يدلل على ذلك.**

والحالة الثانية: قد تتقدم فيها الكلمة لشرفها وعلو منزلتها

كما في قوله تعالى حين قدم سبحانه اسمه الكريم في الأمر بالطاعة في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم}(النساء: ٥٩)

وكما في ترتيبه لمن أنعم عليهم، في قوله: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أوليك رفيقا}(النساء: ٦٩)

والحالة الثالثة: قد تتقدم فيها الكلمة لتقدمها في الزمن أو العمل،

كما في قوله تعالى:{وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان}(آل عمران: ٣– ٤) فالتوراة قبل الانجيل، والإنجيل قبل الفرقان في الترتيب الزمني.

والحالة الرابعة: قد تتقدم فيها الكلمة بحكم رتبتها العددية، أو للارتقاء بالعدد من القليل إلى الكثير

كما في قوله تعالى:{ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع }(النساء: ٣). (٣٤٥)

٣٤٤- يُنظر: من بلاغة النظم العربي ٢/ ١٥٠– ١٥١

٣٤٥- يُنظر: السابق ٢ / ١٥٢ – ١٥٣ .

شبكة الألوكة www.alukah.net

المثال الثالث: العطف بين الجُمل، ونسوق لهذا المثل حالتين:

الحالة الأولى: العطف بين الجُمل بـ "بالواو"

ومن جمال التناسب والانسجام، كذلك، **العطف بين الجُمل** بـ"بالواو" مثل قوله تعالى: { إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت} (الانفطار/١ – ٤).

فهذه الأمور كلها عطف بعضها على بعض بجامع يجمعها، وهو كونها من أمارات القيامة.

ومن ذلك قوله تعالى:{إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيرت، وإذا العشار عطلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجرت، وإذا النفوس زوجت، وإذا المؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت، وإذا الصحف نشرت، وإذا السماء كشطت، وإذا الجحيم سعّرت، وإذا الجنة أزلفت} (التكوير: ١ – ١٣).

ومن ذلك قوله:{ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت} (الغاشية: ١٧ – ٢٠).

وذلك كله ربط بين الجُمل عن طريق العطف بالواو، وهو ربط حقق تناسبًا وملاءمة وانسجامًا بين جُمل الآيات السابقة. فجاءت متماسكة متراصة، كحبات العقد المتلألئة، وقد زاد من جَمَالِ تألقها وانسجامها، التناسب الأخّاذ بين فواصل آيها. وما أكثر هذه الصور في نصوص القرآن الكريم.

الحالة الثانية: العطف بين الجمل بغير "بالواو"

فجمال التناسب والانسجام بين الجمل كما أنه يكون بـ "بالواو"، فإنه أيضًا يكون بغير الواو كذلك

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:{ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين} (المؤمنون/ ١٢ – ١٤).

فقد استخدم في عطف الآيات السابقة على بعضها أداتا العطف (ثم) و(الفاء) وقد وقف صاحب (الطراز لأسرار البلاغة) عند ذلك الاستخدام، وحاول كشف بعض الأسرار المعنوية للعطف بهاتين الأداتين من خلال تلك الآيات، حيث يقول:

((فتأمل هذه الآية، كيف بدأ بالخلق الأول، وهو خلق آدم من طين، ولما عطف عليه الخلق الثاني الذي هو خلق التناسل، عطفه بـ" ثم"، لما بينهما من التراخي، وحيث صار إلى الأطوار التي يتلو بعضها بعضًا على جهة المبالغة، عطف العلقة على النطفة بثم، لما بينها من التراخي، ثم عطف المضغة على العلقة بالفاء، لما لم يكن هناك تراخ، ثم عطف خلق العظام من عقيب كونه مضغة بالفاء، من غير مهلة ولا تلبُّث، ثم عطف كسونا العظام لحمًا بالفاء من غير تراخ، ثم تسويته إنسانًا بعد خلق العظام بثم، إشارة إلى التراخي، ثم قوله فتبارك الله أحسن الخالقين، عطفه بالفاء دلالة على أن كل عاقل خرق قرطاس سمعه نظم هذه الآيات، وتأليفها، فإنه يَقضَى العجبَ على

شبكة الألوكة www.alukah.net

الفور من غير تلبُّثٍ، وينطق باللفظ الدال على الزيادة في الحكمة والدخول في الاتقان))[٣٤٦]. فتبارك الله أحسن الخالقين، على حسن خلقه، وحسن تأليفه، وبديع نظامه. [٣٤٧]

المطلب السادس: صياغة أسلوبه موافقًا لحال جميع المخاطبين

إن ألفاظ القرآن وعباراته مصوغة بشكل غريب، وعلى هيئة عجيبة، بحيث تصلح أن تكون خطابًا لمختلف المستويات من الناس، وبحيث يأخذ كل قارئ منها ما يقدر على فهمه واستيعابه، ويراها مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجته [٣٤٨].

وأخطر الإعجاز وأظهره هو في قدرة المولى وتفرده على مخاطبة جمع من الناس بكلام واحد وغاية واحدة فيفهم كل سامع أو قارئ بالطريقة التي يستسيغها أو التي تهزه، ليشعر كل منهم أنه هو المقصود، وأن الذي يخاطبه، علم ما في نفسه فكلمه على قدر فهمه وعلمه وعمله إحسانًا أو إساءة.

فهل لهذا التخاطب قائل غير الله؟

يقول الله تعالى في سورة يونس: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) {٣٧} (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) {٣٨}. [٣٤٩]

ومن هنا يتبين أن من أبرز خصائص أسلوبه أنه لا يعلو عن أفهام العلماء ولا يقصر عن مطالب عموم الخلق، فالقرآن نزل بأسلوب ليؤثر على العامة والخاصة، فإذا قرأه الفصيح البليغ وجد فيه بغيته من حسن بلاغته وجمال نسقه وجمال نظمه، فيتأثر ببديع بيانه وحسن رونق أسلوبه، وكذلك إذا قرأه العالم المتبحر في العلوم بضروبها وجد فيه بغية من شتى العلوم والمعارف، وكذلك إذا قرأه العامي يشعر بهيبته وجلالة قدره، وحلاوته خطابه، فتسكن وتطمئن له نفسه، ويخشع لخطابه فؤاده، وتزرف له عيناه، ويرق له قلبه، فتنقاد له نفسه طائعة راغبة، وأسلوب القرآن يؤثر على كل أحد، حتى إنك ترى الأعجمي الذي لا يحسن العربية ولا يعرف أفانين اللغة إذا سمع القرآن تأثرت جوارحه وسكنت نفسه وانسكبت عبرته، وهذا لا يكون إلا في القرآن العظيم الذي أسر أسلوبه القلوب وجذب حسن رونقه وبديه نظمه وإعجازه الأرواح، بل وصل هذا الخشوع إلى الجمادات والجبل الصم الشامخات

---

٣٤٦ – الطراز للعلوي: ٢/ ٤٤ – ٤٥ . الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: ٧٤٥هـ)،الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ، عدد الأجزاء :٣

٣٤٧– يُنظر: التماسك النصي في القرآن الكريم، د. الشريف ميهوبي، عن: أرشيف المدونة الإلكترونية، بتاريخ: ٢٠١٢/١٠/١٣م

٣٤٨– الواضح في علوم القرآن: (ص: ١٦٥). مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب / دار العلوم الانسانية – دمشق الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م عدد : ١. بتصرف.

٣٤٩– الإعجاز البياني في القرآن الكريم، محمد فرشوخ: (ص: ٧).

شبكة الألوكة www.alukah.net

كما وصف ذلك رب الأرض والسموات فقال في محكم الآيات: (لَوْ أَنزلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) (الحشر من آية: ٢١).

المطلب السابع: الإعجاز البياني المتعلِّق بأسلوب القرآن في التّعقيب الذي يرد في خواتيم الآيات

يمثّل التّعقيب الذي يرد في خواتيم آي الكتاب الحكيم جزءًا هامًا وبارزًا يُقصد منه إبراز الإعجاز البياني المتعلِّق بأسلوب القرآن في هذا الجانب، وهذا مما يجلي معاني آي القرآن ويزيدها وضوحًا وجلاءً ويبين مقاصدها ومراميها، كما أن فيه نوع إبراز لجوانب من أغراض الخطاب القرآني فيما يتعلق بجانب حسن الثّناء على الله تبارك تعالى، وبيان ما يتعلق بأوامره ونواهيه، وما يتعلق بما يحبه الله ويرضاه، وما يتعلق بما يسخطه ويغضبه، وما يتعلق بوعده ووعيده، وما يتعلق بثوابه وعقابه، وهذا غالبًا هو ما يختم به التّعقيب الذي يرد في خواتيم الآيات.

ومن أهم ما يُراد بالتّعقيبات التي ترد في خواتيم آي القرآن الكريم كذلك تنزيل الآيات الكريمة مع ما يناسبها، مما يظهر قوة التناسق والترابط في السّياق القرآني الوارد في الآيات، وأسلوب التّعقيبات هذا، أسلوب جامع بين قوة دّلالة تلك التعقيبات وبين أوجه مناسبتها في ختم الآية بها، وبين حسن البيان وروعته وبلاغته، فضلاً عن أثره في قارئ القرآن ومستمعه على حد سواء.

تنبيه من الأهمية بمكان:

ومما يجدر التنبيه إليه هنا، أن التعقيبات القرآنية تتمايز وتتغاير عن الفاصلة القرآنية، إذ أن التعقيبات أعم وأشمل من الفاصلة، فالفاصلة "لفظة مفردة" وأما التعقيبات فمركبة وليست "لفظة مفردة"، وهذا التركيب يجعلها أعم وأشمل من الفاصلة، لأنها من المركب المتمّم للسياق الكلي الوارد في نهايات الآيات.

وأسلوب التعقيبات لمكانته وقدره في إبراز أوجه الإعجاز البياني في القرآن يحتاج لزيادة بحوث ودراسات وأطروحات علمية مؤصلة تبين وتبرز هذا الجانب العظيم والهام من أوجه الإعجاز البياني في آي الكتاب الحكيم.

ومما اشتهر ذكره في التعقيبات القرآنية ما روي عن الأصمعي، حيث يقول:

كنت أقرأ: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالًا من الله "والله غفور رحيم")، وبجنبي أعرابي، فقال: كلام مَن هذا؟ قلت: كلامُ الله، قال: ليس هذا كلام الله. فانتبهتُ، فقرأتُ: { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (المائدة:٣٨)، فقال: أصبتَ، هذا كلام الله. فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلتُ: من أين علمت؟ قال: يا هذا! عَزَّ، فَحَكَم، فقطع، ولو غفر ورحم، لما قطع.

وذكر ابن عطية– رحمه الله– في "تفسيره":

أن كعب الأحبار لما أسلم كان يتعلم القرآن، فأقرأه الذي كان يعلمه: (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم)، فقال كعب: إني لأستنكر أن يكون هكذا، ومر بهما رجل، فقال كعب: كيف تقرأ

شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه الآية؟ فقرأ الرجل: {فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم} (البقرة:٢٠٩)، فقال كعب: هكذا ينبغي. ([٣٥٠])

والذي لا شك فيه، أن ختام الآية في القرآن دائم التناسق مع مبدئها، وظاهر التناغم مع مضمونها. ونحن نذكر أمثلة على ذلك توضح المراد، وتكشف هذا المِعْلَم القرآني.

المثال الأول:

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد} (البقرة:٢٦٧)، لما كان المقام مقامًا لطلب الإنفاق من الكسب الطيب، وكان سبحانه غنيًا عن الطيب والخبيث من المال، فلا يقبل سبحانه الرديء من مال عبده، يُقدمه عبده لنفسه، فالله أحق من يُختَار له خِيارُ الأشياء وأنفَسُها؛ لأن قابل الرديء إما أن يقبله لحاجته إليه، والله غير محتاج لأحد، وإما أن نفسه غير كريمة ولا شريفة، والله هو الكريم الحميد، المستحق للحمد كله بداية ونهاية، فلا يقبل غير الطيب، لما كان ذلك كذلك، ناسب خَتْمُ الآية بقوله سبحانه: {غني حميد}. فالله غني عن الخبيث من مال عباده، فيخرجونه كصدقات! بينما هو سبحانه يحمد لهم الكسب الطيب، ويجزيهم عليه جزاء الراضي الشاكر. وهو الله الرازق الوهاب، يجزيهم عليه جزاء الحمد، وهو الذي أعطاهم إياه من قبل.

المثال الثاني:

قوله سبحانه: {قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم} (البقرة:٢٨٦)، لما كان المقام مقام تهديد لأولئك المتصدقين، الذين يُتْبعون ما أنفقوا منًّا وأذى، وهو أيضًا مقام إشعار لهم، بأن الكلام الطيب، والاعتذار الحسن مع العفو عمن أساء، خير من صدقاتهم تلك، بيَّن الله سبحانه أنه غني عن الصدقات، لن يناله منها شيء، وإنما النفع يعود عليهم، والله مع غناه الكامل حليم على المانِّ بالصدقات، حيث لم يوقع عليه العقوبة التي يستحقها لمنِّه، ولكنه تعالى حليم يصفح مع عطائه الواسع عمن يمنُّ بمال الله الذي استودعه إياه. فالله سبحانه غني عن الصدقة المؤذية. حليم يعطي عباده الرزق فلا يشكرونه {وقليل من عبادي الشكور} (سبأ:١٣)، فلا يعجلهم بالعقاب، ولا يبادرهم بالإيذاء؛ وهو معطيهم كل شيء، معطيهم وجودهم ذاته قبل أن يعطيهم أي شيء – فليتعلم عباده من حلمه سبحانه، فلا يعجلوا بالأذى والغضب على من يعطونهم جزءًا مما أعطاه الله لهم. حين لا يروقهم منهم أمر، أو لا ينالهم منهم شكر.

المثال الثالث:

قوله عز وجل: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار} (إبراهيم:٣٤)، وقوله سبحانه: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم} (النحل:١٨)، فقد خولف بين ختام آية سورة إبراهيم وختام آية سورة النحل؛ لأن آية إبراهيم جاءت في سياق وعيد وتهديدٍ عقب قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله

٣٥٠- ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: (٢٨٣/١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

كفرًا} (إبراهيم:٢٨)، فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله. أما آية سورة النحل فقد جاءت خطابًا للفريقين، كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعًا بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم: {لظلوم كفار} بوصفين في آية سورة النحل: {لغفور رحيم}، إشارة إلى أن تلك النعم كانت سببًا لظلم الإنسان وكفره، وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك معلق بعمل الإنسان.

المثال الرابع:

ما أورده السيوطي في "إتقانه" في قوله تعالى: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم} (البقرة:٢٩)، وفي قوله سبحانه: {قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير} (آل عمران:٢٩)، **قال**: فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بـ (القدرة)، وفي آية آل عمران الختم بـ (العلم). والجواب أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم وخلق السموات خلقًا مستويًا محكمًا من غير تفاوت، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالمًا بما فعله كليًا وجزئيًا مجملًا ومفصلًا، ناسب ختمها بصفة (العلم)، وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار، وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ناسب ختمها بصفة (القدرة).

المثال الخامس:

ما ذكره الألوسي عند تفسيره لقوله سبحانه: {ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون} (النحل:١١)، قال: حيث كان الاستدلال بما ذكر لاشتماله على أمر خفي محتاج إلى التفكر والتدبر لمن له نظر سديد ختم الآية بالتفكر. ([٣٥١])

والمتحصل:

أن نهايات الآيات القرآنية متناسب مع سياقها، ومنسجم مع مضمونها، لا يشذ عن ذلك شيء من القرآن؛ ولذلك أنت تقرأ قوله سبحانه: {فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} (آل عمران:١٣٧)، وتقرأ قوله تعالى: {فانظر كيف كان عاقبة المجرمين} (الأعراف:٨٤)، وتقرأ قوله سبحانه: {فانظر كيف كان عاقبة المفسدين} (الأعراف:١٠٣)، وتقرأ قوله تعالى: {فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} (يونس:٣٩)، وتقرأ قوله عز وجل: {فانظر كيف كان عاقبة المنذرين} (يونس:٧٣)، كل ذلك جاء بحسب سياق الآية ومضمونها، ولا معنى لهذا الاختلاف إلا ما تقدم بيانه. ([٣٥٢])

٣٥١- ينظر: روح المعاني، للألوسي: (١٠٨/١٤).

٣٥٢- ينظر: بغية السائل من أوابد المسائل: (٧٩٢). بتصرف يسير.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الثامن: تميز أسلوبه بالإقناع والإمتاع

إن الأسلوب القرآني عامة أسلوب يتميز بالتشويق وحسن النظم، أضف إلى ذلك قوة الإقناع وشدة التأثير. وهذا جلي في الخطاب الدعوي (٣٥٣)، وما يجعل الوقوف هنا عند هذه الخصيصة، هو الجمع العجيب بين قوة الإقناع في أسلوب الخطاب المتوجه للعقول بشكل خاص، وبين الجمال الأخّاذ؛ الذي ينبعث من الوجدان؛ ليشد العاطفة.

ومُحال أن يجمع أسلوب بين الضربين مهما بلغت بلاغته وارتفعت حكمته، سل علماء النفس هل رأيتم أحدا تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على السواء؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فهل تروها تعمل في النفس دفعة واحدة؟ يجيبوك بلسان واحد: كلا بل لا تعمل إلا متناوبة في الحال وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها (٣٥٤).

والسر في ذلك راجع إلى سعة علم الله تعالى، فالله الحكيم – جل شأنه – أحاط بكل شيء علمًا، لا يعتريه نقص، أما حكيم البشر؛ الذي يتوجه لمخاطبة العقل مستجليًا الحقائق، منهمكًا في البراهين، لا يبالي لجفاء الأسلوب.

أما الشاعر فعلى النقيض ناقص هو الآخر، بينما هو يستجلب النفوس ويدغدغ العواطف يذهب عن قوة البرهان، ويتيه عن إشباع العقل، فمن لك إذا بهذا الكلام الواحد؛ الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرتضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين، مع المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين (٣٥٥)، ذلك الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن أبدًا.

وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا في آن واحد، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان. وأن يخرج من بينهما شرابًا خالصا سائغا للشاربين (٣٥٦).

كل ذلك مع المحافظة على جمال اللفظ وروعة التعبير، فإن التعبير القرآني يُختار له أجمل الألفاظ لأبهى تعبير، ويظل جاريًا على مستوى رفيع من هذا الجمال اللفظي، ورقة الصياغة، وروعة التعبير، مهما تنوعت أبحاثه، واختلفت موضوعاته، وهذا مما يخرج عن طوق البشر. (٣٥٧)

٣٥٣- المقصود بالحوار الدعوي: أنباء الرسل، و ما كان لهم سلام الله عليهم من شأن في الحوار، يُنظر: ثقافة الحوار في الإسلام، لمحمد الكتاني، أنماط الحوار في القرآن و موضوعاته، الحوار الدعوي، ص: ١٦٢.

٣٥٤-النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص: ١١٤.

٣٥٥- المرجع السابق نفس الصفحة.

٣٥٦- المرجع السابق نفسه، ص: ١١٦ – بتصرف. و يُنظر: سمات الخطاب القرآني: دراسة في الأسلوب، د. عبدالله علمي، عن موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٩/٢/١٥هـ.

٣٥٧ – الواضح في علوم القرآن: (ص: ١٦٥). الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب مستو.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب التاسع: الإعجاز البياني المتعلِّق بأسلوب ضرب الأمثال في القرآن

من الأساليب المتبعة في القرآن أسلوب ضرب الأمثال، ولقد اعتمد هذا الأسلوب في القرآن وجُعِلَ قاعدة وركيزة أساسية في التعبير عن المعاني وتقريبها للأذهان.

والعربُ تضرِبُ الأمثالَ لإيصال فكرةِ الموضوع الذي من أجله يُضرب المثل للناس، بأقربِ طريق، وأقلِّ وقت، وأوضح صورة، وأبلغ مقال، ومن ثمَّ ترسيخ الفحوى، وفهم العبرة منه، واستيعابها واستقرارها في الذهن، وبقاؤها راسخةً في الذاكرة مهما طال الزمن، أو تغيَّر الحال.

ومن الأهمية بمكان بيان مفهوم المثل في اللغة والاصطلاح:

أ- مفهوم المثل في اللغة

وعن مفهوم المثل في اللغة يقول الماوَردي-رحمه الله- النكت والعيون:

المِثَلُ بالتحريكِ والتسكين، والمَثَلُ بالتحريك مستعملٌ في الأمثال المضروبة، والمِثْلُ بالتسكين مستعملٌ في الشيء المماثل لغيره. (٣٥٨)

وقال أبو حيان الأندلسي-رحمه الله-البحر المحيط،:

المِثَل في أصل كلام العرب بمعنى المِثل والمثيل، كشَبَه وشِبْه وشَبِيه، وهو النظير، ويجمع المِثَل والمِثْل على أمثال، قال اليزيدي: الأمثال: الأشباه، وأصل المثل الوصف؛ هذا مثل كذا؛ أي: وصفُه، مساوٍ لوصف الآخر بوجه من الوجوه،

والمثل: القول السائر الذي فيه غرابةٌ من بعض الوجوه،

وقيل: المِثلُ ذكرُ وصفٍ ظاهر محسوس وغير محسوس، يُستدلُّ به على وصفٍ مشابه له من بعض الوجوه، فيه نوع من الخفاء؛ ليصير في الذهن مساويًا للأول في الظهور من وجه دون وجه، والمقصود من ذكر المثل أنه يؤثِّر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه؛ لأن الغرض من ضرب المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل. (٣٥٩)

ب- مفهوم الأمثال في الاصطلاح

والأمثالُ أقوال سائرة مسلمة سيقت للعظةِ والاعتبار، مع الإيجازِ والإحكام والدقة والتركيز، وقضايا الأمثال مما تتظاهر العقول البشرية على التسليم به، فإذا ما عرض للناسِ في حياتهم أمرٌ من الأمورِ التي تدخل في مفهومِ أحد الأمثال تمثَّلوا به، فتأنس النفوس لذلك. (٣٦٠)

٣٥٨-النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي، ج١، ص٧٩.

٣٥٩- تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج١، ص ٢٠٧.

٣٦٠- أحمد السايح؛ "الأمثال العربية"، م الفيصل، ع ١٨ ص ٨٠، السعودية.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الأمثال جاءت في القرآن للتفكر والاعتبار والاتعاظ والتذكر الذي يثمر العلم والفقه:

ومما يؤكد هذا المعنى ويجليه قوله تعالى :﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١)، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٥)، ولاشك في أن ضرب الأمثال من أجل ثماره العلم والفقه كما قال تعالى :﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣). وبمجموع تلك الآيات يتبين أن ضرب الأمثال يدعوا للتفكر والتذكر في آيات القرآن وذلك مما يورث العلم والفقه في الدين.

والأمثال أقوى أساليبِ البيان، وأقدرها على التعبيرِ والتصوير؛ لأنها:

أولًا: تعتمدُ على التشبيهِ الذي هو من أشرف كلام العرب، وبه تكون الفطنة والبراعة عندهم، والتشبيه كذلك يزيدُ المعنى وضوحًا ويهبه تأكيدًا([٣٦١]).

وهو كما يقول" الجرجاني"

"يعملُ عملَ السحر في تأليفِ المتباينين، حتى يختصر لك بُعد ما بين المشرقِ والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق، وهو يُريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهًا في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، يُنطقُ لك الأخرس، ويعطيك البيانَ من الأعجم، ويريك الحياةَ في الجماد، ويريك التئامَ الأضداد، فيأتيك بالحياةِ والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين"([٣٦٢]).

ثانيًا: ليست تشبيهًا مفردًا، وإنما هي من قبيلِ التمثيل؛ فإنَّ مضاربَها تكون عادة من المعاني المعقولة التي يصعب تصورُها، فيلجأ المتكلمون إلى استحضارِ أمور حسية تكون مأنوسة للمخاطبين، معروفة لهم، وهي موارد الأمثال، فينجلي الخفاء عن المعاني، وتبرز وجوهُها سافرة كضوءِ النَّهار([٣٦٣]).

ولذلك نجد" عبد القاهر الجرجاني "يقول:

"إنَّ أُنْس النفوس موقوفٌ على أن تخرجَها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريحٍ بعد مكنيّ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم؛ نحو أن تنقلَها عن العقلِ إلى الإحساسِ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرارِ والطبع؛ لأنَّ العلمَ المستفاد من طرق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع، وعلى حدِّ الضرورة، يفضلُ المستفادَ من جهةِ النظر والفكر في القوةِ والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام"([٣٦٤]).

٣٦١- راجع الدكتور قطامش؛ "التمثل بالحيوان"، م البحث العلمي، ع ٤ ص ١٠٩، مكة المكرمة.

٣٦٢ – عبد القاهر الجرجاني؛ "أسرار البلاغة"، ص ١٠٤، ط القاهرة ١٩٣٩م.

٣٦٣ – الدكتور قطامش؛ "التمثل بالحيوان"، م البحث العلمي، ع ٤ – ص ١٠٩، مكة المكرمة.

٣٦٤-الجرجاني؛ "أسرار البلاغة"، ص ١٠٢، ط القاهرة.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن ثم كان الغرضُ من التمثيل: تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، وإبراز المدركات المعقولة والمعاني الخفية في صورة محسة أو مألوفة؛ لبيانِ صفتها وحالها، أو تقريرِ معانيها، وتمكينها في النفس أو لبيان إمكان وقوعها وتحققها وغير ذلك من الأغراض([٣٦٥]).

ويبين" ابنَ مسكويه "وظيفةَ التمثيل وضرب الأمثال فيقول:

"إن الأمثال إنما تضربُ فيما لا تدركه الحواس مما تدركه؛ والسبب في ذلك أنسنا بالحواس، وألفنا لها منذ أولِ كونها، ولأنَّها مبادئ علومنا، ومنها نرتقي إلى غيرِها، فإذا أُخبِرَ الإنسانُ بما لا يدركه، أو حُدِّثَ بما لم يشاهده، وكان غريبًا عنه، طلب له أمثالاً من الحس، فإذا أُعطي ذلك أنس به، وسكن إليه لألفِه له، فأمَّا المعقولات فلما كانت صورُها ألطفَ من أن تقعَ تحت الحس، وأبعد من أن تمثلَ بمثال الحس الأعلى جهة التقريب، صارت أحرى أن تكون غريبة غير مألوفة، والنفس تسكنُ إلى مثلٍ وإن لم يكن مثلاً، لتأنسَ به من وحشةِ الغربة، فإذا ألفتها وقويت على تأملها بعينِ عقلها من غير مثال سهل حينئذٍ عليها تأمل أمثالها"([٣٦٦]).

وأبو هلال العسكري المعتزلي "يذكر":

"أنَّه ما رأى حاجة الشريفِ إلى شيء من أدبِ اللسان، بعد سلامتِه من اللحنِ – كحاجتِه إلى الشاهد والمثل والشذرة والكلمة السائرة، فإن ذلك يزيدُ المتطورَ تفخيمًا، ويكسبه قبولاً، ويجعل له قدرًا في النفس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوبَ إلى وعيه، ويبعثها على حفظِه، ويأخذها باستعدادِه لأوقاتِ المذاكرة، والاستظهار به، وإنَّما هو في الكلامِ كالتفصيل في العقد، والتنوير في الروض، والتسهيم في البرد"([٣٦٧]).

وإذا كان ما ذكرناه عن" عبد القاهر الجرجاني "يمثِّلُ رؤية رجل مبرز في البلاغة، وما ذكرناه عن" ابن مسكويه " يمثل رؤية رجل مبرز في علم الأخلاق والتهذيب، وما جاء عن" أبي هلال العسكري "هو رؤية رجل مبرز في اللغة، فإننا نجدُ أنَّ علمًا آخر من أعلام البلاغة يقول:

"ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفي في إبرازِ خبيئات المعاني، ورفعِ الأستار عن الحقائق، حتى يريك المتخيَّل في صورة المحقَّق، والمتوهم في معرضِ المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمرٍ ما أكثر اللهُ في كتابِه المبين وفي سائرِ كتبه أمثالَه، وفشتْ في كلامِ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وكلامِ الأنبياء والحكماء"([٣٦٨]).

٣٦٥– راجع السايح؛ الأمثال العربية، م الفيصل، ع ١٨، ص ٨٠، السعودية.

٣٦٦– ابن مسكويه وأبو حيان؛ الهوامل والشوامل، ص ٢٤٠، تحقيق أحمد أمين وسيد صقر، ط ١٩٥١م.

٣٦٧– أبو هلال العسكري؛ جمهرة الأمثال "المقدمة"، تحقيق محمد أبو الفضل وقطامش، ط ١٩٦٤م.

٣٦٨– الزمخشري؛ "الكشاف"، جـ ١، ص ٥٤، ط القاهرة ١٩٥٣م.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن دلائل جمال بيان المثل كثرة استعمالاته في القرآن:

فيأتي المثل في القرآن بمعنى الحديث:

فالمثَل – بفتح الميم والثاء: الحديث، وقد مثَّل به، وامتثله، وتمثله، وتمثل به، وقد يعبر بالمثلِ والشبه عن وصفِ الشيء؛ نحو قوله – تعالى :- ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (الرعد: ٣٥). ومثل الجنة: أي صفتها.

ولذا قد فهِم الزركشي من ظاهر كلام اللُّغويين أن المثل هو الصفة، فقوله تعالى :﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾]الرعد: ٣٥[؛ أي: وصف الجنة، وقوله تعالى في الصحابة :﴿ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ﴾]الفتح: ٢٩[؛ أي: وصفهم فيها(٣٦٩).

ويأتي بمعنى المشابه لغيره في معنى من المعاني:

وقد يستعملُ" المثل "عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني؛ أي: معنى كان، وهو أعم الألفاظِ الموضوعة للمشابهة؛ وذلك أنَّ" النِّدَّ "يقال فيما يشاركه في الجوهريةِ فقط، و"المساوي" يُقال فيما يشاركه في الكمية فقط، و"المثل "عام في جميع ذلك؛ ولهذا لما أراد الله نفيَ التشبيه من كلِّ وجه خصه بالذِّكر؛ فقال – تعالى :- ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١).

ويرى العلماء:

أنَّه لا بد أن" تجتمعَ في المثلِ أربعة لا تجتمعُ في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكتابة، فهو نهاية البلاغة. (٣٧٠)

وكلها مجتمع في أمثال القرآن، وهي تأتي في القرآن للتذكير والوعظ، وللحث والزجر، وللاعتبار والتذكير، ولتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس لتثبت في الأذهان ولغير ذلك.

وفي نحو ذلك يقول برهان الدين البقاعي في "نظم الدرر":

في محض كلامه عن قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف:٥٤)

لَمَّا كان في هذا من البيان ما لا يخفى على لسان ولم يرجعوا، أشار إلى أن لهم أمثال هذا الإعراض عن أمثال هذا البيان، فقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾؛ أي: طرقنا تطريقًا عظيمًا بأنواع طرق البيان؛ من العِبَر والحكم، والأمثال والأحكام، والحجج والأعلام، في قوالب الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك، ﴿ فِي

٣٦٩- وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبدالسلام أحمد الراغب، ص١٥٦-١٥٧. مع التحفظ على مسمى الكتاب، الباحث.

٣٧٠- يُنظر: همام سعيد، حضارة الإسلام ع ٧، ٨ ص ٧٨ س ٩ دمشق. يُنظر: الأمثال في القرآن، أحمد عبدالرحيم، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٤/١٢/١٦ هجري

شبكة الألوكة www.alukah.net

هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ من هذه الطرق ما لا غبار عليه، ونوعناه من جهة إلى جهة، ومن مثال إلى مثال، والتصريف لغة: صرف الشيء من جهة إلى أخرى، ثم صار كناية عن التبيين. (٣٧١)

ولا شكَّ عند كثير من الباحثين أنَّ الكلام: "إذا جعل مثلاً كان أوضحَ للمنطقِ وآنق للسمع، وأوسع لشعوبِ الحديث". (٣٧٢)

ولأن الخطاب القرآني يُخاطب الناسَ بألسنتهم، فقد كانت الأمثال جزءًا مهمًّا من بين آيات القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى عربيًّا؛ ليعقله العرب قبل غيرهم، وقد ورد في السنة المطهرة ما يشير إلى ضرب الأمثال في القرآن وهو كثير من قول النبي وفعله، ومن ذلك قوله- صلى الله عليه وسلم-: ((إنَّ هذا القرآن ينزلُ من سبعةِ أبوابٍ على سبعة أحرفٍ؛ حلال وحرام، وأمر وزجر، وضرب أمثال، ومحكم ومتشابه، فأحِلَّ حلالَ الله، وحَرِّمْ حرامَه، وافعَلْ ما أمرَ اللهُ، وانتهِ عمَّا نهى اللهُ عنه، واعتَبِرْ بأمثالِه، واعمَلْ بمُحكَمِه، وآمِنْ بمُتشابهه، وقُلْ :﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ٧) (٣٧٣)

واستعمال الرسل لهذا الأسلوب مما يؤكد أهميته ومكانته، وفي نحو ذلك يقول

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

الرسلُ ضربَتْ للناس الأمثالَ العقلية التي يعرفون بها التماثل والاختلاف، فإنَّ الرسل دلَّتِ الناسَ وأرشدتهم إلى ما به يعرفون العدل، ويعرفون الأقيسة العقلية الصحيحة التي يستدل بها على المطالب الدينية، فليست العلوم النبوية مقصورةً على مجرد الخبر، كما يظُن ذلك مَن يظنه من أهل الكلام، ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيمًا للعلوم النبوية، بل الرسل صلوات الله عليهم بيَّنتِ العلومَ العقلية التي بها يتم دينُ الناس علمًا وعَملًا، وضُرِبت الأمثال، فكملت الفطرة بما نبَّهتها عليه، وأرشدتها مما كانت الفطرة معرِضة عنه، أو كانت الفطرة قد فسدت بما حصل لها من الآراء والأهواء الفاسدة، فأزالت ذلك الفساد، وبيَّنت ما كانت الفطرة معرضة عنه حتى صار عند الفطرة معرفة الميزان التي أنزلها الله وبينها رسله، والقرآنُ والحديث مملوء من هذا يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة، ويبين طرق التسوية بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين. (٣٧٤)

٣٧١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ج٤، ص٣٨٣ - ٣٨٤.

٣٧٢- عبد الرحمن حبنكة الميداني "مجمع الأمثال" جـ ١ ص ٥، ٦ الطبعة الثانية.

٣٧٣- رواه ابن الجوزي في فنون الأفنان ص(٢٠٢)، ورواه ابن حبان في صحيحه، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، (٣ /٢٠، ٢٢)، والحاكم في المستدرك (١ /٥٥٣) وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الطحاوي في "مشكل الآثار" (٤ / ١٨٤ - ١٨٥)، وحسنه الألباني في مختصر السلسلة الصحيحة ٥٨٧. ينظر: دواعي ضرب الأمثال في القرآن عبدالستار المرسومي، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٨/٥/١٦هـ

٣٧٤ - الرد على المنطقيين، ابن تيمية، ص ٣٨٢.، ينظر: دواعي ضرب الأمثال في القرآن عبدالستار المرسومي، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٨/٥/١٦هـ.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد جاءتِ الأمثالُ الصريحة في القرآن الكريم مِن أجل الهداية لمن لم يهتدِ من الناس، ولزيادة الإيمان لمن كان الله تعالى قد هداهُ؛ قال تعالى :﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٦).

إلا أنَّ أمثال القرآن الكريم لم تقتصر على ما كان يفهمه ويتداوله العربُ من ضرب الأمثال، بل كان ما عند العرب جزءًا من أمثال القرآن الكريم، وليس كل شيء،

وقال أبو هلال العسكري المعتزلي في جَمهرة الأمثال:

"..... وأُثني عليه (المثل) بسالف نعمته، وفارط منَّته، في مثل ضربه، ومثال نصبه؛ لينتهي إليه العارف فيرشد، ويهتدي بهديه فيتسدد – ثناءَ المخلصين، ودلَّ على فضيلة ذلك في محكم بيانه، ومنزل فرقانه، فقال جل ثناؤه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ (الحج: ٧٣)، وقال :﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ (النحل: ١١٢)، وقال: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٥)، وقال: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ (النحل: ٧٥)، وقال :﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ (النحل: ٧٦)، إلى غير ذلك مما أشار به إلى منافع الأمثال في متصرفاتها، وحسن مواقعها في جهاتها(٣٧٥).

ومن بديع البيان في الأمثال ورودها في القُرآن على ضروب ووجوه؛ والتي منها ما يلي:

اولًا: إخراج الغامض إلى الظاهر:

ولِما للأمثال من فوائدَ؛ امتنَّ الله تعالى علينا بقوله :﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم: ٤٥)، وبقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، وسُمِّي مثلًا؛ لأنه ماثلٌ بخاطر الإنسان أبدًا؛ أي: شاخص، فيتأسى به ويتَّعِظ.

ثانيًا: مجيء المثل بمعنى الصفة

ويأتي المثل بمعنى الصفة؛ كقوله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾]النحل: ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (الرعد: ٣٥)، وقوله تعالى :﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ (الفتح: ٢٩).

ثالثًا: تشبيه المعنوي الخفي بالحسّي، والغائب بالشاهد؛

وذلك كتشبيهِ الإيمان بالنور، والكفر بالظلمة، والكلمة الطيبة بالشجرة.

وهذا كثير الورود في القرآن.

٣٧٥- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ج١، ص٣.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن ثم كان الغرضُ من التمثيل: تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، وإبراز المدركات المعقولة والمعاني الخفية في صورة محسة أو مألوفة؛ لبيانِ صفتها وحالها، أو تقريرِ معانيها، وتمكينها في النفس أو لبيان إمكان وقوعها وتحققها وغير ذلك من الأغراض(٣٧٦).

رابعًا: مجيء المثل واستعماله لبيان الحال

ويستعمل المثل لبيان الحال؛ كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧) (٣٧٧)

خامسًا: ويضرب المثل كنموذج للإعجاز، أو الأمر العَجيب، أو التحدي،

المثل: النَّموذَج، أو نوع من الأنواع، أو عمل من الأعمال، أو سُنة من سنن الله تعالى(٣٧٨).

المطلب العاشر: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالإيجاز في القرآن الكريم

إن موقع الإيجاز من البلاغة كموقع البلاغة من الإعجاز، لأنه يعد دعامة من دعائم القول لا غنى للمتكلم عنها حتى يرقى بكلامه إلى أعلى المراتب بيانًا وأسماها منزلة. وهو في القرآن الكريم سمة من سماته ومنحى من مناحي إعجازه البياني الذي شهد به المنصفون من العرب والعجم. (٣٧٩)

ولابد أولًا من بيان مفهوم الإيجاز في اللغة والاصطلاح:

أولًا: مفهوم الإيجاز في اللغة:

أ- الإِيْجَازُ فِي اللُّغَةِ:

أوجز الكلام قَصَّرَهُ، وكلامٌ مُوْجَزٌ بفتح الجيم وكسرها (٣٨٠).

ومنه قول عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-:

عَجِبْت لِمَنْ لاحَنَ النَّاسَ كيف لا يَعْرِفُ جَوامِعَ الكلم؛ معناه: كيف لا يَقْتَصِر على الإيجاز ويَترك الفُضول من الكلام(٣٨١).

٣٧٦- يُنظر: السايح؛ الأمثال العربية، م الفيصل، ع ١٨، ص ٨٠، السعودية.

٣٧٧- المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، أحمد عمر أبو شوفة، ص ١٩٨، بتصرف.

٣٧٨-وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبدالسلام أحمد الراغب، ص ١٥٧.، مع التحفظ على مسمى الكتاب، الباحث.، ينظر: دواعي ضرب الأمثال في القرآن، عبدالستار المرسومي، عن موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٨/٥/١٦هـ.

٣٧٩- ورد في وصف كتاب الإيجاز فى كلام العرب ونص الإعجاز، د. مختار عطية، ينظر المقدمة.

٣٨٠- مختار الصحاح، مادة (و. ج. ز).

٣٨١- لسان العرب، مادة (و. ج. ز).

شبكة الألوكة www.alukah.net

ب- الإِيْجَازُ فِي الاصْطِلاحِ:

"هو الجَمْعُ للمعاني الكثيرةِ بالأَلْفَاظِ القَلِيْلَةِ(٣٨٢)"، **وقيل:**" الإيجازُ دلالةُ اللَّفْظِ عَلَي المعْنَي مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِيْدَ عَلَيْهِ"(٣٨٣).

يقول صاحب خزانة الأدب:

" الإيجازُ اعتنت به فصحاءُ العربِ وبلغاؤها كثيرًا، فَإِنَّهُمْ كانوا إذا قصدوا الإيجاز أتوا بألفاظ استغنوا بواحدها عن ألفاظٍ كثيرةٍ؛ كأدوات الاستفهام والشروط وغير ذلك، فقولك: أين زيد؟ مُغْنٍ عن قولك: أزيدٌ في الدَّارِ أم في المسجد؟ إلى أن تستقري جميع الأماكن، وقولك: مَنْ يَقُمْ أَقُمْ مَعَهُ؛ مُغْنٍ عن: إنْ يَقُمْ زَيْدٌ أو عمرو أقم معه، وما بالدار من أحدٍ؛ مُغْنٍ عن قولك: ليس فيها زيدٌ ولا عمرو، فغالبُ كلامِ العَرَبِ مَبْنِيٌّ عَلَى الإِيْجَازِ والاخْتِصَارِ، وأداءِ الَمقْصُودِ مِنْ الكلامِ بأقلِّ عبارةٍ، وهذا النوع على ضربين: إيجازُ قَصْرٍ وإيجازُ حَذْفٍ. (٣٨٤).

وسيأتي معنا بيان ذلك بشيء من بالتفصيل في موضعه بإذن الله تعالى.

يقول عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-:

ما رأيت بليغًا قط إلا له في القول إيجاز وفي المعاني إطالة (٣٨٥).

ومع أن الإيجاز أسلوب اعتنت به فصحاءُ العربِ وبلغاؤها، فقد ورد استعماله في القرآن بكثرة ولم تستطع العرب مجاراته ولا محاكاته ولا مماثلته أبدًا، لأنه من بديع بيان القرآن.

ثانيًا: أقسام الإيجاز بشيء من الإيضاح والبيان

وقسم البلاغيون الإيجاز إلى قسمين: إيجاز قصر وإيجاز حذف(٣٨٦) كما مر معنا آنفًا.

فالضرب الأول: إيجاز القصر

وإيجاز القصر: هو أداء المعنى المراد بلفظ ناقص عن متعارف الأوساط في أداء المعاني الأصلية شريطة أن يكون اللفظ وافيًا من غير حذف (٣٨٧).

٣٨٢- الحيوان للجاحظ (٢/ ٨٦).

٣٨٣ -المثل السائر لابن الأثير (٢/ ٢٣٢).

٣٨٤- يُنظر: الإتقان في علوم القرآن، (ص٥٦).، يُنظر: تعريف الاختصار والإيجاز لغة واصطلاحًا، أ. د. عبدالله أحمد جاد الكريم حسن، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٦/١١/١٥هـ.

٣٨٥- ديوان المعاني: أبو هلال العسكري (٢/٩١)، وهذا الأثر لم يقف فيه الباحث على مصدر يعتمد عليه غير ما ذكر، ولكن أغلب من ينسبه ينسبه لأمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه كما في كتاب الصناعتين: (١٧٤). وهو أيضًا لأبي هلال العسكري المعتزلي.

٣٨٦- الإيضاح: القزويني: (١٨٠-١٨٣)، تلخيص المفتاح : القزويني (١٢١-١٢٢)

٣٨٧-الإيضاح: القزويني: (١٨٠)، الطراز: العلوي (٢/٧٣-١٠١)

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقيل: هو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني ويرى ابن الأثير أنّ التنبه لهذا النوع عسر، لأنّه يحتاج إلى فضل تأمل ([٣٨٨]).

ونسوق لذلك مثالين من كتاب الله تعالى:

المثل الأول:

قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ)(البقرة من آية: ١٧٩).

وتتبين قيمة الإعجاز البياني في إيجاز القصر في هذه الآية الكريمة حينما تقارن بقولهم: «القتل أنفى للقتل»،

ويتضح ذلك فى وجوه:

أحدها: أنّ عدة حروف ما يناظره منه وهو (فِي الْقِصاصِ حَياةٌ) عشرة فى التلفظ وعدة حروفه أربعة عشر.

وثانيها: ما فيه من التصريح بالمطلوب الذى هو الحياة بالنص عليها فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه أدعى إلى الاقتصاص.

وثالثها: ما يفيده تنكير «حياة» من التعظيم أو النوعية.

ورابعها: اطراده بخلاف قولهم، فانّ القتل الذى ينفى القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره.

وخامسها: سلامته من التكرار الذى هو من عيوب الكلام بخلاف قولهم.

وسادسها: استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم، فان تقديره: القتل أنفى للقتل من تركه.

وسابعها: أنّ القصاص ضد الحياة، فالجمع بينهما طباق.

وثامنها: جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة بإدخال «فى» عليه ([٣٨٩]).

واختصارًا لما مضى ذكره حول آية القصاص:

نقول إن هذه عبارة مختصرة، لكنها جمعت بين الحُكم، وكيفية تنفيذه، والغاية منه:

الحكم: القِصاص.

والغاية منه: الحياة.

وكيفية تنفيذه: أن يفعل بالجاني كما فعل.

وقال بعضهم: واشتهر عند الجاهليين عبارة يتناقلونها، ويرون أنها من أبلغ العبارات، وهي قولهم كما أسلفنا: "القتلُ أنفى للقتل".

٣٨٨- المثل السائر ج ٢ ص ٧٨.

٣٨٩- الإيضاح ص ١٨٢، وينظر كتاب الصناعتين ص ١٧٥ ، والمثل السائر ج ٢ ص ١٢٥ وبديع القرآن ص ١٩٢، ونهاية الإيجاز ص ١٤٥. بتصرف يسير.

شبكة الألوكة www.alukah.net

لكن لو قارنت بينها وبين الآية، لوجدت الفرق العظيم؛ لأن هذه العبارة: "القتلُ أنفى للقتل" كلها قتل، وليس فيها حياة، ولأنها ليس بها دليل على أنها مقاصة.

وذكر أهل العلم رحمهم الله عشرة أوجه في الفرق بينهما(٣٩٠)، مع أننا لا نحبذ هذا؛ لأنه لا شك أنه لا سواء، ولا مقاربة بين صفات الخالق وصفات المخلوق، والقرآن صفة الخالق عز وجل.

وقد مر معنا ذكر أهم هذه الأوجه وأظهرها وأبينها، ولم تذكر هنا إلا من باب بيان أوجه الإعجاز في الإيجاز في الآية الكريمة، وعجز العرب عن مساواة ومماثلة بديع بيان القرآن ومحاكات أسلوبه.

إذًا: هذه الجملة فيها إيجاز قصر؛ لأنها تضمنت معاني كثيرة، مع أن كلماتها قليلة، ثلاث كلمات فقط. (٣٩١)

والمثال الثاني:

قوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}(القصص: ٤).

وحول بيان وجوه إيجاز القصر في آية القصص يقول الباقلاني:

"هذه تشمل على ست كلمات، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف.

وهي تشتمل على جملة وتفصيل وجامعة وتفسير: ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكم في هذين الأمرين، فما ظنك بما دونهما؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور. ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التظليم، وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره"(٣٩٢).

والإيجاز بالقصر كثر ورود أمثلته في القرآن حتى قيل: بأن هذا النوع من الإيجاز لا تكاد تخلو منه سورة أو جزء سورة(٣٩٣).

٣٩٠- وهذه الأوجه مذكورة في: الإيضاح: القزويني (١٨٠)، تلخيص المفتاح: القزويني (١٢١)، الطراز: العلوي(١٠١/٢). والسيوطي حكى فيها عشرين وجهًا في الإتقان: (٢/٧٦).

٣٩١- يُنظر: ما هي أقسام الإيجاز؟، شرح دروس البلاغة للشيخ محمد بن صالح العثيمين

تحقيق الأستاذ أشرف بن يوسف، عن موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٦/١٢/١ هـ

٣٩٢- الباقلاني، إعجاز القرآن ص١٩٣- ١٩٤.

٣٩٣- يُنظر: أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن ص٢٩٣- ٢٩٤.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ننتقل إلى السيوطي حيث ينقل عن الطيبي في " التبيان" تقريره:

بأن: الإيجاز الخالي من الحذف ثلاثة أقسام:

القسم الأول: إيجاز القصر: وهو أن يقصر اللفظ على معناه

كقوله تعالى: (إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) (النمل: ٣١-٣٢)، جمع في أحرف العنوان والكتاب والحاجة

وقيل: في وصف بليغ: كانت ألفاظه قوالب معناه.

قلت: وهذا رأي من يدخل المساواة في الإيجاز.

يضيف الباحث ويقول:

وقد مر بنا الكلام على إيجاز القصر بشيء من الإيضاح والبيان، والعود هنا لذكر فوائد أُخَر في تقسيم الطيبي ولسياق أمثلة أخرى لتضيف إلى هذا المبحث الهام زيادة إيضاح وبيان من جهة، ولتأكد كثرة وجوده واستعماله في آيات القرآن من جهة ثانية، وهذا مما يبرز وجوه الإعجاز البياني المتعلقة بأسلوب الإيجاز في القرآن الكريم.

والقسم الثاني:إيجاز التقدير

وهو أن يقدر معنى زائدًا على المنطوق، ويسمى بالتضييق أيضًا، وبه سماه بدر الدين بن مالك في المصباح؛ لأنه نقص من الكلام ما صار لفظه أضيق من قدر معناه، نحو: قوله تعالى: (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف)(البقرة: ٢٧٥)؛ أي: خطاياه غفرت فهي له لا عليه. وقوله سبحانه: (هدى للمتقين) (البقرة من آية: ٢)؛ أي: الضالين الصائرين بعد الضلال إلى التقوى.

والقسم الثالث:الإيجاز الجامع

وهو أن يحتوي اللفظ على معان متعددة، نحو: قوله سبحانه: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) (النحل من آية: ٩٠) الآية، فإن العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، المومئ به إلى جميع الواجبات في الاعتقاد والأخلاق والعبودية.

والإحسان هو الإخلاص في واجبات العبودية لتفسيره في الحديث بقوله:" أن تعبد الله كأنك ترا ه"(٣٩٤)؛ أي: تعبده مخلصًا في نيتك، وواقفًا في الخضوع، آخذا أهبة الحذر إلى ما لا يحصى. وإيتاء ذي القربى هو الزيادة على الواجب من النوافل. هذا في الأوامر، وأما النواهي: فبـ (الفحشاء) الإشارة إلى القوة الشهوانية، وبـ (المنكر) إلى الإفراط الحاصل من آثار الغضبية، أو كل محرم شرعًا، وبـ (البغي) إلى الاستعلاء الفائض عن الوهمية.

٣٩٤-حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (٥٠) في كتاب "الإيمان" باب: سؤال جبريل النبي صلى اله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، وأخرجه ابن ماجة (٦٤) في المقدمة "باب: في الإيمان بتمامه"، وأخرجه مسلم (٩)، .

شبكة الألوكة www.alukah.net

قلت: ولهذا قال ابن مسعود–رضي الله عنه–:

ما في القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه الآية، أخرجه في المستدرك. ([٣٩٥])

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن أنه قرأها يومًا ثم وقف فقال:

إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئًا إلا جمعه.

يوضح الباحث ويقول:

والحقيقة أن تقسيم الطيبي الإيجاز الخالي من الحذف إلى ثلاثة أقسام يعني به بمفهوم المخالفة أنه " إيجاز القصر"، وأن الأقسام الثلاثة كلها تندرج تحت القسم الأول منها ألا وهو "إيجاز القصر" وإن اختلفت المسميات فإنها تندرج ضمنًا تحت القسم الأول كما أسلفنا، ولم يقف الباحث على هذا التقسيم إلا ما كان من الطيبي، ويبقى التقسيم على الأصل الذي قسمه البلاغيون، ألا وهو: إيجاز القصر، وإيجاز الحذف، والحمد لله.

ونسوق عشرة أمثلة أخرى من بديع الإيجاز بالقصر:

المثال الأول:

قوله تعالى: (قل هو الله أحد) (الإخلاص: ١)، إلى آخرها، فإنه نهاية التنزيه وقد تضمنت الرد على نحو: أربعين فرقة، كما أفرد ذلك بالتصنيف بهاء الدين بن شداد.

المثال الثاني:

قوله سبحانه: (أخرج منها ماءها ومرعاها) (النازعات: ٣١)، دل بهاتين الكلمتين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام من العشب والشجر والحب والثمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء.

المثال الثالث:

قوله سبحانه: (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) (الواقعة: ١٩)، جمع فيه جميع عيوب الخمر من الصداع، وعدم العق، وذهاب المال، ونفاذ الشراب.

المثال الرابع:

قوله سبحانه:(وقيل يا أرض ابلعي ماءك) (هود من آية: ٤٤)، أمر فيها ونهى وأخبر ونادى، ونعت وسمى، وأهلك وأبقى، وأسعد وأشقى، وقص من الأنباء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام وقد أفردت بلاغة هذه الآية بالتأليف.

٣٩٥- ويُنظر: تفسير ابن كثير: (٤/٥٩٦).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي العجائب للكرماني:

أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية، بعد أن فتشوا جميع كلام العرب والعجم، فلم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها، وحسن نظمها، وجودة معانيها في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال

المثال الخامس:

قوله تعالى: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنك)(النمل من آية: ١٨)، جمع في هذه اللفظة أحد عشر جنسًا من الكلام: نادت، وكنت، ونبهت، وسمت، وأمرت، وقصت، وحذرت، وخصت، وعمت، وأشارت، وعذرت.

فالنداء: (يا)، والكناية: (أي)، والتنبيه: (ها)، والتسمية: (النمل)، والأم:

(ادخلوا)، والقصص(مساكنكم)، والتحذير:(لا يحطمنكم)، والتخصيص :(سليمان)، والتعميم: (جنوده)، والإشارة: (وهم)، والعذر: (لا يشعرون)، فأدت خمسة حقوق: حق الله، وحق رسوله، وحقها، وحق رعيتها، وحق جنود سليمان.

المثال السادس:

قوله تعالى: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) (الأعراف من آية: ٣١)، جمع فيها أصول الكلام: النداء، والعموم، والخصوص، والأمر، والإباحة، والنهي، والخبر.

المثال السابع:

قال بعضهم: جمع الله الحكمة في شطر آية:(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) (الأعراف من آية: ٣١)

المثال الثامن:

قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) (القصص من أية: ٧)،

قال ابن العربي:

هي من أعظم آي في القرآن فصاحة؛ إذ فيها أمران ونهيان وخبران وبشارتان.

المثال التاسع:

قوله سبحانه (فاصدع بما تؤمر) (الحجر من أية: ٩٤)،

قال ابن أبي الإصبع المصري: (ت: ٦٥٤هـ)

المعنى صرح بجميع ما أوحي إليك، وبلغ كل ما أمرت ببيانه، وإن شق بعض ذلك على بعض القلوب فانصدعت. والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصريح في القلوب، فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبض والانبساط، ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار، كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة، فانظر إلى جليل هذه الاستعارة، وعظم إيجازها، وما انطوت عليه من المعاني الكثيرة.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد حكي أن بعض الأعراب لما سمع هذه الآية سجد وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. (٣٩٦)

المثال العاشر:

قوله تعالى:(وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) (الزخرف من أية: ٧١)،

قال بعضهم:

جمع بهاتين اللفظتين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه. (٣٩٧).

وهذا النوع من الإيجاز ورد كثيرًا في السنة ويشير إلى ذلك إجمالًا قوله- صلى الله عليه وسلم- فيما أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت بجوامع الكلم..... " الحديث. (٣٩٨)

ومعنى (جوامع الكلم): للعلماء فيها قولان:

قال الزهري: معناه: أنه كان- صلى الله عليه وسلم- يتكلم بالقول الموجز، القليل اللفظ، الكثير المعاني.

وقال غيره: المراد بها: القرآن، بقرينة قوله (بعثت) والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني(٣٩٩).

والقول الأول: "قول الزهري" هو الصواب وهو القول الراجح، ذلك لأنه وصفٌ لكلامه- صلى الله عليه وسلم-، ومما يؤكد ذلك أن الحديث له روايات كُثر، منها رواية للبخاري بلفظ: "أعطيت مفاتيح الكلم"(٤٠٠) ورواية لمسلم بلفظ: "أعطيت جوامع الكلم". (٤٠١).

٣٩٦- ولا شك في عدم مشروعية ذلك، لأن سجدات التلاوة لها مواضع في القرآن وهي خمسة عشر سجدة في القرآن، أولها في آخر الأعراف، وآخرها في سورة العلق (اقرأ)، ولا شك في أنها سنة، ومع ذلك فلا يزاد عليها ولا ينقص أبدًا، ومن سجد في غير مواضع السجود المشروعة في الكتاب والسنة، فقد أتى بابًا عظيمًا من أبواب البدع، وجرى التنبيه على ذلك لأن السيوطي نقل ذلك عن ابن أبي الإصبع وكليهما لم ينبه على هذا الأمر الجلل، وعليه جرى التنبيه لأن تأخير البيان عن الوقت الحاجة لا يجوز. والحمد لله رب العالمين. الباحث.

٣٩٧-الإتقان في علوم القرآن: (٢/٧٦).وبعد بحث مضن لم يقف الباحث على أحد حكم على أثري ابن مسعود-رضي الله- والحسن- بصحة أو ضعف، إلا ما عزاه السيوطي للمستدرك، وشعب الإيمان، مع شهرتيهما وشيوعهما في كتب التفسير.

٣٩٨- متفق عليه: (خ ٢٩٧٧، م ٥٢٣).

٣٩٩- فتح الباري: ١٣ /٢٤٧.

٤٠٠- أخرجه البخاري برقم (٦٩٩٨).

٤٠١- أخرجه مسلم في كتاب الأشربة برقم (٧١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

النوع الثاني من أنواع الإيجاز: الإيجاز بالحذف

مفهوم الحذف في اللغة والاصطلاح.

أ- الحذف في اللغة:

القطع والإسقاط؛ جاء في الصحاح: "حَذْفُ الشيءِ: إسقاطُه. يقال: حَذَفْتُ من شَعْري ومن ذَنَبِ الدابَة، أي أخذت... وحَذَفْتُ رأسَه بالسيف، إذا ضربته فقطعتَ منه قطعةً"(٤٠٢).

يقول ابن منظور في لسان العرب:

"حذَفَ الشيءَ يَحْذِفُه حَذْفًا قَطَعَه من طَرَفه والحَجَّامُ يَحْذِفُ الشعْر من ذلك... والحَذْفُ الرَّمْيُ عن جانِبٍ والضرْبُ"(٤٠٣)

ويتَّضح من خلال هذه المُعطيات القاموسيَّة والمعجميَّة أنَّ المعنى الذي تُشير إليه كلمة "حذف" غالبًا، لا يُخرج عن ثلاثة معان أساسيَّة، وهي:

القَطْعُ؛ إذ نقول كما جاء في لسان العرب: حذَف الشيء يَحذفه؛ أي: قطَعه من طرَفه.

القَطْفُ، وهو أيضًا بمعنى القطع؛ كما ذَكَر صاحب اللسان: "قطَف الشيء يَقطفه؛ أي: قطَعه.

الطَّرْح؛ إذ إنه لا يُحذَف شيء إلاَّ طُرِح، والطَّرْح كذلك الإسقاط.

ب- والحذف اصطلاحًا:

إسقاط وطرْح جزءٍ من الكلام أو الاستغناء عنه؛ لدليل دَلَّ عليه، أو للعِلم به وكونه معروفًا(٤٠٤).

وهذا التعريف الاصطلاحي لا يختلف عن التعريف اللغوي المشار إليه آنفًا، بل يُضارعه ويَجري في مجراه. (٤٠٥)

"**وقيل أن:** الحذف ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية، حيث يميل الناطقون إلى حذف بعض العناصر المكررة في الكلام، أو إلى حذف ما قد يمكن للسامع فهمه اعتمادًا على القرائن المصاحبة حالية كانت أو عقلية أو لفظية، كما قد يعتري الحذفُ بعضَ عناصر الكلمة الواحدة فيسقط منها مقطع أو أكثر"(٤٠٦).

والحذف يرد في لغة العرب سواء تعلق الأمر بنثرها أم شعرها، ولهذا نجد الحذف في القرآن الكريم والشعر العربي، وهو من الظواهر التي تدرس ضمن أحوال الخبر من زاوية الإسناد بطرفيه (٤٠٧).

٤٠٢- الصحاح في اللغة ١ / ١٢٠.

٤٠٣- لسان العرب: ٩ / ٤٠.

٤٠٤- شرْح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك؛ محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٢٠، رمضان ١٤٠٠هـ - يوليو ١٩٨٠م، ج١، ص٢٤٣.

٤٠٥- يُنظر: الحذف في القرآن الكريم، عبدالكريم حميد، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٢/٨/٣ هـ.

٤٠٦- طاهر سليمان حموده (١٩٩٨)، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ص٤.

٤٠٧ - ينظر: الأزهر الزناد، (أيلول، سبتمبر، ١٩٩٢)، دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، بيروت، ص ٩٧ ٩٩.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وإيجاز الحذف: متعدد، فقد يكون بحذف كلمة أو جملة، و قد يكون الإيجاز بالحذف لأكثر من جملة، فيحذف شيء من العبارة، مع عدم إخلاله بفهم فحوى الكلام ومعناه، بل يزيده وضوحًا، وذلك مع بقاء وجود قرينة دالة تعين المحذوف.

أقوال العلماء فيه:

وليس البلاغيون من عنوا بالحذف فحسب، بل اهتمَّ به اللغويون والنحويون جميعًا على حد سواء؛ ذلك لما له من دور ومكانة في صياغة التركيب العربيّ، وصلته الوطيدة بالدلالة، لهذا- فالبحث في الحذف هو بحث في منبع ثَرٍّ لا يجفُّ ماؤه، منه تخرج اللآلئ الدفينة المشعَّة بالمعاني اللطيفة؛ لهذا السبب وجد في البحث اللغوي والبلاغي مكانه الفسيح. (٤٠٨)

والبلاغيون مجمعون على أن الحذف كثيرًا ما يأتي في كلام العرب إذا كان في الكلام ما يدل عليه.

وحول هذا المعنى يقول ابن جني: (ت: ٣٩٢هـ)

"اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والحمل على المعنى... ".

يتابع ابن جني مبينًا ما يحذف من كلام العرب فيقول:

"قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة". (٤٠٩)

وعن أسلوب الإيجاز بالحذف يقول الجرجاني:

هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن. (٤١٠)

و ننبه إلى أن الأصل أن يرد الكلام بغير حذف، و السبيل الأمثل لإعادة بنية الكلام إلى صورته الأصلية هو تقدير المحذوف من خلال السياق الوارد فيه، و هنا يقع الخلاف بين العلماء في طرق بيان كيفية الحذف و تحديد أسبابه, و قد كان لهذا الخلاف أثر عميق في تفرع أغراض الإيجاز بالحذف, و تحديد شروطه, و بيان أسبابه و مراميه في العديد من المواضع.

و إذا أشرنا إلى هذه الظاهرة في القرآن الكريم, باعتباره يمثل أعلى مراتب البلاغة وأسمى وجوه البيان, فإننا نجد صفة الإيجاز من أبرز الظواهر المتعلقة به, و بإمكان أي كان أن يقف على هذه الحقيقة في أي جزء من أجزاء كتاب الله العزيز، حيث يلاحظ أن الألفاظ القليلة تشير إلى المعاني الكثيرة, و دراسة هذه الظاهرة في القرآن الكريم سوف تؤدي إلى الكشف عن العديد من أسرار النظم فيه, شأنها في ذلك شأن القضايا المتعلقة بالتأليف,

---

٤٠٨- بلاغة الحذف عند عبد القاهر الجرجاني، محمد البوزيدي، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٨/٧/٢٠هـ. بتصرف يسير.

٤٠٩- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، الناشر: عالم الكتب – بيروت-تحقيق : محمد علي النجار، عدد الأجزاء : ٣

٤١٠- دلائل الإعجاز ج١/ص١٢١، و يُنظر: بلاغة الحذف عند عبد القاهر الجرجاني، محمد البوزيدي، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٨/٧/٢٠هـ.

شبكة الألوكة www.alukah.net

والوقوف على تلك الدقائق يتطلب نظرة عميقة وجهدًا علميًا مضاعفًا، إذ لا يقف الهدف عند حدود وصف ظاهرة الإيجاز بالحذف وتعيين مواطنها وإبراز أشكالها فحسب، بل ينبغي تحديد أسباب العدول عن الذكر إلى الحذف، والتمييز بين الأغراض المتباينة للحذف في أشكال الخطاب المختلفة. (٤١١)

فوائد الإيجاز بالحذف:

للإيجاز بالحذف فوائد من أبرزها ما يلي:

١ . إيراد المعاني الواسعة بأقل ألفاظ ممكنة غير مخلة بالمعنى

٢- دفع السآمة بعدم التكرار لغير حاجة

٣ . إعمال العقل للتدبر في المعاني وفهم فحوى الكلام والتفكر في المحذوف لاستكمال تصور كامل للمعنى بالربط بين الكلام المثبت والكلام المحذوف.

٤- وقد يقصد بالإيجاز بالحذف كذلك التفخيم والتعظيم

كما أن الإيجاز بالحذف قد يقصد به غير ذلك من الفوائد البلاغية أيضًا.

والجرجاني يوجز فوائد الإيجاز بالحذف فيقول:

"ما من اسم حذف في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها، إلا وحذفه أحسن من ذكره". (٤١٢)

أسباب دواعي الايجاز بالحذف:

هي أسباب حاول بها النُّحاة تفسير الظاهرة في مواضعها وأنواعها المختلفة، وبعض هذه الأسباب قد لا يطَّرد في كل موضع، وبعضها يعلل الحذف لأكثر من سبب، ومواضع أخرى لا يُعَلَّلُ الحذف إلا بسببٍ واحد. (٤١٣)

أسباب إيجاز الحذف:

ذكر السيوطي في الإتقان أن لإيجاز الحذف أسباب:

السبب الأول منها: مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره.

السبب الثاني منها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف

وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم، وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: (ناقة الله وسقياها) (الشمس: ١٣)، فـ (ناقة الله) تحذير بتقدير (ذروا)، (سقياها) إغراء بتقدير: (الزموا).

---

٤١١ – الإيجاز بحذف الاسم وشواهده من القرآن الكريم أ . محمد الأمين خويلد، مجلة اللغات والآداب،(ص: ٢٣٠) وما بعدها، صادرة عن: جامعة ورقلة – الجزائر، العدد الرابع، مايو ٢٠٠٥م.

٤١٢- يُنظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: (٢٣٣/١).

٤١٣- ظاهرة الحذف.. بين النحو والبلاغة، سليمان أبو عيسى، موقع الألوكة، بتاريخ: ٢٧/٩/ ١٤٢٨هـ.

شبكة الألوكة www.alukah.net

السبب الثالث منها: التفخيم والإعظام لما فيه من الإبهام.

قال حازم في منهاج البلغاء:

إنما يحسن الحذف لقوة الدلالة عليه، أو يقصد به تعديد أشياء، فيكون في تعدادها طول وسآمة، فيحذف، ويكتفى بدلالة الحال، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها.

قال: ولهذا القصد يؤثر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس، ومنه قوله في وصف أهل الجنة: (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) (الزمر: ٧٣)، فحذف الجواب؛ إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى، فجعل الحذف دليلًا على صدق الكلام عن وصف ما يشاهدونه، وتركت النفوس تقدر ما شاءته، ولا تبلغ مع ذلك كنه ما هنالك.

وكذا قوله: (ولو ترى إذ وقفوا على النار) (الأنعام: ٢٧)؛ أي: لرأيت أمرًا فظيعًا لا تكاد تحيط به العبارة.

السبب الرابع منها: التخفيف لكثرة دورانه في الكلام كما في حذف حرف النداء نحو: (يوسف أعرض) (يوسف: ٣٩)، ونون لم يك في قوله: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال: ٥٣)، والجمع السالم، ومنه قراءة (والمقيمي الصلاة) (الحج: ٣٥)، وياء(والليل إذا يسر) (الفجر: ٤)

وسأل المؤرجُ السدوسي(٤١٤) الأخفشَ عن هذه الآية فقال:

عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه، والليل لما كان لا يسري، وإنما يسرى فيه نقص منه حرف كما قال تعالى: (وما كانت أمك بغيًا) (مريم: ٢٨)، الأصل (بغية)، فلما حول عن فاعل نقص منه حرف.

السبب الخامس منها: كونه لا يصلح إلا له

نحو قوله: (عالم الغيب والشهادة) (الأنعام: ٧٣)، فعال لما يريد.

السبب السادس منها: شهرته حتى يكون ذكره وعدمه سواء.

قال الزمخشري: (ت: ٥٣٨هـ)

هو نوع من دلالة الحال التي لسانها أنطق من لسان المقال، وحمل عليه قراءة حمزة: (تساءلون به والأرحام) (النساء: ١)؛ لأن هذا مكان شهر بتكرر الجار، فقامت الشهرة مقام الذكر. (٤١٥)

٤١٤- مؤرج السدوسي (٠٠٠-١٩٥ هـ = ٠٠٠ - ٨١٠ م)-أبو فيد مؤرج بن عمرو بن الحارث بن ثور بن حرملة بن علقمة بن عمرو بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة، السدوسي النحوي البصري؛ أخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وروى الحديث عن شعبة بن الحجاج وأبي عمرو ابن العلاء وغيرهما، وكان يقول: قدمت من البادية ولا معرفة لي بالقياس في العربية، وإنما كانت معرفتي قريحة، وأول ما تعلمت القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري بالبصرة.، يُنظر: وفيات الأعيان: (٣٠٤/٥)، مؤرج السدوسي.

٤١٥- وعلى قِراءِ الجرِّ في قوله: (والأرحام)، فهو معطوفٌ على الهاء في (بِهِ)، من بابِ العَطفِ على الضَّميرِ المجرورِ من غيرِ إعادة الجارِّ. يُنظر: إعراب مشكل القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي: (١٨٧/١-١٨٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

السبب السابع منها: صيانته عن ذكره تشريفًا

كقوله تعالى: (قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات) الآيات، حذف فيها المبتدأ في ثلاثة مواضع: قبل ذكر الرب؛ أي: (هو رب)، (الله ربكم)، (الله رب المشرق); لأن موسى استعظم حال فرعون وإقدامه على السؤال، فأضمر اسم الله تعظيمًا وتفخيمًا، ومثله في عروس الأفراح بقوله تعالى: (رب أرني أنظر إليك) (الأعراف: ١٤٣)؛ أي: ذاتك.

السبب الثامن منها: صيانة اللسان عنه تحقيرًا له نحو: (صم بكم) (البقرة: ١٨)؛ أي: هم أو المنافقون

السبب التاسع منها: قصد العموم، نحو: (وإياك نستعين) (الفاتحة: ٥)؛ أي: على العبادة وعلى أمورنا كلها.، ونحو:(والله يدعو إلى دار السلام) (يونس: ٢٥)؛ أي: كل واحد.

السبب العاشر منها: رعاية الفاصلة

نحو: (ما ودعك ربك وما قلى) (الضحى: ٣)؛ أي: وما قلاك.

السبب الحادي عشر منها: قصد البيان بعد الإبهام

كما في فعل المشيئة، نحو (فلو شاء لهداكم) (النحل: ٩)؛ أي: فلو شاء هدايتكم فإنه إذا سمع السامع ولو شاء تعلقت نفسه بمشاء انبهم عليه لا يدري ما هو، فلما ذكر الجواب استبان بعد ذلك. وأكثر ما يقع ذلك بعد أداة شرط؛ لأن مفعول المشيئة مذكور في جوابها.

وقد يكون مع غيرها استدلالًا بغير الجواب، نحو:(ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (البقرة: ٢٥٥).

وقد ذكر أهل البيان أن مفعول المشيئة والإرادة لا يذكر إلا إذا كان غريبًا أو عظيمًا، نحو: (لمن شاء منكم أن يستقيم) (التكوير: ٢٨)، ونحو: (لو أردنا أن نتخذ لهوًا) (الأنبياء: ١٧)، وإنما اطرد أو كثر حذف مفعول المشيئة دون سائر الأفعال؛ لأنه يلزم من وجود المشيئة وجود المشاء، فالمشيئة المستلزمة لمضمون الجواب لا يمكن أن تكون إلا مشيئة الجواب؛ ولذلك كانت الإرادة مثلها في اطراد مفعولها، ذكره الزملكاني والتنوخي في الأقصى القريب. قالوا: وإذا حذف بعد (لو) فهو المذكور في جوابها أبدًا.

وأورد في عروس الأفراح في قوله تعالى: (قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة)

(فصلت: ١٤)، فإن المعنى: لو شاء ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة؛ لأن المعنى معين على ذلك. ([٤١٦])

٤١٦- الإتقان في علوم القرآن: (٢/ ٨٣).

شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن أمثلة الإيجاز بالحذف الوارد في القرآن

أولًا: حذف الجملة

كما في قوله تعالى: (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا)

(البقرة من آية: ٦٠)، أي فضربه فانفجرت, فاكتفى بالمسبب الذي هو الانفجار من السبب الذي هو الضرب, وحذفت جملة(فضربه) لدلالة القرائن عليها, لأن "العرب إنما تحذف من الكلام ما دل عليه الظاهر" (٤١٧), ولا يختلف في تحديد المحذوف في هذه الآية اثنان, فالانفجار ناتج عن فعل ما, و لا يمكن أن يكون هذا الفعل غير الضرب بدليل (قلنا اضرب), فهناك معالم في السياق توجه المعاني وتخصصها حتى تصير في تحصيل الحاصل. ولذلك فإن " الحذف لا يكون إلا بدليل بنية معهودة أو نمط معروف أو قرينة قائمة أو معنى في السياق لا يستقيم إلا مع تقدير الحذف "(٤١٨).

ثانيًا: حذف أكثر من جملة

و قد يكون الإيجاز بحذف أكثر من جملة، وهذا الضرب من الحذف يلاحظ في القرآن الكريم بصفة عامة, وفي القصص القرآني بصفة خاصة وملفتة للنظر, حيث تحذف عدة جمل اختصارًا وإيجازًا, ويكتفى بدلالة القرائن العقلية والحالية واللفظية على المحذوف, من ذلك قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين, و اسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها و إنا لصادقون, قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل, عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا, إنه هو العليم الحكيم) (سورة يوسف الآيات ٨١-٨٣) أي فرجعوا إلى أبيهم وأخبروه بما كان, فقال: بل سولت لكم أنفسكم أمرًا..... الخ, فدل السياق على الجمل المحذوفة.

ثالثًا: حذف جزء من الجملة

والكلام هنا عن حذف جزء من الجملة إجمالًا:

وكما يتعلق الإيجاز بجملة بأسرها أو بأكثر من جملة، فإنه يتجلى أيضا بحذف جزء من الجملة, اسمًا كان أو فعلًا, وذلك من جهات مختلفة، فقد يكون الحذف من جهة الإسناد حيث يحذف المسند- مبتدأ كان أو فاعلًا, أو المسند إليه- خبرًا كان أو فعلًا، وقد يكون الحذف من جهة التعدية حيث يحذف المفعول, وقد يكون من جهة التبعية حيث يحذف النعت أو المنعوت، وقد يكون من جهة النسبة حيث يحذف المضاف أو المضاف إليه، وقد يحذف حرف المعنى عاملًا كان أو غير عامل, وتدل القرائن المختلفة وخاصة القرائن النحوية على الجزء المحذوف.

٤١٧- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة: (ص: ١٣٩)، دار الكتب العلمية لبنان ط١. ٢٠٠٢. ص ١٣٩

٤١٨- البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان: (ص: ١٥٧)، عالم الكتب القاهرة ط ١. ١٩٩٣م،.ص ١٥٧

شبكة الألوكة www.alukah.net

ويلخص ابن جني ذلك يقوله:

" قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه.... وأما حذف المفرد فعلى ثلاثة أضرب, اسم وفعل وحرف "(٤١٩).

ثالثًا: حذف جزء من الجملة "الاسم مثالًا"

ونسوق أمثلة على حذف الاسم النحو التالي:

المثال الأول: مثال حذف المبتدأ

فمن حذف الاسم، حذف المبتدأ في مثل قوله تعالى (كأنهم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) (الأنفال الآية ٣٥), أي ذلك, أو هذا بلاغ وهو كثير(٤٢٠).

المثال الثاني: مثال حذف الخبر

ومن أمثلة حذف الخبر قولهم في جواب: من عندك؟ زيد, أي زيد عندي، و كذا قوله تعالى: (طاعة وقول معروف) (سورة محمد الآية ٢١) أي طاعة و قول معرف أمثل من غيرها. (٤٢١)

المثال الثالث: مثال حذف المفعول

وكذلك نجد حذف المفعول في قوله تعالى: (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل) (القصص الآية ٢٣-٢٤) في الآية الكريمة "حذف مفعول في أربعة مواضع إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان عنهما, وقالتا: لا نسقي غنمنا, فسقى لهما غنمهما... و ما ذلك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي, و من المرأتين ذود, وأنهما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء... فأما ما كان المسقي غنمًا أم إبلًا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه" (٤٢٢).

و يبرر الجرجاني ذلك بأنه:

" **لو قيل:** وجد من حولهما امرأتين تذودان غنمهما؛ جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود, بل من حيث هو ذود غنم, حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود, كما أنك إذا قلت: مالك تمنع أخاك؟ كنت منكرًا المنع, لا من حيث هو منع, بل من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا

٤١٩- الخصائص .ابن جني ت . محمد علي النجار المكتبة العلمية .د ط . د ت .(٢/٣٦٠,٣٦١)

٤٢٠- المصدر نفسه ٢/٣٦٢

٤٢١ - يُنظر: الخصائص ٢/٣٦٢

٤٢٢ - دلائل الإعجاز ١٣١,١٣٢

شبكة الألوكة www.alukah.net

النحو من الروعة والحسن ما وجدت, إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة, وأن الغرض لا يصح إلا عن تركه". (٤٢٣)

و هذه الأغراض الكلامية والأبعاد الدلالية, لا تتعلق بحذف المبتدأ أو الخبر أو المفعول فحسب, بل " ذلك سبيله في كل شيء, فما من اسم أو فعل تجده قد حذف، ثم أصيب به موضعه, وحذف في الحال, ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره, وترى إضماره في النفس أولى وأنسب من النطق به". (٤٢٤)

و لذلك يرى علماء البلاغة أن أهمية الحذف تتجلى في كونه يثير الانتباه, ويلفت النظر, و يبعث على التفكير فيما حذف, فتحدث عملية إشراك للمتلقي في الرسالة الموجهة إليه بشرط ألا يؤدي إيجاز الحذف إلى غموض المعنى, إذ به تكون صورة الجملة مؤدية للمقصد البلاغي, وهم لا يختلفون على أنه أكثر بلاغة من الذكر, لأن الذكر سير فيما هو مألوف أما الحذف فهو خروج عن النمط الشائع في التعبير (٤٢٥).

ومن ثمة ندرك أن غرض المتكلم وهو عنصر غير لغوي لا يتحقق إلا في الابقاء على صورة الحذف وذلك مشروط بعلم المخاطب به وهذا لا ينفي دور العنصر اللغوي لأن الحذف محكوم بقيد لغوي نحوي, وإذ لابد من تقدير المحذوف في التعبير لتحقيق الإفادة من الكلام(٤٢٦)

المثال الرابع: حذف الفاعل

ومن نماذج حذف الاسم حذف الفاعل

وعلى هذا ورد قوله تعالى: (كلا إذا بلغت التراقي و قيل من راق)

(القيامة الآية ٢٦-٢٧) و "حذف الفاعل لا يجوز على الإطلاق بل يجوز فيما هذا سبيله وذلك أنه لا يكون إلا فيما دل الكلام عليه, ألا ترى أن التي تبلغ التراقي إنما هي النفس وذلك عند الموت فعلم حينئذ أن النفس هي المرادة, وإن كان الكلام خاليًا عن ذكرها " (٤٢٧)

المثال الخامس: حذف المضاف إليه

كما نجد حذف المضاف إليه وذلك في نحو قوله تعالى (لله الأمر من قبل و من بعد) (الروم من آية: ٤) أي من قبل ذلك ومن بعده (٤٢٨)

٤٢٣- دلائل الإعجاز ص١٣٢

٤٢٤- دلائل الإعجاز ١٢٧-١٢٦

٤٢٥- يُنظر: الأسلوبية . د/ فتح الله أحمد سليمان مكتبة الآداب القاهرة دط دت ص ١٤٠

٤٢٦- يُنظر: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة .د. سعيد حسن بحيري .مكتبة زهراء الشرق . القاهرة . دط. دت . ص ١٢٨,١٢٧

٤٢٧- المثل السائر . ابن الأثير. ت كامل محمد محمد عويضة .دار الكتب العلمية. لبنان.ط١. ١٩٩٨,٢/ ٧٢

٤٢٨- يُنظر: خصائص ٣٦٣/٢

شبكة الألوكة www.alukah.net

المثال السادس: حذف المضاف

و قد يحذف المضاف و ذلك كثير واسع ومنه قوله عز اسمه: (واسأل القرية) (يوسف: ٨٢) أي أهلها [٤٢٩], و السياق الذي وردت فيه الآية يدل على وجود الحذف " ألا ترى أنك لو رأيت "سل القرية " في غير التنزيل لم تقطع بأن هاهنا محذوف, لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت و باد أهلها, فأراد أن يقول لصاحبه واعظًا و مذكرًا أو لنفسه متعظًا معتبرًا: سل القرية عن أهلها و قل لها ما صنعوا "(٤٣٠)

ويُختم هذا المبحث بجواب نفيس لسماحة شيخنا الإمام ابن باز عن سؤال وجه إليه حول المجاز في القرآن، حيث أجاب سماحته بقوله–رحمه الله–:

الصحيح الذي عليه المحققون أنه ليس في القرآن مجاز على الحد الذي يعرفه أصحاب فن البلاغة. وكل ما فيه فهو حقيقة في محله، ومعنى قول بعض المفسرين أن هذا الحرف زائد يعني من جهة قواعد الإعراب وليس زائدا من جهة المعنى، بل له معناه المعروف عند المتخاطبين باللغة العربية؛ لأن القرآن الكريم نزل بلغتهم كقوله سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى:١١) يفيد المبالغة في نفي المثل، وهو أبلغ من قولك: (ليس مثله شيء)، وهكذا قوله سبحانه:(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) (يوسف:٨٢) فإن المراد بذلك سكان القرية وأصحاب العير، وعادة العرب تطلق القرية على أهلها والعير على أصحابها، وذلك من سعة اللغة العربية وكثرة تصرفها في الكلام، وليس من باب المجاز المعروف في اصطلاح أهل البلاغة ولكن ذلك من مجاز اللغة أي مما يجوز فيها ولا يمتنع، فهو مصدر ميمي ك "المقام" و "المقال" وهكذا قوله سبحانه: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) (البقرة:٩٣) يعني حبه، وأطلق ذلك لأن هذا اللفظ يفيد المعنى عند أهل اللغة المتخاطبين بها، وهو من باب الإيجاز والاختصار لظهور المعنى. والله ولي التوفيق(٤٣١).

وختامًا:

فإن الإيجاز بالحذف واسع المجال في القرآن، وهذا مما يدلل على موقعه من الإعجاز البياني، وقد ساق الباحث بعض الأمثلة الدالة على كثرة وروده في القرآن، ولم يستقص كل مباحثه خشية الإطالة والسآمة، ولعل في الإشارة ما يغني عن كثير من العبارة. والحمد لله رب العالمين.

٤٢٩– يُنظر: المرجع السابق: ٣٦٢/٢

٤٣٠– أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجاني .ت. محمد الفاضلي .المكتبة العصرية بيروت.ط٣. ٢٠٠١ .ص ٣١٠، يُنظر: الإيجاز بحذف الاسم وشواهده من القرآن الكريم أ . محمد الأمين خويلد، مجلة اللغات والآداب،(ص: ٢٣٠) وما بعدها، صادرة عن: جامعة ورقلة – الجزائر، العدد الرابع، مايو ٢٠٠٥م.

٤٣١– مجلة الدعوة– العدد ١٠١٦. الاثنين ٦ ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ، (مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: ٣٨٢/٤

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الحادي عشر: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالتكرار في القرآن الكريم

أولاً: مفهوم التكرار في اللغة والاصطلاح.

أ- مفهوم التكرار في اللغة

قال ابن منظور:

الكَرُّ: الرجوع، يقال: كَرَّه وكَرَّ بنفسه، يتعدّى ولا يتعدّى، والكَرُّ مصدر كَرَّ عليه يَكُرُّ كرًّا... والكَرُّ: الرجوع على الشيء، ومنه التَّكْرارُ... (قال) الجوهري: كَرَّرْتُ الشيء تَكْرِيرًا وتَكْرارًا (٤٣٢).

ب- مفهوم التكرار في الاصطلاح:

تكرار كلمة أو جملة أكثر من مرة لمعاني متعددة كالتوكيد، والتهويل، والتعظيم، وغيرها، التكرار الإتيان بشيء مرة بعد أخرى. (٤٣٣)

ثانيًا: التكرار الوارد في القرآن يُعد من أساليب الفصاحة.

من خصائص النظم القُرْآني المتعلقة بجانب اللفظ التكرار "الترداد" في ألفاظه ونظمه، وهو مذهب من مذاهب العرب في كلامها كانت تذهب إليه لأغراض شتى، غير أن التكرار في القُرْآن الكريم يباين التكرار في كلام العرب الذي لا يسلم معه الأسلوب من القلق والاضطراب، فيكون هدفًا للطعن والنقد، أما التكرار في القُرْآن الكريم فقد جاء محكمًا سليمًا من المآخذ والعيوب، غير دعاوى المغالين في الطعن فيه. (٤٣٤)

ولقد اعترض بعض من لا يفقه لغة العرب فراح يطعن بالتكرار الوارد في القرآن، وظن هؤلاء أن هذا ليس من أساليب الفصاحة، وهذا من جهلهم، فالتكرار الوارد في القرآن ليس من التكرار المذموم الذي لا قيمة له – كما سيأتي تفصيله– والذي يرد في كلام من لا يحسن اللغة أو لا يحسن التعبير. (٤٣٥)

فالتّكرار من الأساليب المعروفة في اللغة العربية ومن سمات فصاحتها، فهو من معالم لسنها يزيّن الأسلوب. إنّه من المظاهر الشائعة في القرآن الكريم بطريقة مدركة بيانيًا وبلاغيًا. ويمثل جانبًا من جوانب البلاغة القرآنية يرد في الكلام للفائدة. وهذا ما دفع أهل اللغة لأن يولوهن اهتمامًا كبيرًا فأخرجوا قيمته الكبرى تأكيدا لمعنى وتقريره.

٤٣٢-" لسان العرب " (٥ / ١٣٥) مادة: (كر).

٤٣٣- يُنظر: التعاريف: (٢٠١/١)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: (٢٣٦/١).

٤٣٤- التكرار في القرآن الكريم، مسعد أحمد الشايب، موقع الألوكة، بتاريخ:١٤٣٨/١٠/٢٨هـ.

٤٣٥- يُنظر: شرح القصيدة الميمية للآثاري في مدح خير الرسل صلى الله عليه وسلم-(ص: ٣٠٦) وما بعدها، خضر موسى محمد حمود، دار الكتب العلمية / لبنان بتاريخ:٢٠١٨/١/١م، مجلد١، دط. بتصرف يسير.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثالثًا: أسلوب التكرار في نظر كلام أئمة البلاغة وصناع البيان

ومن أبرز هؤلاء الجاحظ الذي بين أهميته فيقول:

"وجملة القول في التّرداد أنّه ليس فيه حدّ ينتمي إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنّما ذلك على قدر المستحقين، ومن يحضره من العوام والخواص، وقد رأينا كيف ردّ (كرر) الله عزّ وجلّ وذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب ولوط وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة لأنّه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غيّ غافل أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب"(٤٣٦).

فبين الجاحظ هنا فائدة جليلة من فوائد التكرار ألا وهي: تنبيه الغافلين.

كذلك ابن قتيبة في دفاعه عن القرآن حيث يقول:

"فأمّا التّكرار، الأنباء والقصص، فإنّ الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجومًا في ثلاث وعشرين سنة بفرض بعد فرض: تيسيرًا منه على العباد، وتدريجًا لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ: تنبيها لهم من سنة غفلة وشحذا لقلوبهم بمتجدِّد الموعظة". (٤٣٧).

وابن قتيبة هنا يؤيد ما ذهب إليه الجاحظ وزاد عله فوائد أًحر كما مر بنا آنفًا.

كذلك الخطابي حيث يقول:

"وأمّا ما عابوه من التكرار، فإنّ تكرار الكلام على ضربين أحدهما مذموم، هو ما كان مستغنى عنه، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستعيدوه بالكلام الأول، لأنّه حينئذ يكون فضلا من القول، وليس في القرآن شيء من هذا"(٤٣٨)

وعدّه ابن رشيق القيرواني الأزدي–(ت: ٤٦٣ هـ)**- من أصول البديع حيث يقول:**

"وللتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقلّ"(٤٣٩).

أمّا الزركشي فنظر إليه على أنّه من علم المشابه:

"وهو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة. ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب؛ ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك: مبتدأ به ومتكرر"(٤٤٠)

أمّا عند النحاة فكتبهم صنّفته ضمن باب التوكيد، وانصبّ اهتمامهم بالحركات الإعرابية التي تحدد المعاني.

٤٣٦– الجاحظ. البيان والتبيين. شرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط٣، ١٩٦٠، ١٠٥٣/١. بتصرف يسير.

٤٣٧– ابن قتيبة. تأويل مشكل القرآن. دار التراث، ط٢، ١٣٩٣هـ، القاهرة. ص٢٣٢.

٤٣٨– ثلاث رسائل في الإعجاز. تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ص٥٢

٤٣٩–ابن رشيق. العمدة. تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ، ٧٣\٢.

٤٤٠– الزركشي. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت، ١١٢/١.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد أشار إليه ابن جني في باب الاحتياط حيث يقول:

"اعلم أنّ العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له، فمن ذلك التوكيد، هو على ضربين،

أحدهما: تكرير الأول بلفظه: وهو نحو ذلك: (قام زيد) و(ضربت زيدًا وضربت).

والثاني: تكرير الأول بمعناه. وهو على ضربين:

"**أحدهما:** للإحاطة والعموم **والآخر:** للتثبيت والتمكين.

الأول كقولنا: قام القوم كلّهم، ورأيتهم أجمعين.

والثاني: نحو قولك: قام زيد نفسه، ورأيته نفسه"(٤٤١)

أما عند ابن هشام فالتّكرار يراد به غير التأكيد

"وذلك كون التكرار الذي هو من سبيل التذكير ليس تأكيدًا إنّما هو ضرب من ضروب تحقيق تواصل العهد وإنّما حس التكرار لدى في وما كنت لديهم لتباعد ما بينهما"(٤٤٢)

قال السيوطي – رحمه الله– :

"..... التكرير وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة خلافًا لبعض من غلط". (٤٤٣)

رابعًا: أنواع التكرار الوارد في القرآن الكريم

قسَّم العلماء التكرار الوارد في القرآن إلى نوعين:

أحدهما: تكرار اللفظ والمعنى.

وهو ما تكرر فيه اللفظ دون اختلاف في المعنى، وقد جاء على وجهين:

الوجه الأول: موصول

الوجه الثاني: مفصول.

أما الموصول: فقد جاء على وجوه متعددة من أبرزها ما يلي:

الوجه الأول: تكرار كلمات في سياق الآية.

مثل قوله تعالى: (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) (المؤمنون: ٣٦).

الوجه الثاني: تكرار كلمات في آخر الآية وفي أول الآية التي تليها.

مثل قوله تعالى: (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥).. قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)) (الإنسان:١٥- ١٦).

٤٤١-ابن جني. الخصائص. تحقيق علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٠٢/٣-١٠٤.

٤٤٢- ابن هشام. مغني اللبيب، دار المعرفة، بيروت، ١٦٨/١.

٤٤٣- الإتقان في علوم القرآن: (٣ / ٢٨٠)

شبكة الألوكة www.alukah.net

الوجه الثالث: تكرار كلمات في أواخر الآية.

مثل قوله تعالى: (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) (الفجر: ٢١).

الوجه الرابع: تكرر الآية بعد الآية مباشرة، مثل قوله تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (الشرح: ٥ – ٦).

وأما المفصول: فيأتي على صورتين:

الصورة الأولى: تكرار في السورة نفسها.

الصورة الثانية: تكرار في القرآن كله.

ونسوق أمثلة على مثال **الصورة الأولى**: التكرار في السورة نفسها.

المثال الأول:

تكرر قوله تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) في سورة " الشعراء " ٨ مرات.

المثال الثاني:

تكرر قوله تعالى: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) في سورة " المرسلات " ١٠ مرات.

المثال الثالث:

وتكرر قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في سورة " الرحمن " ٣١ مرة.

ونسوق مثالين للصورة الثانية: التكرار في القرآن كله.

المثال الأول:

تكرر قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) ٦ مرات: في " يونس " (٤٨) و "الأنبياء" (٣٨) و " النمل " (٧١) و "سبأ" (٢٩) و " يس " (٤٨) و " الملك " (٢٥).

المثال الثاني:

تكرر قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) مرتين: في " التوبة " (٧٣) و " التحريم " (٩).

الوجه الثاني من أوجه التكرار الوارد في القرآن:التكرار في المعنى دون اللفظ.

وذلك مثل قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذِكر الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها.

خامسًا: فوائد التكرار البلاغية والبيانية في القرآن الكريم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– :

وليس في القرآن تكرار محض، بل لابد من فوائد في كل خطاب (٤٤٤).

٤٤٤– مجموع الفتاوى: (١٤ / ٤٠٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال–رحمه الله– في موضع آخر– في التعليق على تكرار قصة موسى مع قومه:

وقد ذكر الله هذه القصة في عدة مواضع من القرآن، يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعًا غير النوع الآخر، كما يسمَّى اللهُ ورسولُه وكتابُه بأسماء متعددة، كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر، وليس في هذا تكرار، بل فيه تنويع الآيات مثل أسماء النبي–صلى الله عليه وسلم– إذا قيل: محمد، وأحمد، والحاشر، والعاقب، والمقفى، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، في كل اسم دلالة على معنى ليس في الاسم الآخر، وإن كانت الذات واحدة فالصفات متنوعة.

وكذلك القرآن إذا قيل فيه: قرآن، وفرقان، وبيان، وهدى، وبصائر، وشفاء، ونور، ورحمة، وروح: فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الآخر.

وكذلك أسماء الرب تعالى إذا قيل: الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور: فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الذي في الاسم الآخر، فالذات واحدة، والصفات متعددة، فهذا في الأسماء المفردة.

وكذلك في الجمل التامة، يعبَّر عن القصة بجُمَل تدل على معانٍ فيها، ثم يعبر عنها بجُمَل أخرى تدل على معانٍ أُخَر، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة فصفاتها متعددة، ففي كل جملة من الجُمَل معنًى ليس في الجُمَل الأُخَر. (٤٤٥)

وقال السيوطي– رحمه الله–:

وله– أي: التكرار– فوائد:

منها: التقرير:

وقد قيل: " الكلام إذا تكرَّر تقرَّر "، وقد نبه تعالى على السبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والإنذار في القرآن بقوله: (وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (طه: ١١٣).

ومنها: التأكيد.

ومنها: زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول.

ومنه: (وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) (غافر: ٣٨–٣٩)، فإنه كرر فيه النداء لذلك.

ومنها: إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانيها تطرية له وتجديدًا لعهده

ومنه: قوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) (النحل: ١١٩)، وقوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

٤٤٥– مجموع الفتاوى: (١٩ / ١٦٧ ، ١٦٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) (النحل: ١١٠)، وقوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) إلى قول سبحانه:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) (البقرة من آية: ٨٩)، وقوله تعالى: (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ) (آل عمران من آية: ١٨٨)، وقوله تعالى: (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ). (يوسف من آية: ٤).

ومنها: التعظيم والتهويل نحو (الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ) (الْحَاقَّةُ: ١-٢)، (الْقَارِعَةُ. مَا الْقَارِعَةُ) (الْقَارِعَةُ: ١-٢)، (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ) (الواقعة: ٢٧) ([٤٤٦]).

سادسًا: فوائد تكرار بعض القصص والآيات

قال أبو الفرج ابن الجوزي– رحمه الله–:

فإن قيل: ما الفائدة في تكرار قوله: (فبأيّ آلاء ربّكما تُكذِّبانِ)؟.

الجواب: أن ذلك التكرير لتقرير النِّعم وتأكيد التذكير بها

وقال ابن قتيبة– رحمه الله–:

من مذاهب العرب التكرار للتوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز؛ لأن افتنان المتكلِّم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاره في المقام على فنٍّ واحدٍ، يقول القائل منهم: واللهِ لا أفعله، ثم واللهِ لا أفعله، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع مِنْ أنْ يفعله، كما يقول: واللهِ أفعلُه، بإضمار " لا " إذا أراد الاختصار، ويقول القائل المستعجِل: اعْجَل اعْجَل، وللرامي: ارمِ ارمِ....

يتابع ابن قتيبة فيقول:

فلمّا عَدَّد اللهُ تعالى في هذه السورة نعماءَه، وأذكَرَ عِبَادَه آلاءَه، ونبَّههم على قُدرته، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نِعمتين، ليُفَهِّمهم النِّعم ويُقَرِّرهم بها، كقولك للرجل: أَلَم أُبَوِّئْكَ مَنْزِلاً وكنتَ طريدًا؟ أفتُنْكِرُ هذا؟ ألم أحُجَّ بك وأنت صَرُورَةٌ (هو من لم يحج قط)؟ أفَتُنْكِرُ هذا؟. ([٤٤٧])

وقال القرطبي – رحمه الله–:

وأما وجه التكرار–أي:(قل يا أيها الكافرون) (الكافرون: ١) –فقد قيل إنه للتأكيد في قطع أطماعهم، كما تقول: والله لا أفعل كذا، ثم والله لا أفعله.

٤٤٦– الإتقان في علوم القرآن: (٣ / ٢٨١ ، ٢٨٢).

٤٤٧– زاد المسير: (٥ / ٤٦١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

قال أكثر أهل المعاني:

نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد، قال الله تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) (الرحمن مكررة في آيات أولها: آية: ١٣)، (ويل يومئذ للمكذبين) (المرسلات: مكررة في آيات أولها: آية: ١٥)، (كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون) (النبأ: ٤-٥)، و (فإن مع العسر يسرًا. إن مع العسر يسرًا) (الشرح: ٤-٥): كل هذا على التأكيد(٤٤٨).

وبهذا ينتهي المبحث الأول: "منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالأسلوب وخصائصه في القران الكريم". والحمد لله رب العالمين.

المبحث الثاني: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بجمال الكلمة وخصائصها في القران الكريم وبيان جهات تعلقه

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة أثر وقوعها على السمع

إن للكلمة في القرآن الكريم قيمةً عظمى، وأهمية كبرى؛ وذلك أن الكلمة هي الأصل الذي يدور عليه المعنى، فإذا وضعتَ الكلمة في موضعها الذي ينبغي أن تكون فيه، فقد أصبتَ المعنى كله.

واختيار المفردات في القرآن الكريم من أسرار إعجازه، ومن عجائبه التي لا تنفد؛ لذلك تجد كلَّ كلمة في القرآن لا يصلح غيرها في مكانها، ولو أُدير لسان العرب على كلمة غيرها لتؤدي معناها في مكانها، لم يوجد؛ لأن معناها في هذا الموضع الذي وضعت فيه أمر يقتضيه السياق والحال. (٤٤٩)

وإن للكلمة القرآنية مزية لا تجدها في الكلمات التي يتكون منها كلام الناس وتعابيرهم مهما سمت في مدارج البلاغة والبيان.

فهي أولًا: تتناول من المعنى سطحه وأعماقه وسائر صوره وخصائصه.

ولا تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية التي تعاني من العجز الذي أوضحناه.

وهي ثانيًا: تمتاز عن سائر مرادفاتها اللغوية بتطابق أتم مع المعنى المراد.

فمهما استبدلت بها غيرها، لم يسدّ مسدّها ولم يغن غناءها، ولم يؤد الصورة التي تؤديها (٤٥٠).

٤٤٨-تفسير القرطبي: (٢٠ / ٢٢٦).، ويُنظر: شرح القصيدة الميمية للآثاري في مدح خير الرسل صلى الله عليه وسلم-(ص: ٣٠٦-٣٠٨)، خضر موسى محمد حمود، دار الكتب العلمية / لبنان بتاريخ:١/١/٢٠١٨م، مجلد١، دط. بتصرف يسير..

٤٤٩- يُنظر: من أسرار الكلمات في القرآن الكريم، د. طارق السيد طبل، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٠/٧/١٤هـ.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد ورد ذكر السمع في القرآن الكريم بكثرة، حتى تقدم ذكره في مواطن شتى من آيات القرآن على الحواس كلها. فعلى سبيل المثال لا الحصر أن ذكر حاستي السمع والبصر ذكرتا مجتمعتين في قرابة ثلاثَ عشرة مرَّة، وقد أُفرِدَ فيها السمعُ، وجُمِعَ فيها البصرُ، وقد تقدم ذكر السمع فيها جميعًا، وتأخر عنه ذكر البصر، ومن أمثلة ذلك في كتاب الله قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨)، وقوله :﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأحقاف: ٢٦).

والسمع إذ يذكر بلفظ المفرد في القرآن، ويضم إليه البصر مقترنًا به بلفظ الجمع فإن ذلك يعني والله أعلم أنَّه لن تكون حاستَي السمع والبصر سواء في مبلغ كلٍّ من عدد المدركات، فالسمع لا يُدْرِك إلا الصوت فحسب، وأما البصر فيدرك كل ما يراه من المرئيات، وكأنه مجموعة حواس مجتمعة في حاسَّة واحدة.

من أوجه الإعجاز البياني في حاسة السمع في القرآن الكريم اتساع معانيها:

إن كلمة السمع في القرآن تتضمَّن مدًى واسعًا من المعاني من أبرزها يلي:

المعنى الأول: الإحساس المجرد بالصوت بلا فَهمٍ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١).

المعنى الثاني: الإحساس بالصوت مع الفَهم؛ كما في قوله جل وعلا: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٧٥).

المعنى الثالث: الإحساس بالصوت مع الفهم، بالإضافة إلى الاقتناع والإيمان والطاعة: ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾]الأنعام: ٣٦).

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (الروم: ٥٣). ([٤٥١])

فإذا تبين لنا مكانة الكلمة القرآنية وبلاغتها وفصاحتها وما تحمله في جنباتها من معان، ثم تبين مكانة السمع الذي يتلقَّاها وهي في أوج جمالها ورونقها وبلاغتها وبديع نظمها، وجدناها تقع من السمع بمكان، كما نرى المطر إذا نزل على الأرض فإنها تتلقَّاه مبتهجة بهطوله فتنبت من الزروع والثمار والأزهار من كل زوج بهيج.

٤٥٠- إنما يتجلى الإعجاز في الكلمة القرآنية، عند ما تكون مستقرة في مكانها من الجملة القرآنية فلا ينطبق شيء مما سنقوله في هذا الصدد على الكلمات القرآنية إذا التقطتها خارج منازلها القرآنية كقواميس اللغة أو كلام الناس مثلا. يُنظر: من روائع القرآن، للبوطي: (١٣٩/١).

٤٥١-يُنظر: حاسة السمع بين القرآن الكريم والعلم الحديث (٢)، د. حسني حمدان الدسوقي حمامة، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٥/٨/١هـ. بتصرف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

"فليس في القرآن لفظ ينبو عن السمع، أو يتنافر مع ما قبله أو ما بعده، فالكلمة القرآنية في الذروة من الفصاحة، وهي تحمل المعنى في طياتها، واقرأ إن شئت قوله تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) (النازعات: ٢٧- ٢٩) وتأمل في كلمة (أغطش) كيف أنها تقدم لك المعنى في تلافيف حروفها قبل أن تقدمه في معناها اللغوي المحفوظ، وفي الوقت نفسه هي منسجمة مع ما قبلها وما بعدها من الألفاظ، لا ثقل فيها ولا إغراب، وكذلك بقية ألفاظ الآية، فكلها تقع على السمع موقعًا رائعًا في منتهى الجمال والكمال". (٤٥٢).

فمن أهمِّ مزايا وخصائص المفرَدَة القرآنيَّة جمال وقعها في السمع، واتِّساقها الكامل مع المعنى، واتِّساع دلالتها لما لا تتَّسع له عادةً دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات.

وقد نجد في تعابير بعض الأدباء والبلغاء كلمات تتَّصف ببعض هذه المزايا والخصائص، أمَّا أن تجتمع كلها معًا وبصورة مطَّرِدَة لا تتخلَّف أو تشذُّ فذلك ممَّا لم يتوافر إلاَّ في القرآن الكريم، وإليك هذا المثال القرآني الذي يوضح هذه الظاهرة ويجليها: يقول تعالى في وصف كلٍّ من الليل والصبح: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} [التكوير: ١٧- ١٨]، ففي هاتين الكلمتين: "عَسْعَسَ"، و" تَنَفَّسَ" تشعر أنهما تبعثان في ذهنك معانى محسوسَة دون حاجة للرجوع إلى قواميس اللغة؟! وهل في مقدورك أنْ تُصَوِّر إقبال الليل وتمدُّده في الآفاق المترامية بكلمة أدقَّ وأدلَّ من "عَسْعَسَ"؟! وهل تستطيع أن تُصَوِّر انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من "تَنَفَّسَ"(٤٥٣)؟!

المطلب الثاني: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة دقة التعبير، وبلاغة التركيب، وبراعة النَّظم في اختيارها واختيار موضعها

يُعدُ اختيار الكلمة وموضعها في القرآن، اختيارًا بديعًا في بلاغته وتناسقه وتلاحمه وترابطه، بحيث لا يصلح أن يوضع مكانها غيرها، وإلا اختل المعنى، وهي مع ذلك كله، تراها مصحوبَة بدقة التعبير، وبلاغة التركيب، وبراعة النَّظم.

ونسوق أمثلة من آيات الكتاب العزيز تبين مدى دقة التعبير وسلامة وبراعة

النَّظم القرآني في اختيار الكلمة، وقوة الإعجاز البلاغي في تركيبها وبراعة نظمها والدقة المتناهية في اختيارها واختيار موضعها.

٤٥٢-الواضح في علوم القرآن: (ص: ١٦٦)، مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو.

٤٥٣- البيان في روائع القرآن، تمام حسان: (ص: ٢٨) -وما بعدها، ويُنظر: علوم القرآن ومناهج المفسرين: (ص: ١٥٥)، د. محمد قاسم الشوم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولعظم هذا الأمر نسوق له تسعة أمثلة:

المثال الأول:

تأمل في خبر إخوة يوسف – عليه السلام– في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾(يوسف: ١٧).

فاستُعمِلَ لفظُ: (أكله) الشائع الاستعمال، دون (افترسه) الفصيح المختار، والذي هو مِن فعل السَّبُع ونحوه، وما ذلك إلا أنَّ الافتراس لا يؤدي تمام المعنى؛ لأن معناه القتل فحسب، والقوم إنما أرادوا أن الذئب أتى عليه كله، ولم يترك منه شيئًا، لا لحمًا، ولا عظمًا، ولو قالوا: (افترسه الذئب)، لطالبهم أبوهم ببقية منه، تشهد بصحة دعواهم؛ ولهذا لم يصلح في هذا الموضع إلا أن يعبّروا عنه بلفظ (الأكل)، وهو شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع.

المثال الثاني:

تأمل في خبر إحدى المرأتين اللتين سَقى لهما موسى – عليه السلام –في قوله تعالى: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ (القصص: ٢٥)، فوردت (تمشي) دون (تسعى) التي هي أفصح وأخص؛ وذلك أن كلمة (تمشي) يبيّن بها ما ينبغي أن تكون عليه المرأة من وقار وسكينة في مشيتها، دون عجل يثير الغرائز، ويوقظ الفتن، ولفظة (تمشي) هي الأقرب لهذا المعنى؛ لأنها تدل على أنها أتتْ على العادة المعهودة للمرأة من السكينة وحسن الأدب، بخلاف (تسعى) التي تدل على السرعة والعجلة، فإنك تقول: مشيت إلى فلان، إذا لم تكن على عجلة من أمرك، بخلاف سعيت إليه.

وإذا تأملنا السعي بين العلمين الأخضرين بين الصفا والمروة في نسك الحج والعمرة، وأنه يكون للرجال دون النساء، يتضح لنا المعنى السابق بصورة أكثر وضوحًا وجلاءً.

المثال الثالث:

وتأمل في خبر موسى – عليه السلام – لما أراد الخروج من مصر، بعد انتشار خبر قتله للرجل القبطي بالخطأ؛ في قوله سبحانه وتعالى :– ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ (القصص: ٢١)، فاستُعمِلَ الاسمُ مع الخوف، والفعلُ مع الترقب، ولم يقل: يخاف يترقب، أو خائفًا مترقبًا؛ وذلك لأن المعنى لا يستقيم مع حال موسى– عليه السلام، إلا بما ورد في القرآن الكريم؛ لأن التعبير بالاسم (خائفًا) يدل على الدوام والثبوت، والخوف إنما كان ملازمًا لموسى لا ينفك عنه، وهو خوف جبلي فطري، أما الترقب (يترقب)، فإنه يقع مرة بعد مرة، كلما مشى في طريقه؛ ولذلك عبَّر بالفعل المضارع (يترقب)، الذي يدل على التجدُّد والحدوث.

المثال الرابع:

تأمل في قوله – تعالى :– ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ (ص: ٦)، فقد زعموا أن المشي في هذا ليس بأبلغ الكلام، ولو قيل بدل ذلك: أن امضوا، أو انطلقوا، لكان أبلغ وأحسن، ولو تأملنا حال

شبكة الألوكة www.alukah.net

القوم، وسياق الآية، لوجدنا الأمر على خلاف ما زعموا؛ بل المشي في هذا المحل أولى، وأشبه بالمعنى؛ وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية، ولزوم السجية المعهودة، من غير انزعاج منهم والانتقال عن الأمر الأول (٤٥٤).

والمشي هو الملائم لهذا المعنى، وكأنهم قالوا: امشوا على هيئتكم المعهودة، ولا تبالوا بهذا الأمر، ولا تعيروه اهتمامًا منكم، وفي قوله: امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج، ليس في قوله: امشوا.

المثال الخامس:

تأمل اختيار لفظ (آنست) على (أبصرت) في خبر خطاب موسى- عليه السلام- لأهله في قول- سبحانه :- ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ) (طه من آية: ١٠) وقد تظن أن الموقف يستدعي أو يطلب (أبصرت) دون (آنست)، وليس الأمر على ما ترى؛ لأن حال موسى- عليه السلام- من الخوف الذي وصفه الله بقوله: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ) (القصص: من آية: ٢١)، وما قد يلاقيه من وعورة ومخاطر في سفره - أدعى إلى الإيناس والطمأنينة، وهو ما يقوم به لفظ (آنست)؛ فإنه ليس مجرد الإبصار فحسب؛ ولكن يزيد عليه بالطمأنينة المؤنسة، (وآنست) تدل على الاطمئنان والأنس معًا.

وتأمل منهج ورود الفعلين (فعل - عمل)، في القرآن الكريم مع أنهما شديدا التقارب، تجد أنهما يردا في القرآن ورودًا عجيبًا ويُستعملا استعمالًا بديعًا.

فـ(عمل) في القرآن تأتي لما يمتد زمانه، وذلك لأنها تحتاج إلى تفكُّر وتعمل، ومقارنة بين الفعل والترك، وتقلب النظر في الصورة، واختيار ما يهدي إليه النظر فيها. (٤٥٥).

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

المثال السادس:

الوارد في قوله - تعالى :- ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ (غافر: ٤٠)، وقوله - سبحانه :- ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ (آل عمران: ٣٠)، وقوله - عز وجل :- ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ (الكهف: ٤٩).

أما مادة (فَعَل)، فإنها تكون لما يقع دفعة واحدة، ولا يحتاج إلى إعمال فكر؛ ولهذا أسندت إلى الله - عز وجل - في كثير من استعمالاتها في القرآن، خذ مثلًا قوله — تعالى :- ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ (إبراهيم: ٤٥)، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (آل عمران: ٤٠).

٤٥٤- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم:، (ص: ٤٣)، ط/ دار المعارف.

٤٥٥- دراسات جديدة في إعجاز القرآن الكريم: ، د/ عبدالعظيم إبراهيم المطعني ، ص ١٣١، ط/ مكتبة وهبة بالقاهرة. بتصرف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المثال السابع:

تأمل – رحمك الله – في ورود الحديث عن (المطر والغيث) في القرآن، تجد تحديدًا دقيقًا لاستعمال الألفاظ، لا يوجد في غيره.

فقد ورد فرَّق الاستعمال بينهما في القرآن؛ ف لفظ (الغيث) لا يذكر في القرآن إلا في مواطن الرحمة والنعمة، ويأتي مقرونًا بالخير الوفير، خذ مثالًا قوله – تعالى :- ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ (لقمان: ٣٤)، وقوله- تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ (الشورى: ٢٨)، وقوله- تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ (يوسف: ٤٩).

على حين لا يذكر لفظ (المطر) ومشتقاته في القرآن العظيم، إلا في مقام العذاب والعقاب؛ قال – سبحانه :- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٤)، وقال – تعالى :- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾ (هود: ٨٢)، وقوله – عز اسمه :- ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٧٣).

المثال الثامن:

تأمل في القرآن العظيم الفرق بين (الريح والرياح)؛ فالريح في الغالب تأتي في مواطن العذاب والعقاب، بينما (الرياح) على العكس من ذلك، فإنها تأتي في مواطن الخير والنماء؛ وذلك أن الريح تأتي من جهة واحدة؛ فتكون مدمرة، أما الرياح فتأتي من جهات عدة؛ مما يُحدِث التوازن والاستقرار.

خذ مثلًا قوله – تعالى :- ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (الذاريات: ٤١)، ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٦).

وفي الرياح قال – سبحانه :- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (الأعراف: ٥٧)، ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (الحجر: ٢٢).

المثال التاسع:

كذلك ورد في القرآن الفرق بين الفعلين (أفوض – وأتوكل)، فنجد الفعل أفوض يأتي حيث لا تنفع الأسباب، ولا تُجدي الحيلة؛ قال – تعالى :- ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (غافر: ٤٤)، بينما الفعل (أتوكل) يأتي مع وجود الأسباب ورجاء نفعها؛ قال – سبحانه :- ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣)، ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (النساء: ٨١).

كذلك فرق في القرآن الاستعمال بين الجسد والجسم؛ فالأول يكون للميت، والثاني للحي، وفرق بين (السَّنة والعام)؛ فالأول للسنة الشمسية، والثاني للسنة القمرية، وبين (القَسَم والحلف)؛ فالقسم يكون لمطلق اليمين، بينما

شبكة الألوكة www.alukah.net

الحلف يكون للحنث في اليمين، وبين (جاء وأتى)؛ فالمجيء يكون من مكان أو زمان قريب، بينما الإتيان يكون في حال المكان والزمان البعيد.

كما استعمل بعض الكلمات مفردة، وإذا جمعها جاء لها بجمع من غير جنسها؛ كالصراط مفرد، وإذا جمع قيل: سُبل، والنهار مفرد، وإذا جُمع قيل: أيام، واستعمل النور مفردًا في القرآن كله؛ لأنه واحد لا تعدد فيه؛ إذ المراد به الهدى، بينما استعمل الظلمات جمع؛ لأنها متعددة؛ إذ المراد بها الضلال، وطرق الضلال شتى. (٤٥٦)

وهكذا نجد استعمالًا فريدًا للمفردات في القرآن، وتحديدًا دقيقًا، ولا عجب؛ فهو:

"لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليه مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نَظمهم ونَثرهم"(٤٥٧)

فسبحان من لكلامه الكمال والجمال والجلال والإعجاز من كل وجه.

المطلب الثالث: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة روعتها وتميز انتقائها

إن روعة اللفظ القُرْآني في نفسه تتجلى حين تراه متأنقًا متألقًا من جهة اختياره، ومن جهة وضعه في الموضع اللائق والمناسب بحيث يؤدي فيه المعنى المطلوب على أكمل وجهة وبدقة متناهية بحيث لا يصلح غيره في موضعه.

وفي هذا الصدد يقول ابن عطية الأندلسي: (ت: ٥٤٢هـ)

كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام. (٤٥٨)

وتحقيقًا لانتقاء الألفاظ وعذوبتها في القُرْآن واتساقها مع المعنى، فإنك ترى تهذيب ما قد يعاب من الألفاظ إذا دعا داعٍ بلاغي لوروده(اللفظ) فيه؛ ولهذا ترى في القُرْآن كلمات وألفاظًا يشهد الذوق بحسنها؛ لأنها هذبت ووضعت وضعًا محكمًا، بينما قد تراها في غير القُرْآن معيبة شاذة.

٤٥٦- يُنظر: من أسرار الكلمات في القرآن الكريم، د. طارق السيد طبل، (مرجع سابق) موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٠/٧/١٤هـ. بتصرف يسير.

٤٥٧ -المفردات، للراغب الأصفهاني: (ص: ١٠١٠.

٤٥٨- المحرر الوجيز: (١/ ٥٢).

شبكة الألوكة www.alukah.net

ونسوق لذلك مثالين:

المثال الأول:

نتأمل في كلمة (ضيزى) التي هي بمعنى (جائرة)، وهي من أغرب ما في اللغة من الكلمات، وقد تكون شبه معدومة الاستعمال عند العرب، وبالرغم من ذلك فقد استعملت في القُرْآن الكريم، ووُجد لها حُسن في القُرْآن أضعاف ما لها من الغرابة في غيره. ([٤٥٩])

و كلمة" ضِيزى" وردت في القرآن مرة واحدة في قوله – تعالى :- ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (النجم: ٢٢)، ولم يقل: "جائرة"، ولقد عدَّها ابن الأثير – "ضيزى" – من الألفاظ الغريبة([٤٦٠]) التي حسُنتْ بحُسْن موقعها، ثم علَّل ذلك بأنها جاءتْ على الحرف المسجوع الذي جاءتِ السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسدُّ مسدَّها، وقد يكون هناك لفظةٌ آلف منها، مثل جائرة أو ظالمة، ولكنَّها في هذا الموضع لا تَرِد ملائمةً لأخواتها ولا مناسبة؛ لأنَّها تكون خارجةً عن حرْف السورة، فلو قلنا: "ألكم الذَّكَر وله الأنثى تلك إذًا قسمة ظالمة"، لم يكن النظم كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيءِ المعْوَز الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على مَن له ذوق، ومعرفة بنظم الكلام ." ([٤٦١])

وحول كلمة "ضيزى" واتساقها مع المعنى الذي سيقت له يقول الرَّافعي:

"وفي القرآن لفظةٌ هي أغربُ ما فيه، وما حَسُنتْ في كلام قط إلا في موضعها، وهى كلمة "ضيزى"، ومع ذلك فإنَّ حسنها في نظم الكلام من أغربِ الحُسْن وأعجبه، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا المَوْضع غيرُها([٤٦٢])، فإنَّ السورة التي هي منها – وهى سورة النجم – مفصلة كلُّها على حرف (الياء)، فجاءت الكلمة فاصلةً من الفواصل. ([٤٦٣])

ففي توبيخ أهل الشرك يقول تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (النجم: ٢١، ٢٢)، وحُسن هذه الكلمة في هذه الآية يرجع إلى عدة أمور:

أولًا: مناسبة الفاصلة التي قبلها والالتئام معها؛ فالفاصلة التي قبلها تنتهي بالألف المقصورة (الأنثى)، فلو وضعت كلمة(جائرة) وهي قسيمتها في الدلالة، لفاتت المناسبة وحسن الجوار، وضاع الالتئام والتناسق الصوتي.

ثانيًا: أنها جاءت تعليقًا على سلوك معيب، وهو جعلهم الإناث لله سبحانه وتعالى والذكور لهم، فاختير لهم اللفظ القبيح عندهم والغريب.

٤٥٩- يُنظر: ألفاظ القرآن الكريم، مسعد أحمد الشايب، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٩/٢/١٥ هـ. بتصرف.

٤٦٠- يُنظر: "في غريب القرآن"؛ لابن عزير (ص: ٣١٥)، تحقيق: محمد أديب جمران، دار ابن قتيبة دمشق، ١٩٩٥.

" ٤٦١-المثل السائر" (١/١٧٦-١٧٨).

٤٦٢- يبدو أنَّ الرافعي متأثِّر في ذلك بابن عطية (ت:٥٤٢هـ) في" المحرر الوجيز"، حيث يقول: "لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم توجد"؛ "المحرر الوجيز" (١/٥٧). وقد مر معنا كلام ابن عطية آنفًا.

٤٦٣- يُنظر: استثمار الأسلوب العدولي (١١/ ١١)، د. عيد محمد شبايك، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٣/٣/١١ هـ

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثالثًا: أن الآية الأولى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ (النجم: ٢١) اشتملت على استفهام إنكاري، والآية الثانية : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (النجم: ٢٢) اشتملت خاتمتها على التهكم، وهما معنيان متناسبان، أولهما (الاستفهام الإنكاري) كالمقدمة للثاني (التهكم)، وهذه الكلمة الغريبة (ضيزى) أليق ما تكون دلالة على التهكم(٤٦٤).

المثال الثاني:

لنتأمل بعض شواهد اختيار الألفاظ في القُرْآن وانتقائها: فيما يكني به عما يكون بين الرجل وزوجه من انتقاء ألفاظ غاية في النزاهة والشرف.

فمرة يكني عنه بالإتيان، وذلك في قوله تعالى :﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢٣).

ومرة يكني عنه بالرفث، وذلك في قوله تعالى :﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (البقرة: ١٨٧).

وأخرى يكني عنه بالغشيان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ (الأعراف: ١٨٩).

وأخرى يكني عنه بالقربان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وأخرى يكني عنه باللمس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (النساء: ٤٣).

وأخرى يكني عنه بالمسِّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٧، مريم: ٢٠).

وأخرى يكني عنه بالنكاح، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ (البقرة: ٢٣٠).

وأخرى يكني عنه بالمباشرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (البقرة: ١٨٧).

قلت:وذلك كله في جانب الحلال، أما في جانب الحرام فقد شاع كلمة الزنا، وقد تستعمل كلمات أخرى في الدلالة على هذا المعنى تنفيرًا وترهيبًا، مثل: الفاحشة في سورة النساء آية (١٥)، الإفك في سورة النور آية (١١، ١٢)البهتان، البِغاء في السورة نفسها آية (١٦،٣٣)، السوء، السفاح في سورة النساء آية (٢٤، ٢٥). (٤٦٥)

٤٦٤- يُنظر: "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" (ص: ٢٦١)، "خصائص التعبير القرآني" (١/ ٢٤٨، ٢٤٩).

٤٦٥- يُنظر: ألفاظ القرآن الكريم، مسعد أحمد الشايب، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٩/٢/١٥ هـ. بتصرف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الرابع: تعلّقه بجمال الكلمة من جهة اتساقها مع المعنى

إن الإعجاز البياني المتعلّق باتساق الكلمة مع المعنى يتبين من اختيار اللفظ المناسب بحيث يُوضع في المكان المناسب الذي يُؤَدي فيه معناه بدقة متناهية مع وجود الاتساق بين الكلمة التي لا يصلح فيه سواها؛ وبين المعنى المؤَدى، وكأنهما سيقا لأداء بلاغة متناهية في الاتساق والترابط بين الكلمة والمعنى، ولذا لا تجد تنافرًا بين كلمة ومعناها ولا جفاء بين لفظة ومدلولاتها في القرآن الكريم أبدًا.

فالكلمة في القرآن يُستخدم أدقها دلالة وأداءً، وأتمها فصاحة وبيانًا، وأدقها وأكثرها إيضاحًا للمعنى بالنسبة إلى نظائرها، فإذا استنفدت اللغة طاقتها ولا تزال بقية من المعنى غير متداعية وراء حجب البلاغة، تجد الكلمة القُرْآنية قد اتسعت لها وشملتها عن طريق ما تتسم به من دقة البلاغة وبديع البيان.

ونسوق لذلك أربعة أمثلة:

المثال الأول: في سورة النازعات

لنتأمل كلمة (أغطش) في قوله تعالى :﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ (النازعات: ٢٩) متقاربة من حيث الدلالة اللغوية مع كلمة (أظلم)، ولكن (أغطش) تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة يستقل بها جمال الأحرف المتآلفة التي تكونت منها؛ فالكلمة بهذه الدلالة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت رغم الركود، وتجلت في أنحائه مظاهر الوحشة، وهذا إحساس ينبعث في النفس من طبيعة الكلمة ووقع حروفها(٤٦٦).

المثال الثاني: في سورة هود:

لنتأمل قول الله تعالى :﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ (هود: ٤٤)؛ فقد آثر التعبير بلفظ (استوت) على غيره، فلم يقل :(رست(أو)استقرت)؛ لأن الاستواء يدل على معنى لا يدل عليه واحد من نظيريه المذكورين.

فالاستواء يدل على الاستقرار والرسو المطمئن مع اعتدال الوضع.

أما الرسو ذو الاستقرار فقد يكون على غير وضع الاعتدال والاطمئنان؛ كأن ترسو السفينة أو تستقر وهي منكسة مثلًا، أو مائلة، والاستقرار المعتدل الوضع هو المعنى المطلوب في جانب نجاة المؤمنين من الهلاك وسلامتهم من الطوفان، ونفي التنكس مطلوب في مكان عم الطوفان فيه وجه الأرض، وغمر الماء النازل من السماء كل سهل ووعر.

فاختير التعبير القُرْآني بكلمة (استوت(بدلًا من)رست(أو)استقرت)؛ لئلا يقع في الظن أن تكون السفينة قد تعرضت لشيء من الأخطار، خاصة وأن الله تعالى قال ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢)، فهذا أنسب لمقتضى الحال، حتى يعلم المخاطبون عناية الله بعباده المؤمنين(٤٦٧).

---

٤٦٦ – يُنظر: "كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم" د. محمد محمد داود، دار المنار القاهرة، (ص: ٢٠٤ – ٢٠٦).

٤٦٧ – "خصائص التعبير القرآني" (١/ ٢٦١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

المثال الثالث: في سورة يوسف

ولنتأمل كذلك في قوله تعالى :﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (يوسف: ١٧)، قد يقول قائل: لم عبر بالأكل وهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع، وكان من الأنسب أن يعبر بلفظ (الافتراس) وهو الأفصح المختار مع السباع؟ والجواب: أن الافتراس هو القتل وحسب، مأخوذ من (الفرس) الذي هو دق العنق، وإخوة يوسف ادعوا على الذئب أنه أكله أكلًا، وأتى على جميع أعضائه وأجزائه فلم يترك فيه مفصلًا ولا عظمًا؛ خوفًا من أن يطالبهم أبوهم بأثر باقٍ منه يشهد بصحة دعواهم، فعبروا بالأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة بأثر من جسد يوسف، ولو عبروا عنه بالافتراس لما أدى هذا المعنى، على أن استعمال لفظ الأكل مع الذئب وغيره من السباع ذائع ومشهور(٤٦٨).

المثال الرابع: في سورة الهمزة

ولنتأمل كلمة" الحُطمَة "في قوله – تعالى :- ﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ (الهمزة: ٤)، ولم يقل: "جهنم"، أو "النار. بداية يجب أن نفهم معنى" النبذ"، وهو إلقاء الشيء وطَرْحه؛ لقلَّة الاعتداد به، ولذلك يقال" :نبذتُه نبذَ النعل الخَلَق"(٤٦٩)، ولك أن تتصوَّر ما في هذا التعبير من إيحاء بكلِّ معاني الحقارة والذلَّة والهوان، هذا فضلاً عن توكيد الفعْل توكيدًا واجبًا باللام والنون.

و" الحُطمة " هي اسم من أسماء النار، كما ذُكِر من أسمائها في مواضع أخرى" جهنم"، و"سقر"، و"لظى"... وهي من شأنها أن تَحْطِم العظام، وتأكل اللحم (وفي ذلك إشارة إلى غاية تعذيب الهُمَزة اللُّمَزة)، ويقال للرجل الأكول: "حطمة"، ووزنها فُعَلة كهُمَزة ولُمَزة... كأنه قيل له: كنت همزة لمزة، فقابلناك بالحُطمة، وأيضًا في الحطمة معنى الكسْر والتحطيم، والهمَّاز اللمَّاز يُكسِّر أخلاق الناس بالاغتياب، ويحطم أعراضَهم بالعيب، أو يأكل لحومَهم كما يأكل الرَّجل الأكول(٤٧٠)، كما أنَّ سُهولة الحركات في (الهمزة واللمزة والحطمة) توحي بسُهولة ذلك عليه، فهو يأتيه كثيرًا ولا يُبالي، كالأكول الشَّرِه الذي يأكل دون مراعاة الآخرين.

وفي القرآن غنية عن تأويلٍ بما تولَّى من بيان الحطمة في الآيات بعدَها، وتبدأ بالسؤال ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ (الهمزة: ٥)؟، ويأتي الجواب ببيان مناط الرَّهْبة والهول في قوله – تعالى :- ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ (الهمزة: ٦ – ٧)، وباستقراء الاستعمال القرآني للنار نلحظ غلبةَ مجيئها لنار الجحيم في الآخرة

٤٦٨- يُنظر: "بيان إعجاز القرآن" للخطابي (ص: ٤١، ٣٨). ويُنظر: ألفاظ القرآن الكريم، مسعد أحمد الشايب، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٩/٢/١٥ هـ. بتصرف .

" ٤٦٩-مفردات الراغب" (ص: ٤٨٠).

٤٧٠- " تفسير النيسابوري" – على هامش الطبري – (١٦٢/٣٠، ١٦٣) (بتصرف)، ويُنظر: "غريب القرآن"؛ لابن عزير (ص: ٢٠١).

شبكة الألوكة www.alukah.net

(٤٧١)، ومع كَثْرة هذا الاستعمال لم تأتِ مضافةً إلى الله – تعالى – إلا في "الهمزة"، في قوله: (نار الله) فشهد ذلك بفداحة النُّكرِ لفِتنة المال... ."(٤٧٢)

فلنتأمل الإعجاز البياني المتعلِّق باتساق الكلمة مع المعنى هنا في سورة الهمزة في انتقاء كلمة" الحطمة "دون غيرها كالنار والجحيم وسقر ولظى إلخ.....، يتحقق لنا ويتبين أوجه الاتساق بين كلمة" الحطمة " وبين المعنى المقصود تحققه من إيقاع نوعي العذاب البدني والنفسي الذي فيه نوع مهانة ومذلة واحتقار لأهل الهمز واللمز (جزاء وفاقًا) (النبأ: ٢٦).

المطلب الخامس: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة أثرها الدلالي والبياني في النظم القُرْآني ومضمونه

إن للكلمة القُرْآنية أثر بالغ في بيان ما تحويه من معانٍ بالغة الدلالة على المضمون،

ونسوق على ذلك مثالين من القرآن الكريم:

المثال الأول:

لنتأمل على سبيل المثال إلى كلمة:﴿ وَأَلْقَيْتُ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (طه: ٣٨، ٣٩)، من المعروف أن فرعون كان قد أمر بقتل الذكور من بني إسرائيل عند ولادتهم، ولكن الله عز وجل بقدرته ورحمته كتب لموسى–عليه السلام– النجاة لحكم عظيمة جليلة، والتي من أبينها تهيئته للقيام بأعباء ومهام الرسالة، وقدر بحكمته سبحانه نشأته في قصر فرعون نفسه، وقد ألقى عليه محبة منه سبحانه.

فحببه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبنَّته وغذّته وربَّته، و إلى فرعون، حتى كفّ عنه عاديته وشرّه. (٤٧٣)

فالله عز وجل قد أودع في موسى–عليه السلام– جاذبية لا تقاوم، تلك الجاذبية التي تقطع جذور الكراهية لتحل محلها أواصر المحبة نراها مودعة في قوله تعالى :﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ (طه: ٣٩)، وجاءت كلمة (ألقيت) لتبين وتوضح لنا أن أسباب المحبة قد طرحت على موسى–عليه السلام– طرحًا حتى شملته وغطته وتمكنت منه تمكنًا لاصقًا لا فرار ولا فكاك منه، كما أن هذه الكلمة (ألقيت) أظهرت لنا تلك المحبة بصورة حسية، وأنها أصبحت ملموسة ظاهرة في مواجهة الناظر إلى موسى–عليه السلام–، فلا يملك إلا أن ينجذب نحوه، ويتعلق به، لا يملك من ذلك فكاكًا ولا ابتعادًا، ومن ثم يبعد عنه من يحاول الاقتراب منه أو مسَّه بسوء، وهذا تمامًا هو ما

٤٧١– وردت نحو مائة وعشرين مرة في مقابل خمس وعشرين مرة للنار في الدنيا حقيقة أو مجازًا.

٤٧٢– "التفسير البياني" (٢/١٧٥-١٧٧) (بتصرف).، ويُنظر: استثمار الأسلوب العدولي (١١/ ١١)، د. عيد محمد شبايك، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٣/٣/١١ هـ.

٤٧٣– ينظر تفسير الطبري: (١٨/٣٠٣)

شبكة الألوكة www.alukah.net

حدث مع امرأة فرعون حينما رأت موسى-عليه السلام-، فلم تملِك إلا أن قالت كما ذكر الله من خبرها: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (القصص: ٩)؛ فالدلالة البيانية لكلمة (ألقيت) تبدو واضحة جلية، حينما نراها قد حولت الشيء المعنوي - وهو المحبة - إلى شيء حسي ثقيل يلقى ويطرح على موسى، ثم كان وراء ذلك ما كان من التماس المرضعات لموسى حنوًّا عليه وعطفًا وحفظًا لحياته.

المثال الثاني:

لنتأمل في كلمتي (قيعة) و(الظمآن) في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (النور: ٣٩)، من المعروف أن ظاهرة السراب الخادع يراها الظمآن وغيره، ومن المعروف أيضًا أنها ترى في المكان المنخفض عما حوله (القيعة) والمستوي من سطح الأرض، فلماذا أوثر التعبير بكلمتي (قيعة) و(الظمآن)؟

قلت: إن الظمآن فقط هو الذي يعنيه البحث عن الماء، وهو الذي يلتفت إليه إذا رآه، وهو الذي يتقدم إليه في لهف وشوق ليروي غلته ويطفئ نار ظمئه، وكل ذلك في عَدْوٍ لاهث من أجل الحفاظ على حياته، وهذا هو السر في اختيار التعبير به، حيث نفهم من خلاله الأمل الجارف للكافرين يوم القيامة في أن تنقذهم أعمالهم من هول هذا اليوم، وأن تحفظهم من حرق النار، كما أنه يصور لنا أنهم يتلهفون لرؤية أعمالهم بين أيديهم شافعة لهم، وحائلة بينهم وبين العذاب الأليم، كما يتلهف الظمآن لرؤية الماء لينقذه من عذاب الظمأ.

أما السر في اختيار كلمة (قيعة) فلأن ظهور السراب فيها يكون أبعد من الشك في حقيقة كون ما يرى ماءً حقيقيًّا لا سرابًا؛ وذلك لأن اتساع القيعة يجعل انبساطها أشبه ببحيرة من الماء المتحرك الموج، وهو أمر يدفع الظمآن إلى زيادة الأمل لديه في إنقاذه مما به من عطش يكاد يهلكه، وهذا يعطينا تصورًا لحجم الأمل الذي يملأ نفوس الكافرين يوم القيامة ومدى تصورهم لصحة أعمالهم، ثم إذا بهم يتبينون أنهم كانوا يجرون وراء سراب خادع خلاب، كما هو الحال بالنسبة للظمآن الذي لم يشك لحظة في قرب الارتواء من الماء، ثم إذا به يجد الأرض جدباء جرداء خالية من وجود أي ماء. (٤٧٤)

٤٧٤- يُنظر: ألفاظ القرآن الكريم، مسعد أحمد الشايب، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٩/٢/١٥ هـ. بتصرف.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب السادس: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة اتساع دلالتها لما لا تتسع له دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات عادة

وذلك حيث يرد التعبير في القرآن الكريم بكلمة واحدة عن معنى لا يستطاع التعبير عنه إلا ببضع كلمات أو جمل في غيره.

ومثالًا على ذلك:

نتأمل قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ) (الواقعة:٧١-٧٢). أراد الله تعالى أن يحدثنا في هذه الآية عن مظاهر نعمته علينا، ومن جملتها النار، فنبهنا إلى مختلف فوائدها لحياتنا على اختلاف أطوارها، فجاء التعبير عن ذلك بكلمة (المقوين) التي تحمل كل المعاني التي يمكن أن يعبر بها عن فوائد النار، فهي: جمع مقو، وهو المسافر، والجائع، والمستمتع، والنار إنما يستفيد منها المسافر، كما يحتاجها الجائع لتحضير طعامه، وهي إلى جانب ذلك كله من أسباب المتعة والرفاهية. وهذه الميزات الثلاث قلما يتخلف اجتماعها في كلمات القرآن، بينما لا تجتمع في غيره إلا نادرًا، وما ذاك إلا لأن القرآن كلام رب العالمين. (٤٧٥)

وختامًا:

فهذه هي أهم وأبرز خصائص الإعجاز البياني المتعلِّق بجمال وخصائص الكلمة في القران الكريم:

١- من جهة أثر وقوعها على السمع

٢- ومن جهة دقة التعبير، وبلاغة التركيب، وبراعة النَّظم في اختيارها واختيار موضعها

٣- ومن جهة روعتها وتميز انتقائها

٤- ومن جهة اتساقها مع المعنى

٥- ومن جهة أثرها الدلالي والبياني في النظم القُرْآني ومضمونه

٦- ومن جهة اتساع دلالتها لما لا تتسع له دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات عادة.

فلو قلب أفصحُ الخلقِ لغةَ العربِ وسلك إليها كل مسلك، واستفتح عليها كل باب لتبديل كلمة مكان أخرى لتحل مكانها وتسد مسدها وتقوم مقامها، لأُوصدت في وجهه الأبواب، ولرجع صفر اليدين لأنه يطلب ما عجز عنه أرباب اللسان وصناع البيان، وعجز عن الإتيان بمثله جميع الإنس والجان كما تحداهم بذلك الملك الديان، فقال في محكم آي القرآن: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: ٨٨)

٤٧٥- الواضح في علوم القرآن: (ص: ١٦٦)، مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب مستو.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وهي كما قال ابن عطية الأندلسي– رحمه الله–:(ت: ٥٤٢هـ)

كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام. ([٤٧٦]).

وبهذا ينتهي المبحث الثاني: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بجمال الكلمة وخصائصها في القران الكريم وبيان جهات تعلقه. والحمد لله رب العالمين.

المبحث الثالث: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة وصياغتها

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الجملة في اللغةً والاصطلاح

من الأهمية بمكان بيان معنى ومفهوم الجملة في اللغة والاصطلاح حتى يتضح معناها ويتجلى للقارئ فحواها.

أ– مفهوم الجملة في اللغةً

يقول ابن فارس: (ت ٣٩٥هـ)

"(**جمل**): الجيم والميم واللام أصلان: أحدهما تجمُّع وعِظَمُ الخَلْق، والآخر حُسنٌ، **فالأول قولك**: أجملتُ الشيء، وهذه جُملة الشيء، وأجملتُه حصَّلتُه، وقال الله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (الفرقان: ٣٢)، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمَلُ مِنْ هَذَا، لِعِظَمِ خَلْقِه. وَالْجُمَّلُ: حَبْلٌ غَلِيظٌ، وَهُوَ مِنْ هَذَا أَيْضًا. " ([٤٧٧]).

يتضح مما سبق أن الفعل (جمل) يأتي بمعنى تجميع شيءٍ مع شيءٍ، ويأتي بمعنى تحصيل حسابٍ أو إجماله، وقد يأتي بمعنى الحُسن والجمال، وما يخص الباحث هنا هو معنى التجميع والضم.

ب– مفهوم الجملة في الاصطلاح

يقول الدكتور علي أبو المكارم: (ت: ١٤٣٧هـ)

"وإن لفظ الجملة لم يُستخدم في النحو إلا في عصر متأخر نسبيًّا؛ إذ كان أول من استعمله مصطلحًا محددَ الدلالة محمد بن يزيد المبرد في كتابه المقتضب"([٤٧٨]).

استعمَل المبرد (ت: ٢٨٥هـ) الجملة في كتابه" المقتضب "في معرض حديثه عن الفاعل، قائلاً: "هذا باب الفاعل، وهو رفع، وذلك قولك: قام عبدالله، وجلس زيد، وإنما كان الفاعل رفعًا؛ لأنه هو والفعل جملة يَحسُن عليها

٤٧٦– المحرر الوجيز: (١/ ٥٢).

٤٧٧ – مقاييس اللغة؛ لابن فارس، ج ١، ص ٤٨١.

٤٧٨– مقومات الجملة العربية؛ للدكتور علي أبو المكارم، ص٢٠.

شبكة الألوكة www.alukah.net

السكوت، وتجب بها الفائدة للمخاطب، فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر، إذا قلت: قام زيد، فهو بمنزلة قولك: القائم زيد"(٤٧٩).

فالمبرد يقصد بمصطلح الجملة: الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، وقد جعَل الفعل والفاعل نظيرين للمبتدأ والخبر.

يقول الدكتور أحمد محمد عبد الراضي:

"ولم يكن قبل المبرد استعمال لمصطلح الجملة، بل أطلق سيبويه على رُكني الإسناد: المسند والمسند إليه، غير أن المبرد لم يُشر إلى ما أشار إليه سيبويه من العلاقة أو الرابطة بين رُكني الجملة – وهي علاقة الإسناد – وظل مفهوم الجملة يتردد في كتب النحو – مقصودًا به الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر – إلى أن جاء ابن جني (ت: ٣٩٢هـ)، فحدَّد مفهوم الجملة عن طريق المقابلة والمقارنة بينهما وبين عددٍ من المصطلحات الأخرى، وعلى رأسها مصطلحا الكلام والقول"(٤٨٠).

وقد نَضِجَ مفهوم الجملة واستوى على سُوقه، وبلَغ أَوْجَ ازدهارِه – عند ابن هشام الأنصاري (ت: ٧٦١هـ) في كتابَيْه الماتعين:"الإعراب عن قواعد الإعراب"، و"مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، فقد تعمَّق ابن هشام في فَهمها، وتوسَّع في بيان أقسامها، وحجمها وموقعها، وسار في الاتجاه الذي يُفرِّق بينها وبين الكلام، وانتقد تَسْوِيَةَ الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) وابن يعيش (ت: ٦٤٣هـ) بينها وبين الكلام، فذكر أنهما غير مترادفين... وقد قسم الجملة إلى ثلاثة أنواع: فعلية واسمية وظرفية – وهي التي تبدأ بظرف أو جار ومجرور– وإلى صغرى وكبرى، وإلى ذات محل وغير ذات محل، وتابَعه على ذلك الشيخ خالد الأزهري (ت: ٩٠٥هـ)، والسيوطي (ت: ٩١١ هـ) (٤٨١).

المطلب الثاني: الإعجاز البياني المتعلِّق بالتلاؤم والاتساق بين كلمات الجملة القرآنيَّة

ما سبق قوله في الكلمة القرآنية نقوله هنا، وهو أن المقصود مكانة الجملة في النظم القرآني المعجز لا الجملة المفردة؛ لأن قيمة الجملة ليست ذاتية، وإنما تعود قيمتها إلى مكانها من النظم المعجز الأحّاذ، لذلك أقل ما وقع به التحدي السورة لا الجملة. (٤٨٢)

فمن أهم مظاهر الإعجاز في الجملة القرآنية:

---

٤٧٩ –المقتضب؛ للمبرد، ج ١، ص ٨.

٤٨٠– نحو النص بين الأصالة والمعاصرة؛ للدكتور أحمد محمد عبد الراضي، ص ٣٣.

٤٨١–المرجع السابق بتصرف: (ص ٣٥ – ٣٦).، ويُنظر: تعريف الجملة لغة واصطلاحًا، محمود حسن عمر، موقع الألوكة، بتاريخ: ١٤٣٧/٩/٧هـ.

٤٨٢– الإعجَازُ البَيَاني لِلقُرآن الكريم أركَانه وَمَظَاهره، د. حسين مطاوع الترتوري: نقلًا عن مجلة البحوث الإسلامية: (ج/٢٣،ص:٢٤٥).

شبكة الألوكة www.alukah.net

أنها مسوقة في موقعها المناسب لتتلاءم مع ما قبلها وما بعدها، وتنبئ عن حسن نظم الكلمات وهي غاية في الإحكام والترابط. ولهذا كان حفظ القرآن أيسر من حفظ سائر أنواع النثر.

ونسوق لذلك ثلاثة أمثلة على النحو التالي:

المثال الأول:

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ}(القمر: ٣٦). فلو أخذنا كلمة (النُّذُرْ) منفصلة عما قبلها في الآية لوجدنا ثقلاً في توالي الضمة على النون والذال معًا لكن الكلمة جاءت في القرآن متلائمة تمامًا مع السياق

يقول الرافعي: (ت: ١٣٥٦هـ)

"تأمل مواضع القلقلة في دال (لقدْ) وفي الطاء من (بَطْشَتَنَا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تَمَارَوا)، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخَفًا بعد ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها فلا تجفو عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر) "([٤٨٣])

والمثال الثاني:

قوله تعالى: { قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}(الرعد: ١٦) فقد اشتملت هذه الآية على تسع جمل متلائمة مع ما قبلها وما بعدها وهي في غاية الدقة والإحكام.

أما الجملة الأولى في تلك الآية فهي: قوله تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} والآية التي قبلها تضمنت أن كل من في السماوات والأرض ساجد ([٤٨٤]) لله فلزم الإنكار على عبدة الأصنام والتوجه إليهم بهذه الجملة الآمرة بلفظ (قل). ولما كان عبدة الأصنام مقرّونُ بالرُّبوبية، ناسب أن يأتي جواب الجملة الأولى على لسان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وهو قوله تعالى: {قُلِ اللهُ}. ولما بين الله سبحانه أنه الرب لكل المخلوقات ناسب أن يسألهم النبي-صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا}. ومن يعبد جمادات لا تنفع ولا تضر يكون كالأعمى الذي يعيش في الظلمات بخلاف من يهديه الله ولذلك ناسب أن يأتي بعد ذلك قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ}، ولما كان من البدهي أن الظلمة لا تساوي النور وأن العمى لا يساوي البصر فُهِمَ أيضًا أن الجاهل الذي يعبد جمادات لا تنفع ولا تضر لا

٤٨٣-الرافعي، إعجاز القرآن ص٢٥٨.

٤٨٤- قال تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالأَصَالِ) (الرعد: ١٥)

شبكة الألوكة www.alukah.net

يساوي العالم الموحد لله، لذا أكد الله سبحانه ما تقدم بالجملتين التاليتين {أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}. وقد جاء قوله: {وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} متلائمًا مع ما قبله لأن خالق كل شيء تلائمه وتثبت له صفة الوحدانية والقهر والقوة (٤٨٥).

والمثال الثالث:

قوله تعالى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} [القمر: ١١، ١٢]،.

تتألف الجملة القرآنية:

من حروف وكلمات مرتبة ومجتمعة وبينها من التلاؤم والاتساق، وأي تغير أو تبديل أو زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو تبديل أو تغير يضيع هذا الاتساق والتلائم، ولا يتم إلا بالوضع الذي وضعت فيع الحروف والكلمات على النحو الذي أنزله الله تعالى بتآلفها واجتماعها إلى بعضها البعض بانسجام وترابط، ليدلل هذا التلاؤم والاتساق على أن هذا القرآن كما وصفه الله سبحانه بقوله: (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت: ٤٢)

فمن تأمل الآية الكريمة وجد الانسجام والتلاؤم والاتساق بين كلماتها بل وبين حروفها كذلك، وهذا شأن **الجملة القرآنية** لا يتم معناها ولا يتحقق حسن نظمها وبديع بيانها إلا بذلك التلاؤم والاتساق.

"ولنتأمل قوله: (ففتحنا) فقد قرئ مخففًا ومشددًا، وكذلك وفجرنا "منهمر" منصب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يومًا (٤٨٦)(وفجرنا الأرض عيونًا) وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر، وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض ونظيره في النظم قوله سبحانه: (واشتعل الرأس شيبًا) (مريم: ٤)". (٤٨٧) فأصلها واشتعل شيب الرأس.

وقَوْلُهُ تَعَالَى:(فَالْتَقَى الْمَاءُ) أَرَادَ الْمَاءَانِ، فَاكْتَفَى بِالْوَاحِدِ، لِأَنَّهُ جِنْسٌ (٤٨٨).

وعن سفيان في قوله تعالى: (فالتقى الماء على أمر قد قدر) قال:

ماء السماء وماء الأرض. **وإنما قيل:** فالتقى الماء على أمر قد قدر، والالتقاء لا يكون من واحد، وإنما يكون من اثنين فصاعدًا، لأن الماء قد يكون جمعًا وواحدًا، وأريد به في هذا الموضع: مياه السماء ومياه الأرض، فخرج بلفظ الواحد ومعناه الجمع.

وقيل: التقى الماء على أمر قد قدر، لأن ذلك كان أمرا قد قضاه الله في اللوح المحفوظ. (٤٨٩)

٤٨٥-محمد بن سعد الدبل، النظم القرآني في سورة الرعد (عالم الكتب) ص١١٠- ١١١.

٤٨٦- انهمر الماء وانصب بكثرة، نعم هذا هو الصواب، أما انهماره أربعين يومًا فلا نعلم عليه أي دليل.

٤٨٧- يُنظر: تفسير الكشاف، للزمخشري: (٦٥٦/٥).

٤٨٨- يُنظر: التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري: (١١٩٣/٢).

٤٨٩- تفسير الطبري: (٥٧٨/٢٢).

شبكة الألوكة www.alukah.net

فالتلاؤم والاتساق بين الكلمات في **الجملة القرآنيَّة** هنا واضح جلي في الانسجام بين كلماتها تقديمًا وتأخيرًا وسبكًا للعبارة.

وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة ترى تلاحق حركاتها وسكناتها، بنظم بديع يستريح له السمع والصوت والنطق، وتأمل أيضًا تآلف الحروف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود، وانظر كيف أن كلًا منها كأنما صب في مقدار، وأنه قدر بعلم اللطيف الخبير(٤٩٠).

وعن هذا التناسق البديع والاتساق بين الجملة وكلماتها يقول الباقلاني:

"تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، ممَّا يتعذَّر على البشر ويمتنع"(٤٩١).

المطلب الثالث: الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة من حيث وقوع الدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل

فالجملة القرآنية: يتحقق بها وقوع الدلالة المقصودة بأقل عبارة ممكنة، ومع ذلك يتحقق بها الدلالة على المعنى المقصود بأكمل وأتم صورة بلاغية وأوسعها، مما لا يمكن تحققه بكماله وتمامه على الوجه المطلوب إلا في كلام الله المعجز بلفظه.

"وهذه ظاهرة جليّة تستطيع أن تتبينها في طريقة التعبير القرآني، مهما اختلفت بحوثه وموضوعاته لا تجد في **الجملة القرآنية** كلمة زائدة يصلح المعنى مع الاستغناء عنها، ولا تستطيع أن تترجم معناها بألفاظ عربية من عندك إلا في عدد من الجمل مهما حاولت الإيجاز والاختصار". (٤٩٢)

ونسوق على ذلك أربعة أمثلة على النحو التالي:

المثال الأول:

أجمع آية (٤٩٣) **في كتاب الله تعالى:** في قوله سبحانه: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (النحل: ٩٠).

فهذه الآية هي أجمع آية في كتاب الله تعالى، فقد جمعت الأمر بالخير كله، وجمعت النهي عن الشر كله، جمعت أهم الأوامر وأعظمها وأجلها ورغبت فيها، وجمعت أعظم المناهي وأسوأها وحذرت ونفرت منها، فجمعت الخير والشر كله بأوجز عبارة وأقل إشارة، وأحسن وأعجز أسلوب شمل فيها كل مرغوب ومرهوب.

٤٩٠- الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو: (ص:١٦٧). بتصرف يسير.

٤٩١-الباقلاني: إعجاز القرآن ص٤٢.

٤٩٢- من روائع القرآن، للبوطي: (ص: ١٤٥).

٤٩٣- يُنظر: تفسير ابن كثير: (٥٩٦/٤).

شبكة الألوكة www.alukah.net

فأما الأوامر التي جمعتها فأولها العدل:

والعدل هو: "القسط والموازنة" (٤٩٤)، وهو القضاء بالحق والإنصاف والمساواة والموازنة وإعطاء كل ذي حق حقه،

والعدل: لفظ واسع الإطلاق يشمل العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق.

فالعدل: لفظ واسع الإطلاق؛ إذ يفسر بمعان كثيرة، هي دائرة على التوسط بين شيئين بحيث لا يميل إلى أحدهما إفراطًا في جانب أو تفريطًا في آخر. وهو في كل مقام بحسبه.

ففي مقام العقيدة: العدل وسط بين الشرك والإلحاد

وفي مقام الحكم: وسط بين المحاباة والإجحاف

وفي مقام الإنفاق: العدل وسط بين التقتير والإسراف. (٤٩٥)

وثانيها: الإحسان

والإحسان هو: الإتقان، وهو ضد الإساءة.

والإحسان معناه واسع، ومن أبرز ما يشمله الإحسان ما يلي:

١- يشمل أداء كل ما أمر الله به على الوجه الذي يحبه ويرضاه

٢- كما يشمل الانتهاء عن كل ما نهى الله عنه مما يسخطه ويبغضه ويأباه

٣- كما يشمل الإحسان للخلق وبذل كل معروف لهم، وكف كل أذى عنهم، وتحمل عفواتهم وزلاتهم

٤- كما يشمل رحمة الحيوان الأعجم والطير في السماء والنملة في جحرها

٥- بل ويشمل الجمادات الصماء، ويكون ذلك بحفظها وعدم إتلافها وصيانتها والقيام عليها بما يصلحها، وهذا كله يندرج تحت مسمى الإحسان.

وقد توافرت الأدلة من نصوص وحيي التنزيل تدلل على عموم ما ذُكِرَ آنفًا.

ويقال: الإحسان ألا تترك لأحد حقًا، ولا تستوفي ما لك. (٤٩٦)

والإحسان: ثالث مراتب الدين، وأعلاها وأزكاها وأكملها وأتمها وأوفاها، وقد اختصر مضمونه ومحتواه من أوتي جوامع الكلم من خالقه ومولاه بعبارة شملت كل جوانبه وفحواه بقوله-صلى الله عليه وسلم- في جوابه للمَلَك لما نجاه: (**الإحسان**: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (٤٩٧)

٤٩٤- يُنظر: تفسير الطبري: (١٧/٢٨٠).

٤٩٥- مقال في تفسير هذه الآية للشيخ أبي بكر الجزائري-رحمه الله- عن: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة. د ت.

٤٩٦-أحكام القرآن لابن العربي: (٣/١٥٥)، دار الكتب العلمية

٤٩٧- البخاري: (٥٠)، مسلم: (٩)، من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وثالثها: إيتاء ذي القربى

وذوو القربى هم: الأرحام، وهم الأقارب من النسب- لا من الرضاع- من جهة الأب والأم.

وصلة الأرحام: تكون بإيصال كل صنوف الإحسان إليهم، كما تكون بكف كل أذى عنهم، وترتقى للوصول إلى تحمل كل أذى وضرر قد يقع منهم.

كما تكون: بزيارتهم ومودتهم والسؤال عنهم، وتكون بالإحسان إليهم بكل ما يمكن من وجوه الإحسان، من تعليم جاهلهم وتنبيه غافلهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، ورحمتهم ومواساتهم في أحزانهم، وعيادة مريضهم، ومشاركتهم أفراحهم، والإحسان إليه بكل سبل الإحسان الممكنة والمتاحة حسب القدرة والطاقة وما جرت به العادة.

قال النووي-رحمه الله-: (ت: ٦٧٦هـ)

"صلة الرحم هي الإحسان إلى الأقارب على حسب الواصل والموصول؛ فتارة تكون بالمال، وتارة تكون بالخدمة، وتارة تكون بالزيارة، والسلام، وغير ذلك ". (٤٩٨)

وهذه الآية كم أنها جمعت الأمر بالخير كله، فقد جمعت النهي عن الشر كله كذلك.

وأما الشر الذي جمعته ونهت عنه:

فأوله: النهي عن الفحشاء

"**فالفواحش**: المحرمات.

وثانيه: المنكرات

والمنكرات: ما ظهر منها(٤٩٩)من فاعلها.

ثالثها: النهي عن البغي

وأما البغي فهو: العدوان على الناس". (٥٠٠).

وقد أوجز سفيان بن عيينة- رحمه الله- معنى الآية بقوله: (ت: ١٩٨هـ)

العدل في هذا الموضع: هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملًا. **والإحسان**: أن تكون سريرته أحسن من علانيته.

والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته. (٥٠١).

وبتأمل ما ورد ذكره حول أجمع آية في كتاب الله تعالى يتبين لنا ما يلي:

٤٩٨- شرح مسلم: (٢ / ٢٠١).

٤٩٩- (الفواحش)

٥٠٠ -يُنظر: تفسير ابن كثير: (٥٩٦/٤). بتصرف يسير.

٥٠١-يُنظر: تفسير الطبري: (٢٨٠/١٧). مرجع السابق .

شبكة الألوكة www.alukah.net

١- بالتأمل في الأوامر الواردة في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) يتبين لنا أنها كلمات ثلاث، ومع ذلك فقد جمعت الأمر بالخير كله، فتحقق بها وقوع الدلالة على كل خير وبر بأقصر عبارة ممكنة، وهي تلك الكلمات الثلاث، كما يتبين لنا كذلك أنها دلت على أوسع وأتم وأكمل معنى، وذلك لأن الكلمات الثلاث شملت خيري الدنيا والآخرة.

٢- وبالتأمل في النواهي الواردة في قوله تعالى: (وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ) يتبين له أنها كلمات ثلاث كذلك، وهي قليلة المباني عظيمة المعاني، وذلك لأنها جمعت النهي عن الشر كله فيها، وقد تحقق بها وقوع الدلالة على النهي عن الشر كله بأوجز عبارة ممكنة، وهي تلك الكلمات الثلاث، كما يتبين لنا كذلك أنها دلت على أوسع وأتم وأكمل معنى، وذلك لأن الكلمات الثلاث نهت عن الشرور والآثام كلها.

وهذه الآية قد تضمَّنت أسس القواعد العُظمى والمبادئ الكبرى التي تتحقق بها المصالحُ العُليا للعباد في المعاش والمعاد، والتي ينال العباد بتحقيقها والعمل بمضمونها سعادة الدارين.

ولذا قال قتادة في هذه الآية: (ت: ١١٨هـ)

"..... ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

وقد اشتهر عند أهل التفسير قول ابن مسعود- رضي الله عنه-: (ت: ٣٢هـ)

إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) الآية. رواه ابن جرير". (٥٠٢).

والمثال الثاني:

قوله تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) (طه: ١١٨ - ١١٩).

لقد أخبر الله في كتابه عن الضمانات التي أعطاها لآدم بعد خلقه، مما يحتاجه الإنسان في حياته من كل ما يدخل في مقوّمات بقائه وعيشه.

ولقد وضع البيان الإلهي هذه الاحتياجات كلها في جملتين فقط الأولى قوله: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ)، والثانية قوله: (وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) وهما خطابًا من الله عز وجل لآدم- عليه السلام-: فتأمل في هاتين الجملتين، وألفاظهما وكيفية صياغتهما وكيف أنهما جمعتا أصول معايش الإنسان كلها من طعام وشراب وملبس ومأوى.

وانظر كيف عبّر عن تأمين حاجته إلى المسكن والمأوى بقوله: (ولا تضحى)... أي لك أن لا تصيبك شمس الضحى أو يؤذيك لفحها بما نهيئه لك من المسكن الذي يؤويك (٥٠٣).

٥٠٢- يُنظر: تفسير ابن كثير: (٤/٥٩٦).

٥٠٣- هذا إن اعتبرنا أنه كانت في الجنة شمس حينما أسكن الله آدم فيها، أما إن قلنا لم يكن ثمة شمس ولا ظل إذ ذاك، فقوله: ولا تضحى مجرد بيان بأنه لن يصيبه أذى من حرّ لافح.

شبكة الألوكة www.alukah.net

والمثال الثالث:

قوله تعالى: (وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ) (الأنفال: ٥٨).

وانظر إلى هذه الآية وقد تضمنت حكمًا من الأحكام الشرعية المهمة.

ثم تأمل صياغتها وطريقة دلالتها على المعنى الذي تعبّر عنه، تجد نفسك أمام أسلوب فريد ليس من دأب الإنسان أن يتأتى له التعبير بمثله.

وإليك ما يقوله ابن قتيبة وهو يحاول التعبير عن معنى هذه الآية بألفاظ عربية من عنده:

"ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: (وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ...)

الآية، لم تستطيع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتظهر مستورها فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضًا فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت عليهم وآذانهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء" (٥٠٤)

وحسبك أن تعلم أن الآيات المتضمنة لأحكام التشريع، قد لا تزيد على ثلاثمائة آية، إلا شيئًا يسيرًا وهي لا تبلغ معشار النصوص الفقهية التي دوّنها الفقهاء فيما بعد، ولكن قد ثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن من أبرز مظاهر الإعجاز في هذه الآيات أن الطريقة الفريدة في صياغة وتراكب جملها، تجعلها متسعة للدلالة على ذخر من المعاني الكثيرة التي لا يمكن التعبير عنها بطريقتنا المألوفة، إلا بواسطة مجلدات...

والمثال الرابع:

قوله تعالى: (وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها، لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ. فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما. وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: ٢٢٣).

فهذه آية واحدة صيغت من ستة أسطر قرآنية، أي مما لا يزيد على ستين كلمة، وقد تضمنت ثلاثة وعشرين حكمًا مما يتعلق بنظام الأسرة، لم يستخرج واحد منها تمحلًا ولا تكلفًا. بل هو بين أن تكون الآية دلّت عليه بصريح المنطوق أو بجلي المفهوم أو بمقتضى النص. وأنت لو رحت تحاول التعبير عن هذه الأحكام بصياغة جليّة

دون اختصار مخلّ أو إطالة من غير لزوم، لاقتضى ذلك منك ما لا يقل عن خمسة وعشرين سطرًا من الكلام أي خمسة أضعاف النص القرآني.

وانظر إلى أحكام الميراث في كتاب الله عزّ وجلّ، وتأمل كيف صيغت فيما لا يزيد عن ثلاثة عشر سطرًا من أسطر القرآن، موزعة في آيتين. فلقد حوت هاتان الآيتان- في غير إخلال ولا تمحّل- أحوال الوارثين ونصيب كلّ منهم

٥٠٤- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: (ص: ١٦).

شبكة الألوكة www.alukah.net

في كل حال من الأحوال. ولقد انبثق من هاتين الآيتين علم مستقل برأسه يمثّل شطرًا كبيرًا من أحكام الشريعة الإسلامية. وهو ما يسمى بـ "علم المواريث"، وقد كتبت فيه مؤلفات مستقلة. وإنك لتعجب كيف اتّسع مضمون آيتين من القرآن لمدلولات كتاب برأسه... ولكن انظر، وتأمل وقارن، فستجد أن هذا الذي تعجب منه حقيقة ثابتة. (٥٠٥)

المطلب الرابع: الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة من حيث إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس

ولكي يتجلى لنا معنى الإعجاز في هذه المزية التي تمتاز بها **الجملة القرآنية**،

ينبغي أن نمهد لذلك بما يلي:

إن الذي أوتي ملكة في الآداب والبلاغة العربية، لا يعدم أن يجد وسيلة إلى تجسيد المعاني المجردة في كلامه وإخراجها في مظهر الأمر المحسوس. إلا أن هذه الوسيلة محصورة في استعمال الاستعارات والتشبيهات. ولكل ذلك طرق محدودة لا مجال للخروج عليها. فهو يستطيع أن يصل بهذه الوسيلة إلى غايته البلاغية بمقدار وضمن حدود.

أما أن يجعل أحدنا من صياغة الجملة ذاتها ومن تآلف كلماتها مع بعض، مرآة يظهر فيها المعنى المطلوب ويبرز محسوسًا وكانه مرئ أمام القارئ، فذلك ما لا سبيل للإنسان إليه. وتلك هي الطريقة الغالبة لتجلية المعاني واستحضارها أمام القارئ لكتاب الله عزّ وجلّ. فحتى عند ما تجد **الجملة القرآنية** بعيدة عن الاستعمالات البلاغية، ترى هذه الظاهرة بارزة متجلية في جمل القرآن وآياته. (٥٠٦)

والقرآن مليء بهذا الوجه من وجوه الإعجاز.

ونسوق أربعة أمثلة تجلي هذا الوجه من وجوه الإعجاز على النحو التالي:

المثال الأول:

قوله تعالى:(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا... (الجمعة: ٥)

وتقرير هذا المثل: أنه مثل ضربه الله لليهود، وهو أنه شبههم بحمار، وشبه التوراة التي كلفوا العمل بما فيها بأسفار أي: كتب جامعة للعلوم النافعة، وشبه تكليفهم بالتوراة بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار، فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي في تلك الكتب المحمولة على ظهره، فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة؛ لأنهم كلفوا باتباع محمد – صلى الله عليه وسلم – وإظهار صفاته للناس فخانوا، وحرفوا وبدلوا فلم ينفعهم ما في كتابهم من العلوم (٥٠٧).

٥٠٥- من روائع القرآن، للبوطي: (ص: ١٥٤-١٤٦). بتصرف يسير.

٥٠٦- المرجع السابق: (١٤٧). بتصرف.

٥٠٧- أضواء البيان: (١١٨/٨).

شبكة الألوكة www.alukah.net

والجملة القرآنية: هنا في التشبيه في قوله سبحانه: (مثل الذين حملوا التوراة.....) بـ(كمثل الحمار) تشبيه غاية في الدقة، يخرج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس، فيجعل هذا المعنى فيمن حمل أمانة العلم فلم يرفع به رأسًا إلى أمر بشع المنظر كأنك تراه رأي عين في قوله: (كمثل الحمار)، فينتقل المعنى المجرد إلى أمر محسوس كأنك تراه رأي عين، فيصبح التشبيه دقيقًا واضحًا جليًا أخَّاذًا، وقد كان ممن الممكن الاكتفاء بالتعبير أن يقال: مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الذي "لا يفعهم" أو" لا يعقل" أو " لا يعي"، ويكتفي بذلك الزجر والتنفير، ولكن هذا التشبيه يزيد الأمر وضوحًا وجلاءً وكأنه أمر محسوس يُرى رأي عين(كمثل الحمار) فتزداد النفس المؤمنة من النفور من التشبه بهؤلاء الذين لم يعملوا بما علموا.

المثال الثاني:

قوله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ) [البقرة: ١٧]

والجملة القرآنية: ظهرت هنا وتجلت وكأنها رأي عين ملموس محسوس، وذلك بتشبيه حال هؤلاء المنافقين في التردد بين قبول هدى الله وبين الغي والضلال بالأعمى الذي لا يبصر طريقًا ولا يهتدي سبيلًا.

وتقرير هذا المثل: أن الله سبحانه وتعالى شبههم – في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى – بمن استوقد نارًا، لما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر ما عن يمينه وشماله وتأنس بها. فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق، أعمى؛ لو كان ضياء لما أبصر. فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا. كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع. والله أعلم. (٥٠٨).

والجملة القرآنية: هنا وردت في هيئة مثل ضربه الله للمنافقين لبيان أن ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق؛ ليثبت لهم به أحكام الإسلام؛ كمثل المستوقد الذي أضاءت ناره ثم طفئت، فإنه يعود إلى الظلمة، ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة، وكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده، وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل، لأن الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت. ومنه قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل. (٥٠٩)

٥٠٨- تفسير ابن كثير: (١ / ٢٦٩). بتصرف يسير.

٥٠٩- فتح القدير للشوكاني: (ج١-٢،ج١/٤٠).

شبكة الألوكة www.alukah.net

المثل الثالث:

قوله تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس: ٢٤)

فالجملة القرآنية: هنا خرجت وكأنها أمر حسي مرأي رأي عين ملموس محسوس، وذلك بتشبيه حال زهرة الحياة الدنيا وزخرفها وسرعة انقضاء زمانها وزوال نعيمها.

والجملة القرآنية: هنا ورد فيها بيان شأن الدنيا وشأن زخرفها وزينتها في سرعة انقضاء نعيمها وزواله، وبيان لحال اغترار الناس بنعيمها الزائل، بحال هذا الماء الذي أنزله الله من السماء فأنبت به أنواعًا وصنوفًا من الزروع والثمار، فازدانت الأرض وتزينت بجمال وبهاء ما أنبت الله فيها، فلما ازدانت وظهرت بهجتها ورونقها طمع أهلها فيها وظنوا أنها سالمة من الآفات، جاءها أمر الله وبأسه، فردها خالقها وبارئها كما كانت أول مرة كأن لم تكن بالأمس.

وتقرير هذا المثل: أن الله تبارك وتعالى ضرب مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه سبحانه من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقَضْبٍ وغير ذلك، (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا) أي: زينتها الفانية، (وَازَّيَّنَتْ) أي: حسنت بما خرج من رُباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ) الذين زرعوها وغرسوها (أَنَّهُمْ قَادِرُونَ) أي: على جذاذها وحصادها، فبينا هم كذلك، إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: (أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا) أي: يبسًا بعد تلك الخضرة والنضارة، (لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك. (٥١٠) (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أَيْ كَهَذَا الْمَثَلِ فِي جَلَائِهِ وَتَمْثِيلِهِ لِحَقِيقَةِ حَالِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَغُرُورِ النَّاسِ فِيهَا، وَسُرْعَةِ زَوَالِهَا، عِنْدَ تَعَلُّقِ الْآمَالِ بِنَوَالِهَا، نُفَصِّلُ الْآيَاتِ فِي حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ، وَأُصُولِ التَّشْرِيعِ، وَأَمْثَالِ الْوَعْظِ وَالتَّهْذِيبِ، وَكُلِّ مَا فِيهِ صَلَاحُ النَّاسِ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِمَعَادِهِمْ، لِقَوْمٍ يَسْتَعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِيهَا، وَيَزِنُونَ أَعْمَالَهُمْ بِمَوَازِينِهَا، فَيَتَبَيَّنُونَ رِبْحَهَا وَخُسْرَانَهَا.. (٥١١).

٥١٠- تفسير ابن كثير: (٤/٢٦٠).

٥١١ - تفسير المنار: (١١/٢٨٤).

شبكة الألوكة www.alukah.net

المثل الرابع:

قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:٢٦١).

فالجملة القرآنية: هنا خرجت مخرج التشبيه التمثيلي مخرج الحسي المشاهد لمن ينفق ماله احتسابًا في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فقبله الله منه ونماه وضاعفه له أضعافًا مضاعفة حتى صار (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ)، وقد تصل بإخلاص وصدق صاحبها لأضعاف مضاعفة.

وتقرير هذا المثل في الجملة القرآنية: التي خرجت هنا وكأنها أمر حسي ملموس محسوس يُرى رأي العين، فظهر المعنى المجرد مظهر الواقع المحسوس الملموس، حتى يكون أقرب إلى الفهم والإدراك، وأوضح في تحقيق بيان المعنى المقصود من الخطاب القرآني.

والجملة القرآنية: هنا صارت مثلًا على مضاعفة الأجر لمن أنفق ماله في سبيل الله، وإشارة إلى أن الأعمال الصالحة التي يتقبلها الله تعالى وينميها لأصحابها ويضاعفها لهم أضعافًا مضاعفة، وينميها ويُكاثرها كهذه الحبة المباركة التي باركها سبحانه فأنبتت سبع سنابل من القمح وجعل في كل سنبلة منها مائة حبة.

فالجملة القرآنية: هنا تتجلى فيها قيمة ومكانة الإنفاق في سبيل الله، وكان من الإمكان أن يرد الخطاب القرآني هنا بصيغة أخرى مغايرة تحس على الإنفاق في سبيل الله فحسب، وتجلى ما يترتب على هذا الإنفاق بإخلاف الله على المنفق دون تحديد، لكن ذكر مثل هذه الحبة المباركة وما أنبتته من تلك السنابل السبع وما تكاثر فيها من القمح حتى وصل إلى مائة حبة في كل سنبلة، وإلى وعد الله بالإخلاف بأضعاف مضاعفة لمن يشاء، يخرج **الجملة القرآنية** من المعنى المجرد إلى مظهر الأمر المحس الملموس وكأنه رأي عين.

أهم المصنفات في إعجاز القرآن – قديمًا وحديثًا –:

ومن المناسب أن يُختم هذا المبحث الهام بذكر أهم المصنفات في إعجاز القرآن – قديمًا وحديثًا:

إن من الأهمية بمكان ذكر أهم المصنفات في إعجاز القرآن، وهي كثيرة جدًا، ولكن سنشير لأهمها وأبرزها وبيان المتداول والمطبوع منها.

أولًا: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

تأليف الرماني (٣٨٤هـ)، والخطابي (٣٨٨هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)

والكتاب بتحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، ونشرته دار المعارف، مصر– القاهرة. وهذا الكتاب يقدم رؤية متنوعة لقضية الإعجاز القرآن ومحاولة لتفسير آيات التحدي. والكتاب صغير الحجم، ولكن هذه الرسائل الثلاث مهمة جدًا، وهي من أوائل المؤلفات في إعجاز القرآن، ولا بد للقارئ من الاطلاع عليها. (٥١٢)

٥١٢– وهي متوفرة بصيغة إلكترونية: " بي دي إف " .

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثانيًا: إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني: (ت٤٠٣هـ)

ويعتبر هذا الكتاب من أقدم وأجود الكتب المؤلفة في إعجاز القرآن الكريم، وبيان وجه الإعجاز في القرآن. ومؤلفه توفي عام ٤٠٣هـ. وقد حظي الكتاب بشهرة كبيرة لدى العلماء قديمًا وحديثًا، وقد أكثر العلماء في النقل عنه، فلا بد للباحث من قراءة هذا الكتاب ليعلم نشوء البحث في موضوع إعجاز القرآن. وأجود طبعاته تلك الطبعة التي نشرتها دار المعارف بمصر بتحقيق السيد أحمد صقر رحمه الله. (٥١٣)

ثالثًا: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ

وهذا الكتاب من أمهات كتب إعجاز القرآن، وهو الذي وضع فيه نظيرته (نظم القرآن)، وأصبحت نبراسًا لمن جاء بعده وصنف في إعجاز القرآن، وقد عرف الجرجاني بهذه النظرية (نظرية النظم) فيما بعد. والكتاب مهم جدًا لكل باحث

في إعجاز القرآن، وأجود طبعاته الطبعة التي حققها محمود محمد شاكر رحمه الله.

رابعًا: معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ)

ويقع الكتاب في ثلاثة مجلدات، وأجود طبعاته التي حققها علي محمد البجاوي في دار الفكر العربي، والكتاب يستعرض فيه السيوطي خمسة وثلاثين وجهًا من وجوه إعجاز القرآن، ثم ختم الكتاب بفوائد كلية. وهو كتاب قيم جدير بالقراءة.

خامسًا: النبأ العظيم للعلامة محمد عبدالله دراز (ت: ١٣٧٧هـ)

كتاب " النبأ العظيم " يعد من الكتب التي ألفت في بيان إعجاز القرآن بأسلوب علمي رصين معاصر.

وهذا الكتاب من أجود الكتب المعاصرة التي صنفت في إعجاز القرآن وإن لم يستوعب مسائله، وجدير بالباحثين قراءة هذا الكتاب قراءة متأنية، والإفادة مما سطره مؤلفه فيه.

سادسًا: مداخل إعجاز القرآن لأبي فهر محمود محمد شاكر (ت: ١٤١٨هـ)

وهو على وجازته مهم جدًا، فقد ضمنه المؤلف ثلاث مقدمات مهمة في نشأة مصطلح الإعجاز والمعجزة، وناقش القائلين بالصرفة وجهًا من أوجه إعجاز القرآن، وأسلوبه أدبي فيه إطالة، والوصول للمقصود منه يحتاج لتأني وصبر. (٥١٤)

سابعًا: مباحث في إعجاز القرآن الكريم للدكتور مصطفى مسلم

وقد أودع فيه مؤلفه أهم المسائل التأصيلية لعلم إعجاز القرآن الكريم، وأسلوبه سهل، ومدعم بالأمثلة والشواهد.

٥١٣- وهي متوفرة بصيغة إلكترونية مغلقة: " بي دي إف " .

٥١٤- وهو متوفرة بصيغة إلكترونية مغلقة: " بي دي إف " .

شبكة الألوكة www.alukah.net

ثامنًا: المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم، للدكتور سعد الدين السيد صالح

وهو كتاب قيم في تحرير عدد من المصطلحات العلمية المتعلقة بالإعجاز في القرآن الكريم.

تاسعًا: إعجاز القرآن للدكتور حسين نصار

وهذا الكتاب جامع متميز لكل ما كتبه العلماء عن الإعجاز، وقد حاول أن يلم به إلمامًا دقيقًا ويناقشه مناقشة علمية للخروج بالصواب في كل مسألة. وهو جدير بالقراءة، ولا يعيبه سوى دقة خط طباعته.

عاشرًا: فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصي

هذا كتاب قيم صدر للمرة الأولى قبل حوالي ستين عامًا، عام ١٣٧٤هـ. وكان قبل ذلك نشر منجمًا في مجلة المجمع العلمي بدمشق. وقد صدر في طبعته الثانية عام ١٤٠٠هـ عن مؤسسة الرسالة، وهي طبعة مزيدة ومنقحة قدم لها وللطبعة الأولى الأستاذ العلامة محمد بهجة البيطار –رحمه الله– عضو المجمع العلمي العربي. ويقع الكتاب في مجلد واحد اشتمل على ٤٨٠ صفحة من القطع العادي. وموضوعه قيم، حيث تتبع الدراسات والمؤلفات في إعجاز القرآن الكريم منذ بدايتها حتى عصر المؤلف. وقد عرض فيه الآراء عرضًا تاريخيًا، وحرص أن يكون حياديًا لا ثناء فيه على ما يستحسنه، ولا ذم لما لا يرتضيه، وناقش الأقوال التي عرضها، واختصر تلك المؤلفات في أبرز ما جاء فيها من مسائل. فهو كتاب قيم، ينتفع به الطالب في تتبع المؤلفات الكثيرة في إعجاز القرآن، واستعراضها استعراضًا سريعًا. وهو جدير بأن يكمل بناء على ما طبع بعد ذلك من المؤلفات في إعجاز القرآن، وقد فعل شيئا من ذلك الدكتور حسين نصار في الكتاب الذي قبله.

حادي عشر: الإعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، للدكتور محمد محمد أبو موسى

وقد حرر فيه عدة مسائل تتعلق بتعريف العلماء للإعجاز، ورؤيتهم لوجه إعجاز القرآن، وأضاف الكثير من الأفكار لموضوع إعجاز القرآن. وأنا أنصح بقراءة كل كتب المؤلف فهي نفيسة ومحررة ودقيقة، ومعظمها في إعجاز القرآن البلاغي تنظيرًا وتطبيقًا، ولا سيما كتابه عن (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري)، وكتابه (المدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني).

ثاني عشر: المجيد في إعجاز القرآن المجيد لابن خطيب زملكان

تحقيق: د. شعبان صلاح، والكتاب يدور حول البلاغة القرآنية ويتضمن مسائل نحوية، وقد قام المحقق مشكورًا بتوضيح عبارة الكتاب وشرح ما يحتاج الي شرح. والكتاب طبعته دار عمار ١٤٢٦هـ، ويقع في ٢٤٨ صفحة.

ثالث عشر: المدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز في الكتاب العزيز،

تأليف الدكتور محمود أحمد غازي وهو أستاذ الشريعة بكلية الدراسات الإسلامية بمؤسسة قطر، وقد توفي عام ١٤٣١هـ.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد خرج أحاديثه محمد رحمة الله حافظ الندوي. وخرج الكتاب في ٣٨٤ صفحة من القطع العادي، قسمه المؤلف إلى أربعة عشر بابًا تناول في كل باب مسألة مهمة من مسائل إعجاز القرآن. (٥١٥).

وختامًا:

فلعل في هذا الإيجاز ما يجلي ويوضح أهم أوجه دلائل الإعجاز. **والحمد لله رب العالمين.**

أملاه

العبد الضعيف الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

أبو عبد الرحمن

عَرَفةُ بْنُ طَنْطَاوِيّ

الرياض في: غرة المحرم

من عام ١٤٤٢هـ

٥١٥- باختصار وتصرف نقلًا عن مقال-عرض بعض الكتب المطبوعة في إعجاز القرآن الكريم- د. عبد الرحمن الشهري-موقع أهل التفسير، بتاريخ: ١٤٣٣/٩/١٤هـ.-

شبكة الألوكة
www.alukah.net

فهرس الموضوعات

المحتويات

دِيْباجةُ الكتاب وفاتحته **١**

الداعي لتصنيف هذا البحث **٤**

خطة البحث **٤**

الفصل الأول **مفهوم الإعجاز والتحدي بالقرآن** **١٠**

المبحث الأول: بيان مفهوم الإعجاز والمعجزة ودلالاتهما في اللغة والاصطلاح **١٠**

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز والمعجزة لغة ١٠

أ- مفهوم الإعجاز في اللغة ١٠

ب- مفهوم المعجزة في اللغة ١١

المطلب الثاني: مفهوم الإعجاز والمعجزة اصطلاحًا ١١

أ- مفهوم الإعجاز اصطلاحًا ١١

ب- مفهوم المعجزة اصطلاحًا عند أهل السنة وبيان خطأ من خالفهم ١٢

المطلب الثالث: مفهوم البيان في اللغة والاصطلاح ١٥

أ- مفهوم البيان في اللغة ١٥

ب- مفهوم البيان في الاصطلاح ١٥

المبحث الثاني: أبرز وجوه الإعجاز الواردة في القرآن **١٦**

المطلب الأول: الإعجاز البياني ١٦

المطلب الثاني: الإعجاز الغيبي وأقسامه ١٨

أولًا: ذكر نبأ أبينا آدم أبي البشر-عليه السلام-، وما قصه الله من خبر خلقه ونشأته، وخبره مع الملائكة، ... ٢٠

ثانيًا: ذكر نبأ نوح-عليه السلام-، ٢١

ثالثًا: الإخبار عن أبي الأنبياء إبراهيم-عليه السلام - ٢١

رابعًا: الإخبار عن موسى -عليه السلام - في القرآن فهو أكثر من أن يُحصى، ٢٢

خامسًا: الإخبار عن عيسى -عليه السلام - ٢٧

سادسًا: الإخبار عن الكثير من قصص الأولين وأخبار السابقين، ٢٨

ومنه: الإخبار عن نبأ قوم عاد ٢٨

الإعجاز الغيبي الثاني: الإخبار عن الأمور الغيبية التي تتعلق بغُيُوبٍ في الزمن الحاضر الْمُعاصِر والواقع في ٣٠

المطلب الثالث: الإعجاز التشريعي ٤٤

شبكة الألوكة www.alukah.net

المبحث الثالث: ٥٦
الاعجاز الذي وقع به التحدي في القرآن جملة وتفصيلًا هو الإعجاز اللغوي البياني. ٥٦
المطلب الأول: مفهوم التحدي في اللغة والاصطلاح: ٥٧
المطلب الثاني: التحدي بالقرآن تعريضًا ٥٧
المطلب الثالث: التحدي بالقرآن تصريحًا ٥٨
المطلب الرابع: مستويات التحدي بالقرآن ٥٩
المطلب الخامس: إعجاز القرآن من أهم الأبحاث المتعلقة بالقرآن ٦٠
المطلب السادس: شمولية إعجاز القرآن ٦٤
الفصل الثاني ٦٩
القَوْلُ بِالصَّرْفَةِ ٦٩
المبحث الأول: القول بالصرفة محاولة لنفي ذاتية الإعجاز عن القرآن ٧٠
المطلب الأول: مفهوم الصَّرْفة في اللغة والاصطلاح ٧٠
المطلب الثاني: ما هو المقصود بالصَّرْفة؟ ٧٣
المطلب الثالث: إثبات ذاتية الإعجاز للقرآن ٧٤
المطلب الأول: المصدر الأول لفكرة القول بالصَّرْفة ٧٩
المطلب الثاني: كيفية وفود فكرة القول بالصرفة إلينا، وبيان المصدر الثاني الذي تَلَقَّاهَا ورُوِّج لها ٨٠
المطلب الثالث: ذكر أقوال المتقدمين القائلين بتأكيد تلقي النَّظام لفكرة القول بالصرفة من الفلاسفة ٨١
المبحث الثالث: أبرز أقوال القائلين بالصرفة من المعتزلة وغيرهم ٨٣
المطلب الأول: أول من قال بالصَّرْفَةِ من المعتزلة ٨٧
المطلب الثاني: القائلون بالصرفة من المعتزلة غير النظّام ٨٩
المطلب الثالث: القائلون بالصَّرْفة من غير المعتزلة، من الأشاعرة وغيرهم. ٩٤
المطلب الخامس: خلاصة القول بالصَّرْفَةِ ١٠٠
المبحث الرابع: ردُّ شُبهةِ القولِ بالصَّرْفَةِ وبيان بطلانها ١٠١
المطلب الأول: الرد على القائلين بالصَّرْفَةِ وبيان دلائل بطلانها ١٠١
المطلب الثاني: أشهر أقوال من قال ببطلان القول الصَّرْفَةِ من العلماء ١٠٧
المطلب الثالث: أهم النتائج المستخلصة من مدارسة ومناقشة مبحث "القول بالصَّرْفة". ١١٣
الفصل الثالث منهج الإعجاز البياني وخصائصه في القران ١١٤
المبحث الأول: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالأسلوب وخصائصه في القران الكريم ١١٤

شبكة الألوكة
www.alukah.net

المطلب الأول: الإعجاز البياني في القرآن مبحث متعلق بالعقيدة ١١٤
المطلب الثاني: أركان الإعجاز البياني للقرآن الكريم..... ١٢٣
المطلب الثالث: الإعجاز البياني المتعلِّق بالأسلوب ونظمه البديع ١٢٨
المطلب الرابع: العجز عن مجاراته ومحاكاته ١٣٠
المطلب الخامس: ترابط وتناسق أجزائه ١٣١
المطلب السادس: صياغة أسلوبه موافقًا لحال جميع المخاطبين ١٣٤
المطلب السابع: الإعجاز البياني المتعلِّق بأسلوب القرآن في التّعقيب الذي يرد في خواتيم الآيات ١٣٥
المطلب الثامن: تميز أسلوبه بالإقناع والإمتاع ١٣٨
المطلب التاسع: الإعجاز البياني المتعلِّق بأسلوب ضرب الأمثال في القرآن ١٣٩
المطلب العاشر: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالإيجاز في القرآن الكريم..... ١٤٥
المطلب الحادي عشر: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالتكرار في القرآن الكريم..... ١٦٢
المبحث الثاني: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بجمال ١٦٨
المطلب الأول: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة أثر وقوعها على السمع..... ١٦٨
المطلب الثاني: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة دقة التعبير، وبلاغة التركيب، وبراعة ١٧٠
المطلب الثالث: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة روعتها وتميز انتقائها..... ١٧٤
المطلب الرابع: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة اتساقها مع المعنى..... ١٧٧
المطلب الخامس: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة أثرها الدلالي والبياني في النظم القُرْآني ومضمونه..... ١٧٩
المطلب السادس: تعلِّقه بجمال الكلمة من جهة اتساع دلالتها لما لا تتسع له دلالات الكلمات الأخرى من
المعاني والمدلولات عادة..... ١٨١
وختامًا: ١٨١
المبحث الثالث: منهج الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة وصياغتها..... ١٨٢
المطلب الأول: مفهوم الجملة في اللغةً والاصطلاح..... ١٨٢
المطلب الثاني: الإعجاز البياني المتعلِّق بالتلاؤم والاتساق بين كلمات الجملة القرآنيَّة ١٨٣
المطلب الثالث: الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة من حيث وقوع الدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى تام
متكامل ١٨٦
المطلب الرابع: الإعجاز البياني المتعلِّق بالجملة القرآنيَّة من حيث إخراج المعنى المجرد ١٩١
فهرس الموضوعات..... ١٩٨

شبكة الألوكة
www.alukah.net

المركز في سطور

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه.

وبعد:

فإنَّ شرف العلم من شرف المعلوم، وشرف كل علم بشرف متعلقه، وعلوم القرآن متعلقة بأشرف كتاب ألا وهو كتاب الله تعالى، ولذا تُعدُ علومُ القرآن من أجلِّ العلوم؛ بل ومن أشرفها وأبركها وأعلاها قدرًا وأزكاها، وأعظمها أثرًا ونفعًا، والبشرية عمومًا والأمة خصوصًا لها أكثر احتياجًا على مر العصور والأزمان؛ وذلك لمسيس الحاجة لفهم معاني آي التنزيل، وإيضاح غريب ومبهم القرآن، وبيان مقاصده وأحكامه، وبيان دلائل هداياته، والجواب عن تساؤلاته، وبيان مجمل معاني آياته.

* وأهل هذا العلم نالوا شرفًا مرومًا، وعلوَ قدرٍ وشأنٍ، ورفعةَ مكانةٍ، وسموَ رتبةٍ؛ إذْ جعلهم اللهُ مرجعًا للعباد في الدلالة على إيضاح المراد من كلامه سبحانه وتعالى، وأي شرف يعدل هذا الشرف!

* ولا شك أن هذا من أعظم الدوافع وأعظم المطالب الداعية للتنافس في بذل العمر النفيس والوقت الغالي العزيز لنيل أعظم المراتب وأشرف الأماني، وهذا مما يعين على البذل والتضحية في التنقيب والبحث في علوم القرآن بعلو همةٍ وإقبالِ نفسٍ لتحقيق تلك الرتب العالية، والفوز بالمكانة الرفيعة السامية، ونيل تلك المآرب الشريفة الغالية.

* هذا مع ما يمن الله به على من اشتغل بهذا العلم الشريف من التعلق بكتاب ربه وعمارة وقته وحياته به، ويُنزِّل الله عليه من السكينة والطمأنينة وشآبيب الرحمة، مع ما يورثه ربُهُ من انشراحٍ لصدره وطمأنينة لنفسه وتزكية لفؤاده وصلاح في معاشه، مع ما أعده له من جزيل عطائه وجزيل ثوابه في معاده، هذا مع ما يعود نفعه لعباده ببيان وإيضاح معاني تأويل كتابه والكشف عن أسرار تنزيله وبيان معاني آياته.

قال سبحانه في شأن كتابه:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

* ومركز تأصيل علوم التنزيل للبحوث العلمية والدراسات القرآنية يسعى لتقديم أهم مباحث علوم القرآن الكريم في ثوب قشيب وحلل زاهية بتقريب معاني تلك الدراسات وتسهيلها وتقديمها بأسلوب سهل التناول قريب المأخذ سهل المنال يتناسب مع عموم المسلمين، مع ما ينهجه في ذلك من الأسلوب العلمي وطريقة البحث المنهجي التربوي الذي يفيد الباحثين المختصين.

* كما أن من أبرز أهداف المركز وأجلّها العناية بمنهج وعقيدة أهل السنة والجماعة في كل ما يقدمه، مع تفنيد العقائد والمناهج المخالفة لمنهج الفرقة الناجية الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة ـ أهل السنة والجماعة.

* تلك هي أبرز الدوافع الداعية لتأسيس مركز تأصيل علوم التنزيل للبحوث العلمية والدراسات القرآنية، لخوض البحث والتنقيب عن علوم القرآن وتقديمها للمسلمين عمومًا وللباحثين المختصين خصوصًا؛ وذلك لتعلقها بأشرف وأعظم وأجلّ كتاب ينبغي أن تبذل من أجل فهمه وتدبره والعمل به والتحاكم إليه والتداوي به، الهمم العوالي والمهج الغوالي والعمر النفيس الغالي.

* كما يسعى المركز فيما يقدمه من بحوث علمية بتخريج الأحاديث النبوية وعزوها لمصادرها الأصلية والحكم عليها، عدا ما كان في الصحيحين لتلقي الأمة لهما بالقبول، وتنقية البحوث من الأحاديث المكذوبة والموضوعة والضعيفة قدر الممكن والطاقة.

* كما يسعى المركز كذلك في تقديم مادة علمية خالية من البدع والمحدثات والخرافات والإسرائيليات وكل ما علق بمصنفات علوم القرآن من كل ما لا يمت بدين الله وشرعه المطهر بصلة، ومن كل ما يخالف منهج أهل السنة والجماعة عقيدةً، وشريعةً، ومنهاجًا، قدر الممكن والطاقة والإمكانات المتاحة.

المشرف العام

من إصدارات المركز

موسوعة
" تأصيل علوم التنزيل"

وَهذه ضِمْن مُؤَلَّفات العبد الضعيف الفقير إلى عَفْو ربِّه وَرَحْمَته وَمَغْفرته:

عرفة بن مصطاوي

عَفَا اللَّه عَنْه

الرَّئيس العَامّ لِمَرْكز تَأْصيل عُلوم التَّنْزيل للبُحوث العلْمية وَالدِّرَاسَات القُرآنية

وها هي مرتبة على النحو التالي:

١- **مَعَالمُ التَّوْحيد في فَاتحَة الكتَاب**ـ (دراسة تحليلية موضوعية)، (رسالة دكتوراه)
(مطبوع ومنشور عن دار المأثور- بالمدينة النبوية-١٤٤١هـ)

٢- **عنايَةُ الإسْلام بتَرْبيَة الأبْنَاء كَمَا بَيَّنَتْهَا سُورَةُ لُقْمَانَ**، (دراسة تحليلية موضوعية) في مجلدين (رسالة ماجستير)

٣- **التقرير لأصول وقواعد علم التفسير** - مقرر دراسي"دراسات عليا"

٤- **تعليم المتعلمين طرق ومناهج المفسرين** - مقرر دراسي"دراسات عليا"

٥- **المدخل الموسوعي لدراسة التفسير الموضوعي** - مقرر دراسي "دراسات عليا"

٦- **المنهج التأصيلي لدراسة التفسير التحليل** - مقرر دراسي "دراسات عليا"

٧- **دلائل التوفيق لأصح طريق لجمع الصديق** - مقرر دراسي "دراسات عليا"

٨- **الشُّفْعَةُ بَيْنَ الجَمْع العُثْمَانيّ وَالأَحْرُف السَّبْعَة** في (مجلدين) وهذا البحث يعُد موسوعة علمية مستقلة.

٩- **أَحْسَنُ المَنَاحي في إثْبَات أَنَّ الرَّسْمَ العُثْمَاني تَوْقيفي لا اصْطلاَحي**

١٠- **الفتح الرباني في دلائل الإعجاز البياني** - مقرر دراسي "دراسات عليا"

١١- **صيَانَةُ كَلَام الرَّحْمَن عَنْ مَطَاعن أَهْل الزَّيغ والرَّوَغَان** - مقرر دراسي "دراسات عليا"

١٢- **موقف علماء الشيعة الإمامية من المصاحف العثمانية** - مقرر دراسي "دراسات عليا"

١٣- **الذَّهَبُ الإبْرِيزُ في خَصَائص الكتَاب العَزِيز**

١٤- **جَنَى الخُرْفَة في إبطال القول بالصَّرْفَة** - مقرر دراسي "دراسات عليا"

١٥- **آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ في إعْجَاز القُرْآن في إخْباره عَنْ المُغَيَّبَات (دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ مَوْضُوعِيَّةٌ)**

١٦- **التِّبْيَانُ في بَيَان وُجُوه الإعْجَاز التَّشْريعيّ في القُرْآن**

١٧- **إيجاز القول في الإعجاز**

١٨- **التحدي في القرآن**

١٩- **صَحِيحُ المَنْقُول المُوَافِقُ لصَرِيح المَعْقُول في مُنَاقَشَة ثَلاَثَة تَفَاسِيرَ رُتِّبَتْ عَلى تَرْتِيب النُّزُول.**

٢٠- **البُرْهَانُ فِي حَقِيقَةِ حُبِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَأَصْحَابِهِ لِلقُرْآنِ**

٢١- **إِتْحَافُ أَهْلِ الإِيمَانِ بِدِرَاسَةِ الجَمْعِ الصَّوْتِي لِلقُرْآنِ** "الجَمْعُ الرَّابِعُ لِلقُرْآنِ الكَرِيمِ"- تَارِيخٌ- وَأَحْدَاثٌ - وَقَائِعُ- وَأَحْكَامٌ - "دِرَاسَةٌ تَأْرِيخِيَّةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ"

٢٢- **آفَاتٌ وَمُعَوِقَاتٌ فِي طَرِيقِ التَّسْجِيلِ الصَّوتِي لِلقُرآنِ**

٢٣- **بُلُوغُ المَرَامِ فِي قِصَّةِ ظُهُورِ أَوَّلِ مُصْحَفٍ مُرَتَّلٍ فِي تَارِيخِ الإِسْلَامِ**

٢٤- **تَوْجِيهُ أَهْلِ الإِيمَانِ لِضَوَابِطِ تَسْجِيلِ القُرْآنِ**

٢٥- **الكَوَاشِفُ الجَلِيَّةُ فِي حُكْمِ قِرَاءَةِ القُرْآنِ بِالمَقَامَاتِ المُوسِيقِيَّةِ**

أو: فصل النزاع بين التغني بالقرآن وتلاوته بـ "مقامات الشيطان"

٢٦- **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**

٢٧- **التَّبْصِرَةُ لِمَن أَرَادَ بِتَعْلِيمِ القُرآنِ وَجْهَ الدَّارِ الآخِرَةِ** (مطبوع ومنشور عن دار المأثور- بالمدينة النبوية-١٤٣٧هـ)

٢٨- **تَبْصِرَةُ أُولِي الأَلْبَابِ بِمَعَانِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ** - مقرر دراسي "دراسات عليا"

٢٩- **كَشْفُ الوَقِيعَةِ فِي بُطْلَانِ دَعْوَى التَّقْرِيبِ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالشِّيعَةِ**

٣٠- **التَّقِيَّةُ أَسَاسُ دِينِ الشِّيعَةِ الإِمَامِيَّةِ**

٣١- **قَطْعُ العَلَائِقِ لِلتَّفَكُّرِ فِي عُبُودِيَّةِ الخَلَائِقِ**

٣٢- **الآداب النبوية والأحكام الشرعية في عيادة المريض وعبادته** (مطبوع ومنشور عن دار المأثور-بالمدينة النبوية-١٤٣٧هـ)

٣٣- (**التوحيد من الكتاب والسنة**) (مفهومه ومعناه-حقائقه وفضائله-دلائله ونواقضه)

٣٤- **دليل الطالع والنازل في بيان حقيقة أعلى المنازل.** (إياك نعبد وإياك نستعين)

٣٥- **ألطف اللطائف في بيان سبل الثلاث طوائف:** (المنعم عليهم- المغضوب عليهم - الضالين)

٣٦- **أوضح البيان في حقيقة نبوة لقمان**

وغيرها من البحوث - قيد التنسيق- .

مركز تأصيل علوم التنزيل
للبحوث العلمية والدراسات القرآنية